جمال البنا

الـرد على البـابـا

ملف توثيقي وإبداعي

المحتويات

- مقدمـــــــــــــة

الفصل الأول

نص محاضـــــرة البابا

- التعليق على خطبة البابا

الفصل الثاني

الردود في الصحافة العربية

الفصل الثالث

الردود في الصحافة الغربية

- خاتمـــــــــــــة

الحمد لله

الذي لا نعبد أحدًا سواه

رأينا أن نصدر هذا الكتاب لأن خطبة البابا بنديكت السادس عشر لم تحظ بما تستحقه من الأهمية، ولم تفهم مدلولاتها تمامًا، وإن أقل تداعياتها أنها أقامت عقبة كؤود في طريق الحوار الذي كان ماضيًا من خمسين عامًا، حتى ولو كانت حصيلته ضئيلة، وأنها بدلاً من أن تشيع السلام والمحبة والتقارب ما بين الشعوب فإنها عمت عنصرية كريهة وأحلت المركزية الأوروبية التي يؤمن بها الاستعماريون محل الأخوة البشرية التي تنادي بها الأديان.

وقد كانت الردود العربية ـــ رغم أن بعضها وصل إلى ما انتهينا إليه، فإن معظمها كان أقل من المستوى، وكان الرد الوحيد الشجاع هو ما تقدم به كاثوليكي مصري هو الأستاذ البير عازر بارح الذي طالب البابا إما أن يصدر اعتذارًا مقنعًا، أو الاستقالة من منصبه حرصًا على سلامة الكنيسة الكاثوليكية.

والحقيقة إن الاعتذار المقنع يجب أن يتضمن أن المفاهيم التي قدمها البابا قد جانبها الصواب، وهذا أمر عسير جدً على البابا ـ وبوجه خاص هذا البابا ـــ أن يصدره، ولابد لتسوية الآثار السيئة العميقة التي خلقها، وما يترتب عليها من نتائج أن تعلن الكنيسة صراحة إن خطبة البابا لا تعد ملزمة للكنيسة الكاثوليكية لأنها محاضرة أكاديمية ذات ظروف خاصة، أداها البابا كمحاضر أكاديمي في جامعته القديمة، وليس كبابا للكنيسة الكاثوليكية، وبالتالي فلا تظفر بمصداقية ما تصدره الكنيسة من قرارات أو أحكام عن طريق المجمع الفاتيكاني Council الذي يضم كل الأساقفة ويظفر بمصداقيتهم، وهذه وسيلة ديبلوماسية تخلص الكنيسة من المأزق، ولا تحوج البابا إلى اعتذار، وأنها ـ أي الكنيسة الكاثوليكية ـــ تقيم علاقاتها على أساس احترام الإسلام وعدم المساس أو التعرض لأي شيء من مقدساته، أو رسله أو رموزه، شأنه في هذا شأن ما يجب أن تظفر به المسيحية من المسلمين، وأن يتم الحوار في المساحات الواسعة التي تتفق فيها الأديان، والقيم والمبادئ المشتركة مثل تحريم التعذيب، ومقاومة الحروب، وإنصاف المظلومين، وإنقاذ البيئة من سوء استخدامها.. الخ.

ونحن لا نريد تصعيد الموقف، أو توتير العلاقات، ونحن نقاوم كل تصرف انفعالي، ولكننا في الوقت نفسه لا نرى أن يُرم هذا الجرح على فساد، وأن الصراحة القوية هي التي تحسم الموقف.

هذا وحده هو الذي يمكن أن يغسل ما أثارته الخطبة من إهانات للإسلام نتيجة لسوء فهمه، ولكن يغلب أن لن تسلك الكنيسة هذا المسلك إلا إذا وقفت الدول الإسلامية جميعًا موقفًا حازمًا، وأن تصدر الهيئات الإسلامية من كل أنحاء العالم الإسلامي بيانًا موحدًا بهذا المعنى، وفي حالة عدم تجاوب الكنيسة فعلى الدول الإسلامية أن تسحب سفرائها لدى الفاتيكان، لأن هذا التمثيل يعني الاعتراف ـ بكنيسة

تهين الإسـلام ـــ أو يقـف على رأسـها رئيس غـير متعـاطف، ويقـوم على سـوء فهم الإسلام.

فعلى أقل تقـدير أن ميزانيـة الـدول الإسـلامية أحـوج إلى مـا ينفـق على هـؤلاء السفراء، كما أن ديبلوماسيتها في حاجة لخدمات هؤلاء السفراء في أماكن أخرى.

هناك إذن سبب وجيه، بل ويكاد يكون ضروريًا لإصـدار هـذا الكتـاب، فهـو دعـوة لتطـبيق هـذه الخطـة الـتي قـد تكـون الوحيـدة لتصـفية الأجـواء واسـتئناف الجهـود المشتركة.

القاهرة في ديسمبر 2006م

محاضرة البابا
الإيمان والعقل، والجامعة، ذكريات وتأملات
جامعة رجنسبرج ــ 12 سبتمبر 2006م

السيدات والسادة المحترمين...

إنها لتجربة مؤثرة بالنسبة لي أن ألقي محاضرة من منبر هذه الجامعة، مرة أخرى، أعود بذاكرتي إلى تلك السنوات التي بدأت فيها بالتعليم في جامعة بون، كان ذلك في العام 1959، وكانت الجامعة تضم أساتذة عاديين، لم تكن كراسي الأستاذية تستفيد من خدمات مساعدين وسكرتارية، ولكن كان هنالك بالمقابل الكثير من الاتصال المباشر مع الطلاب، وخصوصاً في ما بين الأساتذة أنفسهم، وكنا نجتمع قبل الدروس وبعدها، في الغرف المخصصة للهيئة التعليمية، وكانت تجري حوارات مفعمة بالحيوية بين المؤرخين والفلاسفة وعلماء اللغة وكذلك، وهذا أمر طبيعي، بين كليّتي اللاهوت اللتين تضمّهما هذه الجامعة، وفي كل فصل كان هنالك ما يسمّى باللاتينية " dies academicus"ـ يتحدث فيها أساتذة من جميع الكليات أمام طلاب الجامعة كلها، الأمر الذي كان يتيح تجربة حقيقية لـ "الجامعية" (univeritas) ـ: حقيقة أنه رغم تخصّصاتنا المختلفة التي كانت أحياناً تجعل التواصل في ما بيننا أمراً صعباً، فإننا كنا نشكّل كلأ واحداً، وأننا كنا جميعاً نعمل في جميع الميادين على أساس عقلانية واحدة تتّسم بأوجه مختلفة، وأننا كنا نتقاسم المسؤولية عن الاستخدام السليم للعقل، إن هذه الحقيقة أصبحت تجربة مُعاشة، كما كانت هذه الجامعة فخورة بكليّتي اللاهوت اللتين تضمّهما جدرانها، وكان واضحاً أن هاتين الكلّيتين، عبر التساؤلات اللتين تطرحانها حول معقولية الإيمان، كانتا بدورهما تقومان بعمل يشكل بالضرورة جزءاً من "كل" ما يسمى "العلم الجامعي universities scientiarum"، وذلك مع أن الجميع لم يكن يشارك في ذلك الإيمان الديني الذي يسعى علماء اللاهوت المسيحي لبلورة علاقته بالعقل عموماً، لم يكن هذا الإحساس العميق بالانسجام ضمن عالم العقل يتعرّض للاضطراب حتى حينما أشار أحدهم إلى أنه كان هنالك شيء غريب حول جامعتنا : فهي كانت تضمّ كليّتين مخصّصتين لشيء لا وجود له : وهو الله، وقد ظل مقبولاً بدون جدال، على مستوى الجامعة كلها، أنه حتى بإزاء مثل الشك الجذري (في وجود الله)، فقد ظل ضرورياً ومعقولاً ًأن نطرح موضوع الله عبر استخدام العقل، وأن نفعل ذلك في إطار الإيمان المسيحي.

(لقد تذكرت ذلك كله مؤخرًا حينما قرأت الكتاب الذي نشره البروفسور تيودور خوري في (مونستر) لقسم من جدال دار على

الأرجح في العــام 1391 في الثكنـــات الشـــتوية قــــرب أنقـــرة بين الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني بـاليولوغوس وفارسي مثقف حـول موضوع المسيحية والإسـلام، وحقيقة كل من هـذين الإيمـانين، والأرجح أن الإمــبراطور نفسه كـان هو من حـــرر هــذا الحــوار أثنـاء حصـار القسطنطينية الذي دام من العام 1394 إلى العـام 1402 ؛ وذلك هو السبب في أن حجج الإمبراطور ترد بتفصيل يزيد على تفصـيل إجابـات الفارسي المثقف، ويتطرق الحوار إلى مختلف نواحي بـني الإيمـان في الإنجيل والقرآن، ويتطرق بصورة خاصة إلى صــورة الله والإنسـان، مع العودة مرارًا إلى موضوع العلاقة بين (القوانين الثلاثـة) : العهد القـديم والعهد الجديد والقــرآن، وأرغب في محاضــرتي هــذه أن أتطــرق إلى نقطة واحــدة، وهــذه النقطة كـانت هامشــية تقريبًا في الحــوار الــذي أشرت إليه أعتبرها في إطار مسألة (الإيمان والعقل) جديرة بالاهتمــام ويمكن أن تشكل نقطة انطلاق لتأملاتنا حول هذه القضية.

في النقـاش (السـجال السـابع) الـذي نشـره البروفيسـور خـوري يتطرق الإمبراطور إلى مقولة (الجهاد) ولابد أن الإمبراطور كان مطلعًا على السـورة 2 ـــ 256 الـتي جـاء فيها : (لا إكـراه في الـدين)، وهـذه السورة وردت في الفترة الأولى يقصد (المكيــة) حينما لم يكن محمـدًا يملك أية سلطة بل وكان عرضة للتهديد، ولكن الإمبراطور كان بـالطبع مطلعًا على التعليمات التي طورت لاحقًا وتم تـدوينها في القـرآن الـتي تتعلق بالجهـاد وبـدون التطـرق إلى التفاصـيل على غـرار الفـرق في معاملة أهل الكتاب والكفار، فإنه يطرح على محـاوره باقتضـاب بدرجة تثـير[1] السـؤال المركـزي حـول العـــلاقة بين الـدين والعنف عمومـاً، وبالكلمات التالية : » قل لي ما هو الجديد الـذي أتي به محمـد، إنك لن تجد سوى أشياء شريرة ولا إنسـانية مثل الأمر بنشر الـدين الـذي بشر به بحد السيف «، ويستطرد الإمبراطور ليشرح بالتفصيل الأسباب التي تجعل نشر الإيمان بـالعنف أمـرًا غـير معقـول، وفي نظـره أن العنف لا يتوافق مع طبيعة الله ومع طبيعة الــــروح » إن الله لا يسر بالـــدماء « وإن السلوك غير العقـلاني يناقض طبيعة اللـه، الإيمـان يولد من الـروح وليس الجسـد، أن على من يـرغب في جـذب إنسـان إلى الإيمـان أن يكون متحدثًا جيدًا، وأن يملك القـدرة على المحاججة المنطقيـة، بـدون عنف وبدون تهديدات لإقناع روح عاقلة، لا يحتاج المرء إلى ذراع قــوي، أو إلى أســلحة من أي نوع، أو لأي شكل من أشكال التهديد بالقتل.

إن الخلاصة الحاسمة في هذه المحاججة ضد الإكراه لتغيير الدين هي ما يلي : إن الفعـل بصـورة مجافيـة للعقـل ينـاقض طبيعـة اللـه، ويسـجل الناشـر تيـودور خـوري الملاحظـة التاليـة : بالنسـبة للإمـبراطور، الـذي كـان بيزنطيًا تـربى ضـمن الفلســفة اليونانية، فإن هذه الخلاصـة بديهيـة، أمـا في التعليم الإسـلامي فـإن اللـه متعـال فـوق

---

[1] **اختلفت الترجمات في ترجمـة هـذه الجملـة، فجـاءت في بعضـها " إن الإمـبراطور طـرح على محاوره بصورة لا تخلو من الحدة "، أن الإمبراطور تعرض باقتضاب فظ بدرجة تثير الدهشة، " وأن الإمبراطور طرح على نحو مفاجئ على محاوريه... إن الإمبراطور تطرق بشكل فظ الأمر الذي فاجأنا وأدهشنا.. الخ.**

البشـر Transcendent بصورة مطلقة وإرادة الله ليست مقيدة بأي من مقولاتنا بما فيها مقولة العقل، ويستشهد خوري بعمل العالم الفرنسي المتخصـص بالإســـلام R. Arnaldez الذي يذكر إن ابن حزم وصل إلى درجة القـول إن اللـه ليس مقيـدًا حـتى بكلماته ذاتها، وأن شيئًا لا يلزمه بأن يكشف الحقيقة لنا، ولو شاء اللـه فسـيكون علينـا حتى أن نعبد الأصنام".

إن المسيحية بدأت عنـدما "عـدل" modifying القـديس يوحنـا الـبيت الأول من كتاب "سفر التكوين" وبدأ تقـديم إنجيلـه بالكلمـات التاليـة : "في البـدء كـانت الكلمـة Logos وتلك هي نفس الكلمة الـتي اسـتخدمها الإمـبراطور : اللـه يعمـل بمـوجب الـ Logos، والحـال، فـإن Logos تعـني العقـل وتعـني الكلمـة معًـا، العقـل القـادر على التعبير عن نفسه تحديـدًا بصـفته عقلاً، وبنـاء عليـه، فقـد قـال القـديس يوحنـا الكلمـة الأخيرة في المفهوم الإنجيلي لله، وفي كلمته هذه تجـد الخيـوط المتعرجـة والمجهـدة للإيمان الإنجيلي ختامها وتوليفها، يقول يوحنا الإنجيلي "في البدء كانت الكلمة والكلمة هي الله، إن اللقاء بين رسالة الإنجيل والفكر اليونـاني لم يـأت من الصـدفة المحضـة، إن رؤيا القديس بولس الذي رأى طرقات آسيا مقفلة وشاهد في المنام رجلاً مقــدونيًا يتوسل إليه : "تعال إلى مقدونيا وساعدنا " (أعمال الرسل 16:6ـ10)، إن هذه الرؤيـة يمكن تأويلها كــ "خلاصـة للضـرورة، الـتي لا تحتـاج إلى برهـان للتقــارب بين الإيمـان الإنجيـلي والبحث الفلسفي اليوناني.

إن هذا التقارب كان جاريًا منـذ حقبـات بعيـدة إن الطبيعـة الغامضـة "للـه" الـتي ظهرت عبر العليقة المحترقة، هذا الاسـم "اللـه" الـذي يميّـز "اللـه" عن جميـع الآلهـة الأخرى بتسمياتها المتنوعة والذي يعلن ببساطة أنـه هـو هو، إن ذلـك يمثّـل بحـد ذاتـه تحدّياً لفكرة الأسطورة، ويمكن مقارنتـه بصـورة وثيقـة مـع مسـاعي سـقراط للتغلّب على فكرة الأسطورة والتسامي عنها، وفي العهد القديم، وصل المسار الـذي بـدأ في العلّيقـة المحترقة إلى مرحلة نضج جديدة في فصل "النفي" حينمــا تم الإعلان عن أن إلــه إسـرائيل ـــ إسـرائيل الـتي باتت محرومـة من أرضـها ومن عبادتها ـــ هـو إلـه السماوات والأرض ووُصِفَ في صيغة بسيطة تحاكي الكلمات أمام العلّيقـة المحترقة : "أنا هو"، ويترافق هذا الفهم الجديد لله مع نوع من التنوير، يتعارض بصـورة حـادة مـع خدع الآلهة الوثنية التي كانت مجرد تعبير عن أعمال البشـر cf. Ps 115، وهكذا رغم النزاع المرير مع الحكام الإغريقيين الذين سـعوا لتوفيقـه بصـورة قسـرية مـع عـادات اليونان وعباداتهم الوثنية، فإن الإيمان الإنجيلي، في الفترة الإغريقية، تلاقى مع أفضـل ما في الفكر الإغريقي على مستوى عميق، ممـا نجم عنــه إثـراء متبـادل نجـد أفضـل تعبـير عنـه في أدب الحكمــــة اللاحق، ونحن نـدرك الآن أن الترجمـة اليونانيـة للعهـد القديم التي تمّت في الإسكندرية ــ التي تسـمى ــ Septuagint هي أكـثر من مجـرد ترجمة "بسيطة"، ("بسيطة"، أي أقل من مرضية) للنص العبري : إنها بـالأحرى شـاهد نصّي مستقل وخطوة مميزة ومهمة في تاريخ الوحي، خطوة حقّقت هـذا التلاقي على نحوٍ كان حاسماً في ولادة المسيحية، وفي انتشارها، إن ما حصل، هنا، هو لقاء عميـــق

بين الإيمان والعقل، لقاء بين التنوير الحقيقي والدين، ومن قلب الإيمان المسيحي، وكذلك من قلب الفكر اليوناني بعد اعتناقه الإيمان، كان بوسع الإمبراطور مانويل الثاني أن يقول : إن عدم العمل بموجب "العقل logos " يتعارض مع طبيعة الله.

بكل صدق، ينبغي على المرء أننا نجد في اللاهوت المسيحي في أواخر القرون الوسطى اتجاهات لإحداث تباعد في هذا التوليف بين الروح الإغريقية والروح المسيحية، وعلى نقيض ما يسمى النزعة المثقفة لأوغسطين وتوما، نشأت مع (الفيلسوف والفقيه) "دانز سكوتس Duns Scotus" نزعة إرادوية نجم عنها في النهاية الزعم بأننا لا يمكن أن نعرف سوى "إرادة الله العادية" Voluntas ordinata، ومايتجاوز ذلك يدخل في نطاق حرية الله، التي يمكن له بموجبها أن يفعل نقيض كل ما فعله حتى الآن، ونجمت عن ذلك مواقف تقترب بوضوح من مواقف ابن حزم ويمكن لها حتى أن تعطي انطباعاً بأن الله نزق متقلب المزاج، وغير مرتبط بالحقيقة والطيبة، وتم تعظيم تسامي الله وفرادته إلى حد أن تصوّرنا لما هو حق وخيّر لم يعد يشكل مرآة حقيقية لله، الذي تظل إمكانياته العميقة إلى الأبد الأكثر بعيدة عن إكتناهنا ومخبّأة خلف قراراته العملية، ومقابل هذا التصوّر، كانت الكنيسة قد أصرّت دائماً على أن هنالك بين الله وبيننا، بين روحه الخالقة الأزلية وعقلنا المخلوق مماثلة حقيقية، يظل فيها عدم التشابه أكبر إلى درجة غير محدودة من التشابه، ولكن ليس إلى درجة إبطال المماثلة ولغتها cf. Lateran IV إن الله لا يصبح أكثر ألوهةً حينما ندفعه بعيداً عنا عبر إرادوية محضة لا يمكن لنا اكتناهها، بالأحرى، فالله السماوي حقّاً هو الله الذي ظهر لنا عبر "الكلمة"، وبصفته "كلمة"، فقد تصرّف دائماً وما يزال يتصرّف بحب تجاهنا، وكما قال سان بول فإن الحب يسمو على المعرفة، وهو قادر بالتالي على إدراك ما يتجاوز الفكر وحده cf.Eph 3:19 ؛ ومع ذلك، فإنه يظل حب الله، الذي هو "كلمة"، بناء عليه، فالعبادة المسيحية هي عبادة "روحانية" تنسجم مع الكلمة الأزلية ومع عقلنا Rom 12:1.

إن هذا التقارب الداخلي بين الإيمان الإنجيلي والتساؤل الفلسفي اليوناني كان حدثاً بالغ الأهمية ليس من زاوية تاريخ الأديان فحسب، بل ومن وجهة نظر تاريخ العالم- إنه حدث يظل يعنينا حتى اليوم، ونظراً لهذا التقارب، فليس مدهشاً أن المسيحية، رغم أصولها ورغم بعض التطورات ذات المغزى في الشرق، بلورت طابعها التاريخي الحاسم في أوروبا، ويمكن لنا أن نعبّر عما سبق بطريقة مختلفة : إن هذا التقارب، مع إضافة التراث الروماني، خلق أوروبا ويظل أساس ما يمكن أن نطلق عليه بحق اسم أوروبا[1].

وقد قوبلت فكرة أن الإرث الإغريقي النقي يكون جزءً لا يتجزأ من الإيمان المسيحي بالدعوة إلى تجريد المسيحية من إغريقيتها، وهي دعوة تهيمن أكثر فأكثر

---

(1) **هذا القسم من ترجمة الأستاذ بيار عقل على موقع شفاف، ولم يتيسر لنا رؤية القسم الثاني، فقمنا بترجمته.**

في المناقشات في العصور الحديثة، ويمكن التمييز بين ثلاث مراحل في مسار تجريد المسيحية من الهللينية، ورغم اتصالها فيما بينها فإنها تختلف بوضوح واحدة عن الأخرى في دوافعها وأهدافها.

بدأت المرحلة الأولى : مع ظهور مقولات حركة الإصلاح في القرن 16 وعبر النظرة إلى التقليد اللاهوتي الكولاستيكي، فإن الإصلاحيين ظنوا أنهم يواجهون نظام إيمان تحكمه تمامًا الفلسفة، وإقامة مفاصل الإيمان على قاعدة نظام فكري غريب، وبالتالي فإن الإيمان لم يعد يظهر ككلمة تاريخية حية، ولكن كعنصر من نظام فلسفي كامل.

ومن ناحية أخرى فإن مبدأ الاقتصار على النص المقدس استهدف الإيمان في شكله النقي والأصيل كما هو في الكلمة الإنجيلية، وظهرت الميتافيزيقيا كمقدمة اشتقت من مصدر آخر يفترض أن يتحرر منه الإيمان ليعود مرة أخرى إلى أصله الذي كان عليه، وعندما قال "كانت" أنه كان عليه أن ينحي التفكير ناحية ليفسح المجال للإيمان فإنه حمل برنامجه قدمًا إلى مدى ما كان الإصلاحيون يتصورونه لأنه بهذا حصر الإيمان في العقل العملي منكرًا قدرته على بلوغ الحقيقة ككل.

وبدأ اللاهوت الليبرالي في القرن 19 و 20 المرحلة الثانية من عملية تجريد المسيحية من الهيللينية عندما ظهر " أدولف فون هارناك " كأشهر ممثليها.

وعندما كنت طالبًا وفي سنواتي الأولى كان هذا الاتجاه مؤثرًا على اللاهوت الكاثوليكي وأخذ نقطة انطلاقه من تفرقة "باسكال" المتميزة ما بين إله الفلاسفة وإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وفي محاضرتي الأولى في بون سنة 1935 حاولت أن أتناول هذه القضية، ولا أعتزم تكرار ما قلته في تلك المناسبة، ولكني أود أن أصف باختصار، على الأقل الجديد في هذه المرحلة الثانية، كانت الفكرة المركزية عند "هارناك" العودة إلى يسوع الإنسان وإلى رسالته البسيطة دونما لاهوت، وبالتالي دون هيللينية، وبدت هذه الرسالة البسيطة كأعلى درجة بلغها التطور الديني للبشرية، وقيل إن المسيح قد ضحى بالعبادة في سبيل القيم المعنوية، وأخيرًا ظهر كأب لرسالة القيم الإنسانية.

وكانت فكرة "هارناك" الرئيسية هي إعادة المسيحية للانسجام مع العقل الحديث وتحريرها من العناصر اللاهوتية والفلسفية كالعقيدة في تأليه المسيح والثالوث المقدس، ونظر إلى النصوص الواردة في العهد الجديد باعتبارها لاهوتًا يكون مكانه الجامعات، ورأى "هارناك" أن اللاهوت أساساً تاريخي الطبيعة، وبالتالي يخضع للعلم.

وما يمكن أن يقال عن يسوع هو أنه تعبير عن العقل العملي، وبالتالي فإنه يأخذ مكانه الصحيح في الجامعات، ووراء هذا التفكير يكمن التحديد الحديث للعقل الذي يتجلى في كتابات الكلاسيكية والناقدة "لكانت"، ولكنها أصبحت أكثر راديكالية بتأثير العلوم الطبيعية الحديثة.

وهـذه الفكـرة الحديثـة عن العقـل تقـوم ـــ باختصـار ـــ على التـأليف مـا بين الأفلاطونية (الديكارتية) والنزعـة التجريبيـة (الإمبريقيـة) وهـو تـأليف يفـترض مسـبقًا البنية الرياضية للمادة وعقلانيتها المطبوعة التي تجعل من الممكن فهم طريقـة عمـل المادة وطريقة استخدامها بكفـاءة وهـذه المقدمـة القاعديـة هي العنصـر الأفلاطـوني للفهم الحديث للطبيعة.

ومن ناحية أخرى فإن قابلية الطبيعة للاستغلال طبقًا لإرادتنا التي توجد فيها فقط إمكانية التأكيد أو التفنيد عبر التجربـة الـتي تـتيح الوصـول إلى اليقين النهـائي، ويمكن الموازنة ما بين هذين القطبين وفقًا للظروف التي تجعلهـا تتحـول من قطب إلى آخـر وبقــدر مــا تكــون قــوة الوضــعية فــإن مفكــرًا وضــعيًا مثــل ج. مونــودا أعلن أنــه إفلاطوني/ديكارتي بامتياز.

وأدى هذا إلى ظهـور مبـدأين في موضـوعنا، الأول : أن النـوع الوحيـد من اليقين الناشئ من تداخل العناصر التجريبية والرياضية، هو ما يمكن أن يعد علميًا، وأي شـيء يدعي أنه علمي يجب أن يقاس وفقاً لهذا المعيار، ولذلك فـإن العلـوم الإنسـانية مثـل التاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة تحاول أن تتسق مع هذا المعيار للعلمية.

والمبدأ الثاني الذي يهمنا في تأملاتنا أن هذا المبدأ بحكم طبيعته الأصيلة يســتثني قضية الله ويجعلها تبدو كما لو كانت غير علمية أو ما قبل العلمية، ومن ثم فإننا نواجـه بتقليص إطار العلم والعقل، القضية التي تتطلب المسالة.

سأعود إلى تلـك المشـكلة فيمـا بعـد وفي الـوقت نفسـه علينـا أن نلحـظ أن أي محاولة من هـذا المنطلـق للإبقـاء على فكـرة أن اللاهـوت "علمي" سـتنتهي بـاختزال المسيحية إلى مجرد جزء من ذاتها السابقة.

ولكن علينا أن نقول ما هو أكثر، إذا كان العلم ككل، هو هذا، وهذا فحسـب، فـإن هذا يعني اختزال الإنسان وبوجه خـاص بالنسـبة للأسـئلة عن أصـل الإنسـان ومصـيره وقيمة المعنويات، ولا يكون هناك مكان للفهم في العقل الجمعي وفقاً لتعريــف العلم، وبالتالي يجب أن ينبذ إلى عالم الذات، وبالتالي فإن الذات إذن هي الـتي تقـرر، وعلى قاعدة تجاربها موضوعات الدين ويصبح الضـمير الـذاتي هـو الفيصـل الوحيـد فيمـا هـو أخلاقي.

وعن هذا الطريق يفقد الفكر والمعنويات والدين كل قواها لإيجاد مجتمع، وتصــبح المعنويات والدين أمرًا شخصياً بصفة تامة، وهذا وضع يمثل خطرًا على الإنســانية كمــا نرى في الاضطرابات المرضـية للـدين والعقـل الـتي تتفجـر عنـدما يهبـط بالعقـل إلى الدرجة التي تعد قضايا المعنويات والدين مما لا يعني بها أحد، لقـد ظهـر أن محـاولات إقامـة المعنويـات على أسـاس من قواعـد التطـور أو من علم النفس وعلم الاجتمـاع تكون ببساطة ناقصة وغير كافية.

وقبل أن اصل إلى الاستنتاجات التي يؤدي إليها كل ما سبق، على أن أشير بإيجاز إلى المرحلة الثالثة من تجريد المسـيحية من الهيللينيـة والـتي تتقـدم الآن في تجربتنـا عن التعددية الثقافية فعادة ما يقال إن الامتزاج بالهيللينة الذي حدث في الأيام الأولى

للمسيحية إنما كان تأثرًا أولياً لا يجوز أن يكون ملزمًا لثقافات أخرى ويقولون إن من حق المسيحية أن تعود إلى الرسالة البسيطة للعهد الجديد السابق على هذا التأثر بالهيللينية حتى يمكن أن تتقبل تأثيرات جديدة من واقع الوسط الجديد لها، وهذا الفرض ليس زائفًا فحسب، بل أنه فظ ويفتقر إلى الدقة، لقد كتب العهد الجديد باللغة اليونانية ويحمل بصمات الروح اليونانية التي كانت قد وصلت إلى النضج أثناء تطور العهد القديم، وحقاً أن هناك عناصر في تطور الكنيسة الأولى لا تكون هناك حاجة لإدراجها في كل الثقافات، ومع هذا فإن القرارات الأساسية التي وضعت عن العلاقة ما بين الإيمان واستخدام العقل البشري هي جزء من الإيمان نفسه، وقد تطورت بالتساوق مع طبيعة الإيمان ذاته.

وبهذا أصل إلى استنتاجاتي، إن المحاولة التي رسمتها بخطوط عريضة عن نقد العقل الحديث من الداخل ليس لها صلة بإعادة عقارب الساعة إلى ما قبل التنوير ورفض الجوانب الإيجابية للمعاصرة.

إننا نشعر بالامتنان للإمكانيات الرائعة التي فتحت الباب أمام البشرية للتقدم فضلاً عن أن جوهر الروح العلمية ــ كما أشرت يا نيافة الرئيس ــ إنما هي إرادة الانصياع للحق وهي بذلك تجسد اتجاهًا يعود إلى المقررات الجوهرية لروح المسيحية.

وليس قصدنا التشبث بالموقف أو النقد السلبي، ولكنه توسيع فكرتنا عن العقل وتطبيقه وفي الوقت الذي نبتهج بالإمكانيات الجديدة المتاحة للبشرية، فإننا نرى أيضًا الأخطار الناشئة من هذه الإمكانيات، وعلينا أن نسأل أنفسنا كيف نتغلب عليها ولا يمكن أن ننجح في هذا إلا بالجمع ما بين الإيمان والعقل بطريقة جديدة، وإذا تجاوزنا التحديد الذي وضعناه بأنفسنا عن العقل في التحقق التجريبي، وإذا استكشفنا مرة أخرى آفاقه الرحيبة، بهذا المعني، يعود اللاهوت إلى الجامعة، وعبر الحوار المتسع ما بين العلوم لا باعتبارها مقررات تاريخية أو إحدى العلوم الإنسانية، ولكن باعتبارها كاللاهوت استعلامًا عن علمانية الإيمان.

بهذا وحده نصبح قادرين على الحوار الأصيل ما بين الثقافات والأديان الذي نحن في أمس الحاجة إليه اليوم، وفي الغرب تسود فكرة أن العقل الوضعي وحده وصور الفلسفة القائمة عليه هي الصالحة على مستوى العالم، ولكن الثقافات الدينية العميقة في العالم ترى هذا الإبعاد للمقدس الديني من شمولية العقل الوضعي يعد هجومًا على أعمق قناعاتها.

إن عقلاً يصم أذنيه عن المقدس، وينزل بالدين إلى عالم الثقافات الفرعية لابد وأن يعجز عن الدخول في حوار ما بين الثقافات، وفي الوقت نفسه كما حاولت أن أوضح إن العقل العلمي الحديث بحكم العنصر الأفلاطوني المنغرس فيه يحمل في طياته سؤالاً يتخطاه ويجاوز إمكانات منهجه.

على العقل العلمي الحديث أن يقبل ببساطة البنية العقلانية للمادة والتجاوب بين أرواحنا والبنية العقلانية للطبيعة كأمر مسلم به تقوم عليه منهجيته.

ولماذا يكون هذا السؤال بالصورة التي قدمناها أمرًا هامًا، تحيله العلوم الطبيعية على أنماط أخرى من المعرفة، إلى الفلسفة واللاهوت.

إن الفلسفة وأيضًا اللاهوت بطريقة أخرى عندما نستمع إلى التجارب والرؤى العظيمة للموروثات الدينية والإنسانية، ولموروثات العقيدة المسيحية على وجه الخصوص يصبحان مصدرًا للمعرفة ويعد تجاهلهما حجرًا غير مقبول على أسماعنا واستجابتنا.

وأذكر هنا ما قاله سقراط إلى فيدو Phoedo ففي محاورتهما ظهرت العديد من الآراء الفلسفية الزائفة فقال سقوط " سيكون من المستساغ أن يربأ أحدهم بنفسه عن هذه المفاهيم الزائفة إلى الحد الذي يبقيه حتى آخر حياته مزدرياً وهازئاً من كل حديث عن الوجود "، ولكنه بهذا السبيل سيحرم من حقيقة الوجود وسيعاني خسارة كبيرة.

لقد تعرض الغرب لخطر عظيم بهذا العزوف عن موضوعات تشكل أساس عقلانيتها، وعانى كثيرًا من الضرر لهذا السبب، إن الشجاعة تقتضي إشراك فسحة العقل وليس إنكار عظمته، وهذا هو برنامج اللاهوت القائم على الإيمان الإنجيلي الذي يدخله في مساجلات العصر، لقد قال مانويل الثاني " مجافاة العقل ومجافاة المنطق مناقضان لطبيعة الله طبقاً لفهمه المسيحي في رده على محاوره الفارسي".

وإلى هذه الكلمة الـ Logos العظيمة، إلى العقل الفسيح ندعو شركائنا في حوار الثقافات وإعادة اكتشافات، وهي المهمة العظيمة للجامعة.

تعليق على خطبة البابا

بقلم جمال البنا

أولاً : ملاحظات عامة

ـ 1 ـ

لا يكـاد يتصـور أن رجلاً في مثـل ثقافـة وخـبرة البابـا بنـديكت السـادس عشـر، والمنصب الرفيـع الذي يشغله بجهل أوليات الحديث العـام، ومـا يولـده من انطباعـات وآثار، وإذا كان الحديث عن الـدين، فـإن معالجـة "العقيـدة" أمـر مرفـوض تمامًـا، إنـه "تابو" أو "لا مساس" لأن أي معالجـة للعقيـدة لابـد وأن تثـير حساسـيات عميقـة فـإذا تضمنت أقل إشارة سلبية، فإن هـذا سيسـتتبع موجـة من الاسـتياء تبلـغ من الجسـامة والكثافة ما تتضمنه الإشارة.

لهذا، فممـا يثـير الحـيرة أن يستشـهد البابـا استشـهادًا بنص يهين بشـكل مباشـر وصريح رسول الإسلام العظيم الذي هو بالطبع محل توقـير وإجلال المسـلمين جميعًـا، ولا يمكن أن ينطق به إلا جاهل شانئ للإسـلام ينكـر ويجحـد حقـائق يعرفهـا أي تلميـذ يدرس الحضارات، ويعلم الدور الحضاري للإسلام، وما أسهم به في تقدم العـالم، ثم لا يكتفي بهـذا الاستشـهاد، بـل أيضًـا يعـالج ثلاث نقـاط في صـميم العقيـدة الأولى هي المضمون الخاطئ للتعـالي بالنسبة لله، والثانية هي نشـر الإسـلام بالسـيف، والثالثـة هي لا عقلانيـة الإسـلام، ثم يفـاقم في أثـر هـذه المعالجـة عنـدما يقارنهـا بالمسـيحية، ويفضل المسيحية عليها.

هل يعقل أن البابا يريد أن يستفز المسلمين ويكسب عداوتهم ؟

قد يكون هذا مستبعدًا ــ إلى حد ما ــ لأنه في آخر المحاضرة دعـا إلى حـوار بين الثقافات، ولكن ليس بين الأديان، وكل الملابسات توضح أنه شديد الزهد في حوار بين الأديان، وقد غير اسم اللجنة التي كانت تتـولى هـذا الحـوار وأبعـد رئيسـها الـذي كـان مؤمنًا به، وكان هذا أمرًا طبيعيًا منه، لأن ما قدمه من مفـاهيم واتجاهـات تحـول تمامًـا دون نجاح أي حوار، فالحوار الناجح يجب أن يتم بين أنداد محايدين يستهدف كل واحـد أن يعلم الحقيقة عن دين الآخر، طبقًا لما يقدمـه الآخـر، أي بالصـورة الـتي تتجـرد من الغشاوات التي يضفيها أعداء هـذا الـدين عليـه، فيعـرف الـدين من معتنقيـه، وبـالطبع فليس مطلوبًـا أن يقتنـع كـل واحـد، ولكن أن يعـرف الآخـر على حقيقتـه، وأن يسـلم الجميع بوجود الذاتية والخصوصية والتميز لكل دين، وأن الحديث عنه إنما يكون لأهلـه. وفي مناخ " تقبل الآخـر" توجد مساحة للاتفاق، لأن الأديان رغم اختلافها ــ خاصــة في تصور ماهية الإله ــ إلا أنها تتفق في "أدبيات" الأديان وقيمهـا، فكـل الأديـان تـدعو إلى الصدق، والخير، والمعرفة، والمساواة، والعدل، والتركيز على عوامـل الاتفـاق هـذه ــ

دون عناصر الاختلاف ـ هو ما يوجد مجالات للتعاون المشترك البناء لمصلحة البشرية، وقد لخص "دستور" الحوار كلمة مشهورة في الآداب الإسلامية "نتعاون فيما نتفق عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما نختلف فيه".

أقول إن معرفة هذا هو أمر بديهي لكل من يتصدى للحديث عن الأديان حديثًا مجديًا إيجابيًا، وليس ضارًا وسلبيًا، فكيف وسع "الحبر الأعظم" جهل ذلك ؟

والحقيقة أن خطاب البابا لم يغضب المسلمين وحدهم، ولكنه أغضب كل الكنائس المسيحية الأخرى كالبروتستنت والكنيسة الأرثوذكسية، لأنه أبرز الكنيسة الكاثوليكية الأوروبية باعتبارها الكنيسة الوحيدة التي يعتد بها، والتي تمنح الخلاص المسيحي.

بل إنه أغضب الكاثوليك أنفسهم في بقية دول العالم وهم أضعاف الكاثوليك في أوروبا، وأوقع هؤلاء ـ في آسيا وفي أمريكا الجنوبية وغيرها ـــ في حرج وأشعرهم شيئًا من الصغار والدونية، وكانوا جديرين منه بالتقدير لأن إخلاصهم للكاثوليكية أشد من إخلاص الأوروبيين.

يمكن القول إذن أن محاضرة البابا كانت خسارة دون مكسب، وأن هذه الخسارة لم تقتصر على المسلمين، ولكن على الكنائس المسيحية الأخرى، وعلى الكاثوليك أنفسهم في غير أوروبا.

إن فهم السبب الذي أوقع البابا في هذا المأزق عسير، ولابد أن مجموعة من الأسباب تضافرت عليه، وقد يكون أكثرها تأثيرًا أن البابا ألماني الجنسية، والألمان فيما يرون أنفسهم هم التمثيل النقي للجنس الأوروبي "الآري" وقد نشأ فترة ازدهار فكرة الآرية وتأثر بها هتلر ونشرها وفتن بها الألمان ـــ خاصة الشباب وكان منهم جوزيف راتسنجر ـ فيما بعد بنديكت السادس عشر ـ الذي انضم لإحدى فرق الشباب النازي ـ فيما يقال، ومن يطالع الخطبة يجد أن أبرز ما فيها هو إيمان صاحبها بالحضارة الهللينية ثم بالحضارة الرومانية، فهو أوروبي من أخمص قدمه حتى شعر رأسه، ويمكن القول بلا تردد أنه من أكبر المؤمنين بالمعجزة اليونانية، وقد فاق عمق الإيمان بذلك ما عداه وكأنه العاشق الذي قال : "غطى هواك وما ألقي على بصري" فلم ير إلا محبوبته.

والبابا أيضًا "أوروبي" خالص وصل به إعجابه بأوروبا أن قال إن أوروبا هي التي استكملت للمسيحية نقصها وزودتها باللوجوس، والعقلانية، وقد كان من الأسباب التي جعلت البابا يتخذ اسم "بنديكت" أن القديس بنديكت من بين صفاته أنه "راعي أوروبا" وفيما يبدو فإن البابا يرى نفسه الراعي الجديد لأوروبا، ولكنه في الحقيقة جمع بين أسوأ ما في أوروبا وأسوأ ما في أمريكا، جمع من أوروبا المركزية الأوروبية، وجمع من أمريكا مقاومة الإرهاب المزعوم.

وواضح أيضًا أن البابا لم يعن بدراسة الإسلام، ويحتمل أنه لم يعني كذلك بدراسة الكنائس المسيحية الأخــرى، وساعد هذا الجهل على استشراء "المركزية" الأوروبيـــة، كما سمح بأن يسيء البابا فهم الإسلام وتقديره للكنائس الأخرى.

ــ 2 ــ

اضطرنا البابا إلى خوض مجال كنا أحرص الناس على تفاديه وهـو مجـال مقارنـة الأديان لأننا نعلم أن الأديان تكاد تكـون وراثـة حضـارية مثـل الوراثـة البيولوجيـة، وهي بالتالي لا تخضع للمنطق أو البرهنة المادية، وقد ورثت الملايين أديانهـا وتقبلتهـا، ونهى الإسلام عن المفاضلة مـا بين الأديـان فقـال : " وَقَـالَتْ الْيَهُـودُ لَيْسَـتْ النَّصَـارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتْ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ" (البقرة 113)، ونهى المسلمين أيضًـا فقال : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُـرُّكُمْ مَنْ ضَـلَّ إِذَا اهْتَـدَيْتُمْ" (المائـدة 105)، وقد أراد الله بقاء هذه الأديان وأوجب التعايش بينها، ولا يكون التعايش بـالفخر أو الزهـو أو ادعـاء الأفضـلية، وقـال بصـريح العبـارة : " لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ"، وأوجب على المسلمين القســـط والـبر لكـل من لا يعتـدي على ديـارهم أو يمس دينهم، ولنـا أصدقاء كرام من المسيحيين تقبلناهم كما هم، كما تقبلونا كمـا نحن، ولكن البابـا هـدم هذا كله لأنه انتقص الإسلام وقارن بينه وبين المسيحية وقطع بأفضلية المسـيحية، فلم يدع لنا خيـــارًا، وأصبح من حقنـا، بـل من واجبنـا، أن نـدافع عن الإسـلام وأن نكشـف مواطن الخطأ في حديثه، وأقول لأصدقائنا المسيحيين إذا كان لوم أو عتـاب فليلومـوا البابا أو يعاتبوه.

ــ 3 ــ

جعل البابا محور المحاضرة، كما هو واضـح من عنوانهـا التطـابق مـا بين الإيمـان والعقل، ولا جدال في أن هذا أحد المواضيع التي لابد من طرقها، ولكن يبقى أنـه ليس هو الموضوع الأصيل في الأديان، لأن الأديان وإن حرصت على الاتفاق مع العقل، فـإن ما يميزها أنها كشفت عن الضـمير، والوجـدان، والقلب، وأقـامت عليهـا رسـالتها، أمـا العقـل فـأولى النـاس بـه الفلاسـفة، ولعلـه كـان من الأفضـل أن يتحـدث عن الإيمـان والوجدان أو القلب والدور الذي يمكن أن يؤديه في عالم مادي حـرص على أن يعـرف الصواب من الخطأ بفضل العقل دون أن يعنيه أن يميز بين الخير والشر، وأن تلك هي نقيصة الحضـارة الأوروبيـة الـتي لا يصـححها إلا الـدين، وبوجـه خـاص المسـيحية "دين المحبة".

وليس مما ينقص من مكانة الأديـان أن يكـون لـديها مـا "يجـاوز العقـل" وممـا لا يدخل بالضرورة في مجاله، وقد قامت الأديان القديمـة من نـوح حـتى المسـيحية على معجزات خارقة للطبيعة، ومجرد حقيقة أنها من الله طريـق وحي هـو ممـا لا يمكن أن يفسره العلم أو العقل الإنساني، وقد تحدثت الأديان جميعًا عن الملائكـة، والجن وهـذا

أيضًا مما يخرج عن إطار العقل، ومن ثم فلابد من القـول أن في الأديـان جانبًـا يخـرج عن إطار معرفة العقل، وأن هذا هو أحد الفروق مـا بين الفلسـفة والـدين، وليس في هذا كله مـا يمس الـدين، فليس ممـا يخـالف العقـل أننـا لسـنا وحـدنا في هـذا الكـون المهول، وإن وجود كائنات أخرى ليس مستحيلاً، حتى وإن لم نرها، لأن جهلنـا بالشـيء لا ينفي وجوده، ومن ثم فلا حرج من وجود جوانب في العقيدة الدينيـة لا يمكن للعقـل تعليلها بأدوات البحث العلمية، والمهم إن هـذه الكائنـات لهـا وجودهـا الخـاص الـذي لا يتدخل في وجودنا، ولا يؤثر عليه أو يخل بالمبادئ التي يقوم عليها المجتمع البشري.

ومن ناحية أخـرى، فقـد قـال البابـا نفسـه في محاضـرته إن "الحب يسـمو على المعرفة" وإن عدم التشابه ما بين الإنسان والله إلى درجة غير محـدودة هـو أكـثر من التشابه، ولكن النزعة العقلانية الأوروبية تغلبت عليه ودفعت به هذه للعقلانية الأوروبية ـ عقلانية سقراط وأفلاطون وأرسطو ـ ومن هنا حرص ـ ولو كرجـل دين ـــ أن يثبت عقلانية الدين أيضًا، وإلا طرد من الجنة الأوروبية.

الغريب أن البابا اتجه اتجاهًا لا يؤدي إلى ما افترضه، بل يمكن أن يكون هو الـذي أبعـد المسـيحية عن العقلانيـة، فقـد تصـور أن تعـديل يوحنـا للسـطر الأول من سـفر التكوين إلى "في البـدء كـانت الكلمـة **Logos** " هي بدايـة الجمـع مـا بين المسـيحية والعقلانية، لأن لوجس تعني المنطق والعقلانية، كما يمكن أيضًا أن تدل على "اللـه" أو "المسيح"، كما أن الترجمة السبعينية للعهـد القديم حملت طابعًا هيللينيًا على الأصـل العبري، ولكن هذا لا يؤدي إلى ما أراده البابا لأن تعـديل يوحنـا لم يطـل العهـد القـديم الذي ظل على مـا هـو عليـه "في البـدء خلـق اللـه السـموات والأرض، وكـانت الأرض خربة.. الخ". وإيمان المسيحية بالعهد القديم يماثل إيمانهم بالأناجيل.

المهم أن الهيللينية ليست كما تصور البابا، هي رمز العقلانية وأنها تمثـل سـقراط وأرسطو وأفلاطون والفلاسفة، فهذا هو الجـزء العقلاني من الهيللينيـة، ولم يكن محـل إيمان الشعب الإثيـني أو الشـعب الرومـاني، أمـا مـا كـان إيمانهمـا فهـو "الميثولوجيـا اليونانية" التي تقوم على تعدد الآلهة فإله البحر بوسيدون، وإله الشمس أبولون، وإلـه الحكمـة مينرفـا، وإلـه الحـرب مـارس.. الخ، وقـد فتن المجتمـع اليونـاني فالرومـاني فأوروبا بهذه الميثولوجيا، ومما لا يخلو من دلالة أنه عندما أريد تمثيـل الأوبـرا الألمانيـة بـدومينو لموتسـارت، كـان من الـرؤوس الـتي قطعت رأس الرسـول ورأس عيسـى، ورأس بوذا، ورأس بوسيدون إله البحار.

فالهيللينيـة الـتي سـيطرت على الوجـدان الأوروبي كـانت هيللينيـة الميثولوجيـا اليونانية، أي تعدد الآلهة، ولعل القاسم المشترك بينها مع عالم الفلاسفة هو "الإنسان" بمعـنى أن هـذه الآلهـة هي من وضـع الشـعراء هومـيروس وهـيزيود.. الخ، فالفلسـفة والميثولوجيـا (الوثنيـة اليونانيـة) تشـترك في أنهـا تصـدر عن الإنسـان، والإنسـان هـو المحور الذي قامت عليه الحضارة الأوروبية.

ولكن الهيللينية بمعنى الميثولوجيا بقدر ما كانت قريبة من الوجدان الأوروبي بقدر ما كانت بعيدة عن العقل، فما من عاقل يصدق أن عالم الأولمب عالم آلهة حقًا، وقد كان مما أدى إلى محاكمة سقراط أنه لم يظهر الإيمان اللازم بها.

وعندما ظهرت المسيحية في الشرق، كان أقرب "هيللينية" إليها هي هيللينية الإسكندرية التي أقامها البطالمة، وكانت قطعة من اليونان نقلت إلى مصر، فهكذا نظر إليها البطالمة، وهكذا اعتبرها المصريون أيضًا، ولكن البطالمة رغبة في التقرب من المصريين أخذوا ببعض صور التثليث المصري، وكان اشهرها أوزوريس وإيزيس والطفل حورس، وعندما ظهرت المسيحية فيبدو أنها تأثرت بهذه الهيللينية فأخذت بها، وعندما آمن قسطنطين فإن فكرة التثليث رسخت، وكانت قبلاً محل صراع ما بين أريوس واثناسيوس وانتصرت فكرة التثليث في مجمع نيقية وما بعدها من مجامع.

فإذا كانت الهيللينية قد زودت المسيحية بشيء، فلعل ذلك أن يكون التثليث، وهذا ما لمسه البابا، عندما قال "وهكذا رغم النزاع المرير مع الحكام الإغريقيين الذين سعوا لتوفيقه بصورة قسرية مع عبادات اليونان وعباداتهم الوثنية ' فإن الإيمان الإنجيلي في الفترة الإغريقية تلاقى مع أفضل ما في الفكر الإغريقي على مستوى عميق".

ونحن نرى أن الذي حدث هو أن تلاقي الهيللينية بالمسيحية قد لها التثليث.

وفكرة التثليث، وألوهية المسيح، وما أبدعه اللاهوت المسيحي من فنون كانت هي التي أبعدت المسيحية عن العقلانية وعن إيمان الفلاسفة بها، لأن فكرة وجود خالق لهذا الكون لم تكن محل نزاع أو جحود، فحتى مشركي مكة قالوا عن أصنامهم : " مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى" (الزمر 3)، ولكن المشكلة هي ما يعلق بفكرة الله من غشاوات بحكم أوضاع المجتمع أو مصالح المؤسسة الدينية.. الخ.

فتمسك البابا بالهيللينية ودفاعه المستميت عنها لم يكن يعني إلا البعد بها عن العقلانية، وليس الاقتراب إليها، والغريب أنه عني بنقد وإبعاد كل المحاولات الإصلاحية للمسيحية بدعوى تجريدها من الهيللينية، فانتقد حركة الإصلاح مارتن لوثر والبروتستانتية مع أنها أقرب إلى العقل من الكاثوليكية، واستبعد محاولة هارناك التي مثلها باسكال الذي أراد إله الفلاسفة، وليس إله إبراهيم ويعقوب وإسحاق، والذي أراد المسيح نبيًا، وتأويل كل ما جاء في الأناجيل عن التثليث وألوهية المسيح، بل إن البابا هاجم فكرة تفاعل المسيحية مع اتجاهات العصر.

وقد انتقد البابا العلم الحديث لأنه لم يؤمن بالمسيحية، وانتقد "كانت" لأنه جعل الإيمان بها خارج إطار العقل، والحقيقة أن العقل لم يتعارض مع فكرة الله، ولم يتعارض مع وجود الأديان، ولكن الذي رفضه العقل هو الصور اللاهوتية التي أحدثتها

بعض الأديان واعترفت المسيحية نفسها بصعوبة تقبلها فاختصرت الطريق وقالت إنهـا من أسرار الكنيسة.

وهكذا نرى أن البابا أخطأ الطريـق، وكـان من الأفضـل لـه أن يتكلم عن الإيمـان والوجدان الذي يثمر الضمير الموصول بالله والمنبثق عن الإيمان بـه، وأن يتحـدث عن القلب الذي تحدث عنه الغزالي بصورة تثير الإعجاب، والذي قال عنه الرسول "إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد ألا وهي القلب"، خاصة وأنه انتقد الطابع المادي الضيق للعقل، وأن ما يمكن أن يكمله هو الضمير والوجدان.

ـ 4 ـ

تحدث البابا عن الإسلام في مواضع كثيرة من خطبته حـتى كأنمـا المحاضـرة عن المسيحية والإسلام، وقد بدأ يصدم سامعيه وقارئ محاضرته بهذا الاستشهاد البشع من إمبراطور بيزنطي كان يرى مملكته تتهاوى تحت ضربات الأتراك، فلم ير فيما جـاء بـه محمد إلا الشر والسوء، وانتشار الإسلام بالسيف، لقد استشهد بهذا القول البشع الذي يخالف مخالفة مستقيمة الحقـائق عمـا قدمتـه الحضـارة الإسـلامية من إسـهامات في العلوم كانت في الحقيقة المفاتيح التي فتحت للنهضة الأوروبية طريقها.

وضمت إشارات البابا إلى الإسلام ثلاثة مواضـع، الأول "تعـالى اللـه في الإسـلام، الثاني "عدم الاتفـاق مـا بين العقلانيـة والإسـلام"، والثـالث "نشـر الإسـلام بالسـيف"، وفيما يلي عرض لملاحظتنا على كل نقطة من هذه النقط.

أشار البابا إلى الفكرة الإسلامية عن "تعـالى" اللـه، وأنـه يسـمو فـوق البشـر ولا يلـتزم بمقولاتنـا بمـا فيهـا العقــل، والبابـا يســيء فهم "تعـالى" اللـه كمـا يسـيئه المستشرقون، ولعله تصور الله في الإسلام كجيهوفا في العهد القديم، إله نـزق ثـأري غيور يفتقد ذنوب الآباء في الجيل الرابع من الأبناء.

واستشهد البابا ليؤيد وجهة نظر برأي نقلـه تيـودور خـوري عن مستشـرق يـدعي أرنالدز بأن ابن حزم قال : "إن الله غير مقيد حتى بمشيئته نفسها وأنه لو أراد أن نعبد الأصـنام لعبـدناهم"، ولم يوضـح البابـا وهـو يلقي محاضـرته في جامعـة وعلى جمهـور مثقف بمرجعه على وجه التحديد، وسواء كان المؤلف (تيودور خـوري) أو المستشـرق (أرنالدز) فهما من المغمورين الذين لا يعرف لهم قدم راسخ في الإسلاميات، مما يثير الشك في مصداقية النص الذي نقلاه، وابن حزم على كل حال وإن كان فقيهًا مشهورًا إلا أنه عرف بنوع من الحـدة التي تصل به إلى الشطط، وهـو يمثـل مـذهبًا منقرضًـا لا يتبعـه أحد، وقد أنكر القياس وهو من أصول الفقـه، وأنكـر حـديث معـاذ عن الاجتهـاد، كما رفض خطاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضـاء، وهـذه كلهـا من المسلمات في الفقه الإسلامي، فلا يسوغ إصـدار حكم بنـاء على رأي فقيـه واحـد

عــرف بالشــذوذ، وفي الفقــه الإســلامي عشــراتٍ من الأســماء المتمكنــة والمعروفــة كالأئمة الأربعة والغزالي وابن تيمية والعز ابن عبد السلام وغيرهم.

إن المفهــوم الإســلامي لمضــمون اللــه يختلــف عن مفهــوم المســيحية، ففي المسيحية الله هو خالق الإنسان فهو "إنساني"، ويفترض تطابقه مع المقولات العقليـة للبشرية، وهذا هو ما يتفق مع الحضارة الأوروبيــة في تركيزهـا على الإنســان، أمـا في الإسلام فإن الله هو خالق الكون، فالله إله كوني خلق الكون بما فيه الإنسان، والأرض التي يعيش عليها الإنسان والشمس والقمر والنجـوم ومـا يوجـد في الكـون من مئـات "المجرات" التي تشبه مجرتنا التي تضم الشـمس والكـواكب الـتي تـدور حولهـا، وهـو الذي يجري البحار والأنهار، ويجعل النبات ينمو، كما يجعـل الكـواكب تسـبح في الأفـق بسرعة مذهلة وبدقة لا تسمح بالخلل لجزء من الثانية، وقد صور القرآن مـدى"كلمـات الله" إن لو كانت كل الأشجار أقلاماً وكل البحار مدادًا لما استطاعت أن تكتب كلمــات الله.

إن الله في الإسلام يمثل "الإطلاق" فقدرته لا حد لها، وحكمته لا حد لها، وإرادتــه لا حد لها، وهو المطلق الذي يجعل كل العوامل الأخرى نسبية.

لا يمكن للعقل البشري أن يلم تمامًا بكنه اللــه، ولا طبيعتــه لأن الإنســان ليس إلا مخلوقًا ولا يمكن للمخلوق أن يكون مثل الخالق، وأن يدرك قدرة الخالق، ولهذا تحدث القرآن عن الله "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ"، " فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ"، " لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ".

ولكن هذا لا يعني أنه يمكن أن يأتي شيئًا يخالف العقل، وكيـف يتـأتى هـذا وخلـق الكون إنما يقوم على العقل أصلاً، وأن الله تعالى هو مصدر العقل، ولكن ليس شــرطًا أننا ندرك مدى هذا العقل، كما أن الله على تعاليه وخلقه الكون اللامحـدود، فإنــه ليس بعيدًا عن الإنسان الذي خلقه بيـده ونفخ فيـه من روحـه وفضـله على الملائكـة وجعلـه خليفة على الأرض، إن الله يعلم الإنسان وما توسوس به نفســه، وهـو أقـرب إليـه من حبل الوريد، وهو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهـو قـريب من الإنســان يستجيب إذا دعاه، هذا الإله العظيم في تعاليه " لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَـا بَعُوضَــةً فَمَا فَوْقَهَـا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُـوا فَيَعْلَمُـونَ أَنَّهُ الْحَـقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَـرُوا فَيَقُولُـونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِـلُّ بِـهِ كَثِـيراً وَيَهْـدِي بِـهِ كَثِـيراً وَمَـا يُضِـلُّ بِـهِ إِلاَّ الْفَاسِـقِينَ" (البقرة 26).

وهذا التعالي والإطلاق لا يعـني أن يتصـرف اللـه بـنزق أو بـأمر يخـالف العقـل أو يخضع للعواطف أو يظلم الناس، إنه كتب على نفسه الرحمــة " وَرَحْمَتِي وَسِـعَتْ كُـلَّ شَيْءٍ"، " إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً"، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَـاعِفْهَا"، وقـد وضـع مبــادئ يسير عليها الكون، وأخرى يسير عليها المجتمـع البشـري، وألـزم نفسـه بهـا (لأنـه هـو واضعها)، فقال : "إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ"، وقـال "وَلَنْ يُـؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا".

* * *

والموضع الثاني الذي تعرض فيه البابا هو الإشارة إلى نشر الإسلام بالسيف، وقد كانت دعوة نشر الإسلام بالسيف من الدعاوى التي سيطرت على الفكر الأوروبي والتي عرضها الإمبراطور البيزنطي في مقولته الشائهة وتقبلها البابا بنديكت السادس عشر، وعندما جوبه بالآية "لا إكراه في الدين" ادعى أن هذه الآية نزلت أيام كان محمد مضطهدًا ومغلوبًا على أمره، والحقيقة أن الآية من سورة البقرة وقيل أنها من الآيات الأخيرة في القرآن، فكشف بهذا عن جهله.

وبالطبع فإن الجميع أخطأوا فهم هذه النقطة، نقطة الجهاد، فالمعروف أنه ما أعلن الرسول عن دعوته حتى ثارت قريش واضطهدته ومن تبعه اضطهادًا مريعًا، وظل تحت هذا الاضطهاد 13 عامًا حتى هاجر إلى المدينة التي (فتحت بالقرآن) كما قالت عائشة، وكان الرسول قد أرسل إليها مصعب بن عمير لتعليم من أسلم فيها القرآن، فأشاع الإسلام حتى "فتحت بالقرآن، ودون سيف أو سنان، وهذا هو أعظم فتح، والذي قامت عليه كل الفتوح".

عندما هاجر إلى المدينة، زادت ضراوة قريش وأرادت أن تستأصله حتى تأمن الطرق التي تسير فيها قوافلها، فأغارت عليه في بدر، وانتصر ثم توالت الحروب، وكانت كلها دفاعية أريد بها حماية حرية المسلمين في الاحتفاظ بعقيدتهم، أي أنها كانت دفاعًا عن حرية العقيدة، وهذا هو السر في أن الحديث عنها في القرآن يقترن " حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ".

السؤال الذي يثار هو مبرر الحروب الإسلامية بعد أن استتب الأمر للإسلام في الجزيرة العربية وسادها، والرد إن هذه الفتوحات لا تعود إلى أصل في العقيدة، وإنما هي نتيجة للأوضاع التي تتحكم في المجتمعات، فعندما تظهر دعوة شابة فتية نؤمن بالمساواة وتستهدف تحرير الشعوب والجماهير وتكون بجانبها نظم طبقية مستبدة، فلابد أن يحدث حراك اجتماعي تزحف فيه الدعوة الشابة الفتية لتحرر الشعوب والجماهير وتحل مبدأ المساواة محل مبدأ الطبقية، وهذا هو ما حدث، فما أن ظهر الإسلام وما أن أتم ثورته الأولى بإيجاد مجتمع المدينة حتى بدأ يزحف على جارتيه الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية البيزنطية وكانا معًا يقننان شرعة الطبقية، فجاء الإسلام يحمل "الكتاب والميزان" ويحرر الجماهير ويحل مبدأ المساواة، وفي الوقت نفسه فإنه لم يجبر الشعوب على التحول إلى الإسلام، بل أباح لها حريتها في العقيدة، ومجال الأحوال الشخصية من زواج أو طلاق أو ميراث.. الخ، وأعفاها من أن تجند في الجيش الإسلامي، وقدم لها الأمن والآمان والحماية كل هذا نظير رسم هو الجزية التي كانت هذه الجماهير تدفعها بالفعل لحكامها المستبدين وقد دفعها السيد المسيح للرومان، وكانت تفرض على كل فرد في الأسرة، فجاء الإسلام وجعلها على الرجال البالغين دون النساء والأطفال والشيوخ، هذه هي الصورة الإسلامية لما ارتآه هانتنجن

"صراع الحضارات"، ولكنه في الإسلام يختلف فبعد بداية التصادم تأتي مرحلة التسالم، وأخيرًا تأتي مرحلة التلاقح.

وأود أن أذكر هنا مثالاً سابقًا قدمه المفكر المصري الدكتور طه حسين وهو رائد التنوير في مصر كما يقولون، ففي كتابه "قادة الفكر" في اليونان تحدث عن الشعراء هوميروس وهيزيود.. الخ، ثم لما فشل الشعراء في قيادة الفكر ظهر الفلاسفة، وتحدث بإفاضة وفي فصل مستقل عن كل من سقراط وأفلاطون وأرسطو ثم انتقل فجأة إلى الإسكندر الأكبر، وكانت تلك نُـقلة مثيرة للدهشة فما الذي زج بقائد عسكري بين قادة الفكر والفلاسفة ؟. قال طه حسين في تبرير ذلك إن الفلاسفة فشلوا في توصيل الفلسفة اليونانية إلى خارج اليونان، فكان لابد من قوة تحمل هذه الفلسفة إلى الشرق وإلى فارس، وكان الإسكندر هو الذي قام بذلك، وفي نظري إن محاولة الفتوحات الإسلامية كانت أصدق تمثيلاً لما أراده طه حسين من الإسكندر لأن الفتوحات الإسلامية جعلت من أهالي الدول المفتوحة زعماء وكبراء في فنونهم أو في فنون الدولة الإسلامية.

فالفتوحات الإسلامية في عهد أبي بكر وعمر كان لها رسالة حضارية، وهي واقعة يعترف بها كل منصف وكل عارف بالحقيقة، ولكنها بعد ذلك في عهد بقية الخلفاء، فقدت هذه الرسالة، مع فقد الخلافة الإسلامية نفسها رسالتها وأصبحت حربًا كالتي تقوم بها الدول الكبرى، وكانت هزيمة الجيش الإسلامي في بواتييه إيذانًا بأنه فقد رساليته، فقد جاءت الهزيمة لحرص البربر على الغنائم التي كانوا قد احتازوها.

ومع هذا فإن القواعد التي وضعها الإسلام لممارسة الحرب اتبعت لفترة طويلة، وكانت نموذجًا لما توصلت إليه البشرية في العصر الحديث ولاتفاقيات جنيف، وللأصول التي وضعها الصليب الأحمر الدولي، كانت الوصايا المؤكدة من الرسول والتي كررها أبو بكر وعمر للجيوش الإسلامية "أن لا يقتلوا امرأة أو طفلاً أو شيخًا وأن لا يهدموا كنيسة أو ديرًا، وأن لا يتعرضوا لرجال الدين ــ يهودًا أو نصارى ــ وأن لا ينتهبوا شيئًا، وكل ما يأخذونه يجب أن يدفعوا ثمنه، وأن لا يحرقوا شجرًا أو زرعًا"، أما الأسرى فقد وضع القرآن قاعدة كانت أكثر تقدمية مما يحتمله العصر ولم يستطيع أن يطبقها إلا الرسول نفسه، تلك القاعدة هي المن أو الافتداء، طبقاً للآية : "فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً" (محمد : 4) بمعنى إطلاق سراحهم، أو قبول فدية لذلك، فإذا لم تتوفر الفدية فيمكن أداء عمل لمدة معينة، وقد طبق الرسول هذا المبدأ في أسرى بدر إذ قبل منهم الفدية، وفي أسرى هوازن، وكانوا بالمئات إذ أطلق سراحهم، وهذا المبدأ الذي طبقه الرسول لم يتابع بعده.

لقد أغنانا الكاتب اليهودي يوري افنيري في كلمته التي رد فيها على البابا تحت عنوان "سيف محمد" وأدرجناها في الردود "عن الرد فقد جاء فيها "إن كل يهودي يعلم تاريخه لابد وأن يحس بامتنان عميق للإسلام الذي حمى خمسين جيلاً من اليهود،

في حين أرادت المسيحية استئصال اليهود"، وإذا كان الإسلام قد حما اليهود، فإنـه من باب أولى حمى المسيحيين.

* * *

والآن نـأتي إلى النقطـة الثالثـة الـتي انتقـد فيهـا البابـا الإسـلام وهي أنـه "غـير عقلاني"، وقد بني هذا الزعم على أساس "تعالى الله" وعدم تجاوبه مع مقولاتنـا، بمـا في ذلك مقولة العقل، وكذلك انتشار الإسلام بالسيف، وهذا الانتشار يعد غـير عقلاني، وبالتالي لا يتفق مع طبيعـة اللـه طبقًـا لمـا ذهب إليـه الإمـبراطور من أن العمـل غـير اللاعقلاني يجافي طبيعة الله.

وقد عرضنا المدلول السليم لتعالى الله وأنه لا يستلزم عدم التجاوب مع مقولاتنـا بما في ذلك العقل، كما فندنا دعوى نشر الإسلام بالسيف وبذلك سقط الأساس الـذي قامت عليه دعواه، ومع هذا فسنثبت عقلانية الإسلام من الناحية الإيجابية، وهي بالطبع أكثر دلالة مما ذهب إليه البابا.

فـأول مـا يلفت من يـدرس الإسـلام أنـه ـــ دون الأديـان الأخـرى ـــ لم يقم على معجزات كالتي آتاها الأنبياء من نوح وإبراهيم وإسـحاق ويوسـف والمسـيح عيسـي بن مريم، لقد كانت معجزته كتابًـا، وقـد رفض الرسـول مـا طالبـه بـه المشـركون من أن يظهر معجزة، وقال : "سبحان ربي هل كنت إلا بشرًا رسولاً"، وقال القرآن : " وَقَـالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَـا نَـذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَـا عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَرَحْمَــةً وَذِكْـرَى لِقَــوْمٍ يُؤْمِنُــونَ" (العنكبوت 50 ـ 51).

إن رفض القرآن أن تكون المعجزات الحسية التي كـانت لكـل الأنبيـاء السـابقين دليل نبوتهم هو ما يتفق مـع أن تكـون معجزتـه كتابًـا، وأن يكـون ظهـوره إيـذانًا بعهـد العقل.

والغريب أن البابا تصور إن فكرة الإسلام عن اللـه تبعـده عن العقـل في حين أن الحقيقة هي نقيض ذلك، ففكرة الإسلام عن الله باعتباره الخالق، وباعتباره الوحيد هـو ما يتفق مع العقل الذي يستدل من الخلق على الخالق وأن وحدة الله هو ما يتسق مع وحدة القوانين التي يقوم عليها المجمع الكوني إذ لو كـان فيهـا آلهـة متعـددة لتعـددت وتضاربت القوانين، في حين أن هذا التكـييف العقلي، العقلاني أبعـد كـل لاهوتيـة على نقيض المسيحية والتي تقوم على لاهوتية معقـدة، بعيـدة عن عـالم العقـل، تنفـرد بهـا الكنيسة وتجعلها من "أسرارها السبعة".

وتظهر عقلانية الإسـلام أيضًـا في إبـرازه الرسـول كبشـر "مثلكم" وأنـه لا يتمتـع بقوى خارقة، ولا سلطة له على الناس إلا سلطة التبليغ فهو كبقية البشر يأكل الطعـام ويمشي في الأسـواق، وقـد نهى الرسـول نفسـه أصـحابه عن أن يبـالغوا في تعظيمـه

وكانت الصفة التي اختارها لنفسه هي "محمد عبـد اللـه ورسـوله"، الأمـر الـذي جعـل طائفة تستشعر شيئًا من الحساسية عندما تقول "سـيدنا محمـد" في حين أن هـذا هـو اقل قدر من التقدير والتكريم.

وقد تقبل الإسلام الآراء المعارضة، ووضع مبدأ "من اجتهد فأخطأ فلـه أجـر، ومن اجتهد فأصاب فله أجران"، وكان الفقهاء في الـوقت نفسـه أطبـاء وفلاسـفة وعلمـاء، وفي بعض الحالات موسـيقيين، وأي دليـل على انفتـاح العقلانيـة الإسـلامية أعظم من اعتبار أرسطو "المعلم الأول"، وترجمة أعمال فلاسفة اليونان الـتي كـادت تنـدثر لـولا إحياء المسلمين لها، لقد شاهدت بغداد، وقرطبة حياة علمية خصبة زاهرة اشترك فيها عشرات الألـوف، وكـانت المكتبـات شـائعة، وكـانت كـل عواصـم الإسـلام "القاهــرة، بخارى، طشقند، فاس، تمبكتو" كلها تزدهـر بـالعلوم والفنـون في الفـترة الـتي كـانت أوروبا تجتاز "القرون الوسطى المظلمة".

وقد قدم علماء مثل البيروني وابن هيثم، وابن النفيس والخوارزمي.. الخ، مفـاتيح المعرفـة والأسـلوب التجريـبي لأوروبـا عنـدما كـانت تسـتهل نهضـتها، فـوفرت عليهـا السنوات الطوال، وجعلتها تبدأ حيث انتهى العرب.

فـإذا رمت الكنيسـة الإسـلام "بمقاومـة العقلانيـة"، فإنهـا ببسـاطة تكـون جـديرة بالمثل "رمتني بدائها وانسلت".

ثانياً : لإنعاش ذاكرة البابا

ـ 1 ـ

اقتصر حديثنا حتى الآن على المعالجة الموضوعية لمحاضرة البابا، ونود أن نشير إلى أن البابا لم يكن يتحدث عن المسيحية التي بدأت بميلاد السيد المسيح وظلت حتى الآن وعرف عنها أمور خاصة وسياسات مميزة، وإنما كان يتحدث عن المسيحية كما يتصورها، ولو أنه كان يتحدث عن المسيحية التاريخية لاحتاج إلى كثير من التواضع، ولما دخل في مقارنة بالإسلام حتى لا يرمي بالطوب وبيته من الزجاج، لأن تاريخ المسيحية الطويل، أو قل تاريخ الكنيسة المسيحية، وبوجه أخص الكنيسة التي قامت في روما والتي هي محل فخره وقعت في محاظير وارتكبت من الجرائم وتمسكت بالخرافات، وقاومت العلماء والمفكرين، وتصدت لحرية الفكر، وآمنت أن البشرية لا تعود إلى أكثر من أربعة آلاف عام وأن الشمس تدور حول الأرض، واعتبرت ذلك من صميم العقيدة، ولابد أنه (أي البابا) يعلم أن تاريخ البابوات هو أسوأ من تاريخ الملوك والطغاة، وحفل بمفارقات مخجلة، وأن هذه السياسة التي مارستها الكنيسة الكاثوليكية طوال القرون الوسطى كانت السبب الذي جعل الأمراء والمفكرين يعملون لإصلاحها، فظهرت حركة الإصلاح في أوائل القرن السادس عشر، ثم أعقبتها الثورة الفرنسية التي قضت على عالم الكنيسة وهيلمانها وهيمنتها وحكمت عليها بأن تعيش في ركن من أركان المجتمع وأن تقتصر على تعميد الأطفال وترويج الشباب ودفن الأموات، **لقد رأينا أن من واجبنا أن ننعش ذاكرة البابا بإشارات سريعة تبدأ من أن الكنيسة كانت أبعد ما تكون عن العقلانية وأنها شنت الحروب وأقامت محاكم التفتيش الرهيبة التي تقشعر لصور تعذيبها الجلود**.

هل نسى البابا الحروب الصليبية التي أثارتها المسيحية، وأن حرب المائة عام ما بين المذاهب الدينية المسيحية خربت أوروبا، وأن البابا أوربان الثاني هو الذي أطلق باسم المسيح بداية الحروب الصليبية التي استمرت قرنين من الزمان، وأستعير هنا بعض ما كتبه الأستاذ محمد عمارة عن نشر المسيحية بالسيف، فشارلمان (742 ـ 814م) فرض المسيحية على السكسونيين بحد السيف، وفي الدانمرك استأصل الملك كنوت Cnut الديانات غير المسيحية من بلاده بالقوة والإرهاب، وفي بروسيا فرضت جماعة إخوان السيف Bretheren of the sword المسيحية على الناس بالسيف والنار، وفي ليفونيا فرض فرسان المسيح Order fratrum militiae Christ المسيحية على الشعب فرضًا، وفي جنوب النرويج ذبح الملك أولاف ترايجفسيون كل من أبى اعتناق المسيحية، أو قطع أيديهم وأرجلهم ونفاهم وشردهم، حتى انفردت المسيحية بالبلاد، وفي روسيا فرض فلاديمير Vladimir سنة 988م المسيحية على

كل الروس، سادة وعبيدًا، أغنياء وفقراء غداة اعتناقـه لهـا، ولم يعـترف فيهـا بإمكانيـة تعدد الأديان إلا في مرسوم صدر سنة 1905م ! وفي الجبل الأسود ـ بالبلقان ـــ قـاد الأسقف الحاكم دانيال بتروفتش D. Petrovich عمليـة ذبح غـير المسـيحيين ـــ بمن فيهم من المسلمين ـ ليلة عيد الميلاد سنة 1703م، وفي المجـر أرغم الملـك شـارل روبرت غير المسيحيين على التنصـر أو النفي من البلاد سـنة 1340م، وفي أسـبانيا ـ قبل الفتح العربي ـ كان المجمع السادس في طليطلـة، قـد حـرم كـل المـذاهب غـير المذهب الكاثوليكي، وأقسم الملوك على تنفيذ هذا القانون بالقوة.

وحيثما امتد نفوذ ونهج الحضارة الغربيـة هذا، شـــهد التاريخ هذا القهـــر والإكـراه والاضطهاد، "فاليعاقبة" في مصر والشرق، اضطهدهم الأرثوذكس الملكـانيون، بالقتـل والنفي والتشـــريد، قتل جســـتنيان الأول (527ـ565م) مـائتي ألـف من القبـط في مدينة الإسكندرية وحـدها، حـتى اضـطر من نجـا من القتـل إلى الهـرب في الصـحراء، وفي أنطاكية حدث نفس القهـر والاضـطهاد لغـير المسـيحيين ولمعتنقي غـير مـذهب الدولة الرومانية من المسيحيين !، وفي الحبشة قضي الملـك سـيف أرعـد (1342ـــ 1370م) بإعـدام كـل من أبى الـدخول في المسـيحية أو نفيهم من البلاد، وصـنع ذلـك الملك جـون في الربـع الأخـير من القـرن التاسـع عشـر الميلادي ! ناهيـك عن مأسـاة مسلمي الأندلس على يد فرديناند وإيزابيلا.

لقد سنت الحضارة الغربية سُنة الإكراه في الـدين، واتخـذت القهـر ـــ في أبشـع صوره ـ سبيلاً لانفراد المسيحية بساحة التدين، بل وانفـراد مـذهب واحـد من مـذاهبها بعقائد الذين أكرهوا على "الإيمان" !، وكان شـعارها كلمـات "الوصـية" المنسـوبة إلى القديس لويس، والتي تقول : "عندما يسمع الرجل العامي أن الشريعة المسـيحية قـد أسيء إلى سـمعتها، فإنـه ينبغي ألا يـذود عن تلـك الشـريعة إلا بسـيفه الـذي يجب أن يطعن به الكافر في أحشائه طعنة نجلاء" ؟! (مجلـة الحـوار، العـدد 9، السـنة الثالثـة، ربيع 1988م ـ 1408 هـ الطيب والخبيث في حقوق الإنسان للـدكتور محمـد عمـارة، ص 40).

وهناك نقطة كـان يفـترض أن لا ينسـيها كـاهن كـاثوليكي، تلـك هي إن فكـرة أن الكنيسة تمقت الـدماء، كـان السـبب في جعـل "الإحـراق" الـذي لا يسـيل الـدماء هـو العقوبة المقررة للمخالفين من ضحايا محاكم التفتيش الرهيبـة الـذين كـانوا يسـيرون في مواكب أطلق عليها auto da fe حتى يدفع بهم إلى النـيران المتأججـة، وظلت هذه المواكب الوحشية إلى سنة 1820 عندما أوقفها نابليون عندما دخل أسبانيا.

في مقابل هذا، فإن الإيمان الإسلامي بوجود النـار في الآخـرة كـان سببًا في تحريم النار كعقوبة في الدنيا، لأنه لا يعاقب بالنـار إلا خالقهـا، ولهذا لم يعرفها التاريخ الإسلامي.

* * *

هل نسى البابا أن الكنيسة الكاثوليكية هي التي وضعت كتاب التحريم الذي يحرم طبع ونشر وقراءة كل الكتابات التي ترى الكنيسة أنها مضادة لها ويطلق عليه الجدول Index librorum prohibtorum الذي تعود فكرته وقراره الأول إلى مجمع نقية سنة 325 عندما حرم كتاب الأسقف أريوس المعنون THALIA، ويعود تاريخ ظهوره الفعلي مع تطبيقه على ما سبق على مجمع ترينتي سنة 1564، وهذا الجدول يصدره الباب ويعاد طبعه كل عام، ويتضمن أسماء الكتب التي تحرم الكنيسة طباعتها وتداولها، ويدخل فيها بالإضافة إلى نصوص التوراة والأناجيل غير المعتمدة لديها كتب كثيرة منها كتب لجاليليو، وهوبز، وديكارت، وجان جاك روسو، وفولتير، مونتسكيو، وكانت، وجوته، وسبينوزا، وجون ستيوارت ميل، وفيكتور هوجو، وفورييه، وماركس، وبرجسون.. الخ.

يا سيادة البابا...

كيف تتحدث عن العقلانية وكتاب الإندكس "لا يزال موجودًا في كنيستك" ؟ وكيف تنتقد الجهاد وتاريخ الكنيسة ملوث بالدماء، قائم على العنف، والتعذيب ؟

* * *

عندما تحدث البابا في خطبته عن بني إسرائيل، أشار أنهم الذين حرموا دارهم وعقيدتهم، وكانت تلك جملة اعتراضية لم يكن السياق يقتضيها ضرورة، ولكن البابا أراد بها أن يجامل الإسرائيليين.

والعلاقة ما بين البابا والإسرائيليين تثير الدهشة، فباعتباره أوروبيًا آريًا كان يفترض أن يتملكه عزوف عن اليهود الساميين، وقصة العداوة ما بين هتلر واليهود معروفة، وبعد الحرب فإن إسرائيل ابتزت ألمانيا وتقاضت منها تعويضات بالمليارات، ثم هو كقطب مسيحي لابد وأن يضمر عزوفًا عن اليهود الذين ألبوا السلطات على المسيح وقاوموه وتأمروا عليه، ولكن التطورات الجديدة التي جعلت الولايات المتحدة تتبنى إسرائيل كابنة عزيزة مدللة تفوق مصالحها مصالح الولايات المتحدة نفسها جعلت البابا ينصرف إلى إسرائيل بصورة مثيرة للدهشة، فقد يُفهم أن تُبرأ الأجيال المعاصرة من اليهود مما اقترفه أسلافهم، وقد يساغ أن لا يمارس ما يسئ إليهم، أما أن يُشاد بمآثرهم ويعدون أعظم حلفاء للمسيحية، فهذا أمر يثير الدهشة فعلاً.

وكان البابا قد زار معبدًا يهوديًا في كولونيا يوم 21/8/2005م، ووصفت أجهزة الإعلام هذه الزيارة، فقالت : دعا البابا بنديكت السادس عشر أمس، من كنيس كولونيا الأقدم في ألمانيا، اليهود والمسيحيين إلى التقارب من أجل محاربة قوى الشر، وإلى اليقظة والحذر مع تنامي مشاعر الكراهية للأجانب والعداء للسامية في هذا الزمن، واصفًا المحرقة بأنها "جريمة فظيعة".

ففي اليوم الثاني لزيارته إلى ألمانيا لمناسبة الأيام العالمية للشباب، دخل بنديكت كنيس كولونيا الذي دمره النازيون خلال أعمال شغب استهدفت اليهود في عام 1938، وأعيد بناؤه في عام 1959م.

وتعتبر خطوة زيارة بنديكت إلى الكنيس في ألمانيا تاريخية، لكونها الأولى من نوعها التي يبادر إليها بابا كاثوليكي من أصل ألماني إلى معبد يهودي على الأراضي الألمانية التي انطلقت منها شرارة العداء لليهود.

وبعدما حيا الجميع بالعبرية (شالوم لبشيم)، تفقد البابا بمشاركة قيادة الرابطة اليهودية صالة ذكرى المحرقة النازية داخل الكنيس، وبحضور وزير الداخلية الألماني أوتو تشيلي وقادة أحزاب ألمانية.

ودعا بنديكت اليهود والمسيحيين إلى العمل معًا "لنقل شعلة الأمل التي منحها الله لليهود، كما للمسيحيين، بحيث لا تنجح قوى الشر مجددًا في بلوغ السلطة"، من أجل عدم تكرار المحرقة مجددًا.

ووصف البابا المحرقة بأنها "هذه الجريمة التي لا توصف، ولم تكن تخطر بالبال مسبقًا"، وقال : "في القرن العشرين، في أسود فترة من تاريخ أوروبا وألمانيا، فإن أيديولوجية عنصرية مجنونة، ولدت من الوثنية الجديدة، خططت ونفذت من قبل النظام (النازي) المحرقة"، وأضاف : "أحني رأسي أمام الذين عانوا من (جرائم النازية) التي لا يمكن وصفها، إن الأحداث الرهيبة في ذلك الوقت يتعين أن توقظ ضميرنا وننهي الصراعات ونتحرك نحو السلام.

ودعا البابا إلى "اليقظة" حيال بروز "إشارات جديدة معادية للسامية وأشكال عدة من العداء يتم تعميمها ضد الأجانب"، وقال : "كيف يمكننا أن نفشل في رؤية أن هذا مجددًا اليوم، بالتسامح والاحترام والصداقة والسلام بين جميع الناس والثقافات والأديان".

وأكد البابا أن زيارته للكنيس خطوة إضافية في نهج "تحسين العلاقات والصداقة" مع اليهود الذي سلكه سلفه البابا الراحل يوحنا بولس الثاني، الذي كان أول بابا يزور في عام 1986 كنيسًا في روما، وقال : "على الرغم من هذا، لا يزال هناك الكثير مما يجب أن نقوم به، ويجب أن نعرف ونحب بعضنا الآخر أكثر وأفضل".

وتمنى البابا "حوارًا صادقًا ملؤه الثقة بين اليهود والمسيحيين"، طالبًا منهم أن يشهدوا معًا لقيمهم المشتركة على غرار الدفاع عن حقوق الإنسان و"الطابع المقدس للحياة الإنسانية".

وكان حاخام الرابطة اليهودية "نيتانيل تايتلباوم" تلا صلاة على نية الموتى أمام نصب تذكاري للضحايا اليهود إبان الحكم النازي، وبينهم 11 ألفا من كولونيا، فيما كان البابا مستغرقًا في التأمل.

ووصـف رئيس الرابطـة اليهوديـة في ألمانيـا "إبراهـام لـيرر" البابـا بأنـه "البـاني الأكبر" للجسور بين الديانات، معربًا عن أمله بـأن تسـاهم الزيـارة في توحيـد الجسـم الكنسي والتأثير عليه، نظرًا لوجود مظـاهر معاديـة داخـل الكنيسـة أيضًـا، وحث البابـا على فتح ملفات الفاتيكان خلال الحرب العالمية الأولى، لمعرفـة موقـف البابـا بيـوس الثاني عشر من الحرب" انتهى.

إن القارئ لما دار في هذه الزيارة يعجب من الاستسلام التـام للبابـا وأن لغتـه لا تختلف عن لغة الإسرائيليين، فهو يتحدث عن "إشارات جديدة معاديـة للسـامية"، وهـو يتقبل وهو "الحبر الأعظم" الفخور والمعتد بنفسه وبكنيسته من ممثل الجالية اليهودية إشارة إلى وجود عناصر معادية للمسيحية داخل الكنيسة، ويحث البابا على فتح ملفات الفاتيكان خلال فترة الحرب العالمية الأولى لمعرفة "موقف البابا بيـوس الثـاني عشـر من الحرب".

وعند مقارنة هذا الموقف المتخاذل، بموقفه من السفراء العرب وتعاليه وتجاهـل ما جاء في خطبته، يتضح التحيز التام، وأن البابا قد استسلم كليًا "قلبًا وقالبًا" لليهود.

سيادة البابا..

إن محاضرتك جعلتني أحمد الله إني أؤمن بدين لا يوجـد فيـه كنيســـة، ولا يوجـد كهنـة، ولا طقـوس، ولا بابـا، وأن علاقـة كـل مسـلم باللـه لا تحتـاج إلى واســـطة، ولا وصي، إن أقل مســلم يـا سـيادة البابـا لا يمكن أن يتعـرض للمهانـة الـتي تعـرض لهـا الإمبراطور هنري الرابع في كانوسا.

الردود على محاضرة البابا
فتح على نفسه أبواب الجحيم

ما أن عرف نبأ المحاضرة حتى انفتحت على البابا أبواب الجحيم، وتوالت الردود في الصحافة العربية، وفي الصحافة الغربية، وعلى الإنترنت، وقد رأينا أن ندرج هنا ما توصلنا إليه من ردود، دون أن نتقصى المزيد، لأن المطلوب ليس هو التوثيق الكامل، ولكن تقديم ما يكفي لإعطاء صورة عن طبيعة واتجاه هذه الردود، ورأينا أن نتبع في الترتيب تاريخ نشرها، مما أدى إلى تأخير ما قد يكون أفضل من غيره، ولكنه صدر في تاريخ لاحق، وسنبدأ بالردود العربية ثم نخصص فصلاً للردود الغربية، ونختم بملاحظات عليها.

ـ 1 ـ

بابا الحرب الجديدة

جوزيف سماحة

جريدة الأخبار، لبنان، 16/9/2006م

ألقى البابا بنديكتوس السادس عشر في ألمانيا محاضرة كان يمكن، ويجب، تفاديها، جاءت تصبّ الزيت على نار مشتعلة أصلاً لا يشفع له أنه كان ينقل كلاماً عن كتاب يعود إلى قرون، المهم أنه لم يأخذ المسافة اللازمة ممّا يقرأ، والمهم أنه فعل ما فعله في هذا الوقت يمكنه كشخص، وحتى كلاهوتي، أن يملك الأفكار التي يريد، إلاّ أنه في موقع آخر يفرض عليه واجبات أخرى.

إن مَن يراقب المشهد العالمي المعولم لا يفوته تقدم الانقسامات الإثنية والطائفية والمذهبية هذه ظاهرة سجّلها الكثيرون وعدّوها الوجه الآخر لعولمة تدّعي أنها توحّد الكون اقتصادياً وتجارياً قبل أن يتضح تماما، أنها تفتح الأبواب على عولمة عسـكرية بالاتجاهين، يبرز تدريجاً، في هذا المشهد، خط انقسام واضح يدلّ على تعمّق الهوّة بين العالمين الإسلامي والغربي، لا يلغي ذلك التباينات والصراعات داخل كل منهما، ولكنه يقدم، لمَن يريد الاستسهال، منظومة يمكن من خلالها عقل العالم والتدخل في مجرياته، كان «صدام الحضارات» مزيجاً من تقدير ونبوءة يجب الاعتراف بعد سنوات على صدور كتاب صموئيل هنتنغتون بأن السجال معه يزداد صعوبة.

يتحمل الرئيس الأميركي جورج بوش مسؤولية حاسمة في دفع الأمور نحو هذا المنحى، لا أهمية، في هذا المجال، لما ذكره ذات مرة عن «الحملات الصليبية»، لأن

مسؤوليته في غير مكان لقد اندفع نحو سياسة تغييرية نيوكولونيالية ضد عدو هلامي اسمه «الإرهاب»، ونزع عن هذا العدو كل تاريخيته، ودوافعه، وأسبابه، ليجعل منه مجرد «انحراف فكري»، مجرد «مرض أيديولوجي» أطلق عليه تسميات مختلفة يبقى أقربها إلى ذهنه «الإسلام الفاشي» المعبر عنه في عدد من خطابات أُسامة بن لادن، لم يتردد في تشبيهه بوارث النازية والشيوعية عاقداً مقارنات كان يمكن أن تكون مضحكة لولا أنها كارثية في نتائجها. تجاهل بوش الأزمات كلها التي يعيشها العالمان العربي والإسلامي، ونسب إليهما أطماعاً توسعية اقتحامية، واندفع في دعم العدوانية الإسرائيلية، واحتل العراق متجاهلاً أنه يفتح بوابة الحرب الأهلية، ورعى تدمير لبنان، وواصل تهديداته لإيران وبرنامجها النووي (تسامح مع الهند النووية بشكل يجعل معاهدة الحد من الانتشار النووي حطاماً)، باختصار وفر بوش، الرئيس المؤمن، المولود ثانية، المستوحي إلهامه من علٍ، وفر الأسباب كلها، في ظل تراجع أيديولوجيات القرن الماضي، من أجل إرغام المواطن العادي في بلادنا على استعارة اللغة الأقرب إليه لتحصين نفسه بعقائد وأفكار تصدّ عنه الهجوم.

إن مَن يستمع إلى بوش جيداً يلاحظ كم أنه يعيد المواجهات الحالية إلى «جوهر ثقافي» (برغم محاولاته، غير المقنعة، إنكار ذلك)، إن الحرب التي ستمتد لأجيال هي في رأيه «حرب أفكار» تسير بموازاة «حرب الأسلحة»، ولا تزال شعوب تبحث، في عنف الأسلحة الذي تتلقاه، عن إبرة الأفكار الموعودة.

عندما يحاول رئيس الوزراء البريطاني تمييز نفسه فإنه يفعل ذلك فوق الأرضية نفسها، ففي المحاضرة التي ألقاها أثناء زيارته الأخيرة إلى الولايات المتحدة أكد أنه «لا يمكن الانتصار في هذه المعركة ضد التطرف، إلاّ إذا انتصرنا على مستويي القيم والقوة على حد سواء»، ودافع عن النهج الأميركي بعد 11 أيلول لأنه نهج لا يرمي إلى «تغيير الأنظمة، بل تغيير القيم التي تتحكم بالأمم المعنية»، حاول بلير أن يكون أكثر تعقيداً من بوش، وهذا أمر سهل، إلاّ أنه بقي في نطاق المقاربة نفسها: نحن، أي «الغرب»، أمام أمم تتحكّم بها قيم يجب تغييرها !

كان الوضع سيكون أفضل قليلاً لولا تدخل الحبر الأعظم، فالعالم ما زال يتذكر أن الفاتيكان الذي رفض الحرب الأميركية ــ البريطانية على العراق لعب دوراً، مهما كان محدوداً، في كسر صورة المواجهة بين عالمين وديانتين، وكذلك فعلت الكنائس الرسمية في الولايات المتحدة وبريطانيا، في حين أن الأصوليين المسيحيين الأميركيين كانوا من أشدّ قارعي طبول الحرب حماسة.

لقد كان واضحاً عندما خلف بنديكتوس السادس عشر يوحنا بولس الثاني أن الفاتيكان سيشهد ردة، لا يعني ذلك أن الثاني كان شديد التنوّر، ولكنه يعني أن الأول أثبت خلال الممارسة السابقة أنه شديد الانغلاق.

ثمة قاسم مشترك بين جورج بوش وبنديكتوس السادس عشر: الكراهية المصحوبة بالازدراء لثقافة الستينيات أو لما يعرف بالثقافة المضادة، يكره الرجلان تلك المرحلة، وأفكارها، وتحررها، وتفلّتها، وفوضويتها، وأنانياتها، وتمردها، وكسرها للتقليد والقوالب، وتعبر هذه الكراهية، بشكل من الأشكال، عن رفض لصيغة من صيغ «الأنوار» مزيدة منقّحة.

كان القلق واجباً من أن يصب الرافدان (الرئيس والبابا) في مجرى واحد، وأن يعبّر الاثنان، إلى هذا الحد، عن صدورهما من قعـر مشترك، ويمكن التساؤل اليوم، إذا كان ذلك قد حصل.

إذا كان هذا هو الوضع فعلاً فإن أياماً عصيبة تنتظرنا.

كان البابا السابق راية من رايات الحرب الكونية على الشيوعية والمعسكر الاشتراكي، كان الشخص المناسب لما أقدم عليه رونالد ريغان من تسعير لـ«الحرب الباردة»، نحن اليوم، أمام معطى جديد فالحرب الكونية، في عرف بوش، **هي حرب على « الإسلام الفاشي» وليس بسيطاً أن يوفر لـه الفاتيكان «التغطية الثقافية والأخلاقية» التي يحتاج إليها**.

ربما كان علينا، في لبنان، أن نتنبّه إلى عنف الموجة التي قد تضربنا إذا تلاقى الرافدان، لقد كنا في المدة الأخيرة، نحاول صدّ آثار العدوانية البوشية بأطروحات المجمع الخاص بلبنان وبدعوات التعايش التي أطلقها وبالإرشاد الرسولي إلى المسيحيين، طبعاً ثمة نقاش في فاعلية ذلك، إلاّ أنه كان، برغم كل شيء، مفيداً، هل تتعطل هذه المحاولة مستقبلاً ؟

هل تتحمل حساسية التركيبة اللبنانيـة الخاصة مثل هذا التعطيل ؟ ألن يكون مدعاةً للحذر احتمال تكرار أحداث شباط المتعلقة بالاحتجاج على الرسوم الدنمركية؟ ماذا نفعل بتهديدات تطاول الأجانب في لبنان ؟

لقد شاءت الصدف أن تتزامن محاضرة البابا في ألمانيا مع تصريحات المستشارة الألمانية <u>أنجيــلا ميركل عن مهمة «القوة البحرية»، قالت : إن ألمانيا قادمة إلى لبنان لحماية إسرائيل فحسب، إلاّ أن المحاضرة حملت رأياً في معتقدات مَن يمكنهم التصدي لإسرائيل ومقاومتها، وهو رأي سلبي ومهين</u>، فإذا جمعنا المهمة إلى الرأي، إذا جمعنا الموقف السياسي إلى الموقف الروحي، بتنا أمام مشهد استفزازي تماماً.

ثمة مخاوف مشروعة من أن ينتدب بنديكتوس السادس عشر نفسه ليكون بابا الحرب الكونية على «الإرهاب» التي أعلنها جورج بوش.

* * *

ـ 2 ـ

عفواً قداسة الحبر الأعظم

محمود حمدي زقزوق

وزير الأوقاف المصري

الأهرام 18/9/2006م

في الثاني عشر من شهر سبتمبر الحالي استضافت دولة إسـلامية هي جمهوريـة قازاخستان المؤتمر الدولي الثاني لزعماء الأديان العالمية والتقليديـة من أجـل تعميـق الحوار والتفاهم والتعاون بين الأديان جميعاً, الأمر الذي يدل على مدى تسـامح العـالم الإسلامي وتواصله مع كل الأديـان، ومن المفارقـات الغريبـة أنـه في اليـوم ذاتـه ألقى قداسة بابا الفاتيكان بنديكتوس السادس عشر محاضرة في جامعة ريجنزبورج بألمانيـا هاجم فيها الإسلام، وقد أحدث هذا الهجوم صدمة لدى الرأي العـام الإسـلامي في كـل مكان.

وعندما يتأمل المرء هذه المحاضرة يتساءل: لماذا أقحم البابا الدين الإسلامي في محاضرته التي تحدث فيهـا عن العلاقـة بين الإيمـان والعقـل في المسـيحية ؟ إن ممـا لاشك فيـه أن هـذا الأسـلوب في الهجـوم على دين من أعظم الـديانات الـتي عرفتهـا البشرية ـ والذي يدين به خمس سكان العالم ـ لا يمكن أن يخدم أهداف الحوار الذي دعا إليه البابا في نهاية محاضرته.

فهل أراد قداسة البابا أن يستغل هذه المناسبة في اليـوم التـالي لـذكرى أحـداث الحادي عشر من سبتمبر للهجوم على الإسلام وربطه بالتالي بالإرهـاب دعمـاً للفكـرة السائدة في الإعلام الغربي من الربط بين الإسـلام والإرهـاب , وتواصـلا مـع مسلسـل الرسـوم الكاريكاتوريـة الدانماركية ؟، أم أراد أن يـبرهن على تفـوق المسـيحية على الإسلام ؟

إن الأمر الجدير بالملاحظة أن قداسـة البابـا في هجومه على الإسـلام قـد اعتمـد على كتاب أصدره الأستاذ عادل تيودور خوري، وقد اقتبس عـدة مـرات في محاضـرته مما قاله خوري، والأستاذ خوري لبناني الأصل عمل أستاذا للاهوت في جامعة مونسـتر بألمانيا، وأعرفه جيـداً منـذ مـا يقـرب من عشـرين عامـاً, وكثـيراً ما اشـتركنا معـاً في مؤتمرات دولية للحوار بين الأديان، ولـه مؤلفـات كثـيرة عن الإسـلام بالألمانية , ولكن آراءه وتصوراته عن الإسلام لا تتفق في كثير من الأحيـان بطبيعة الحـال مـع تصـورات المسلمين .

واعتماد قداسة البابا على كتاب خوري يذكرنا بالفيلسوف الفرنسي بسكال الـذي قرأ كتاباً وحيداً عن الإسلام لأحد المستشرقين وبنى على ذلك هجومه غير المبرر على

الإسلام. ومع كل التقدير والاحترام لشخص قداسة البابا بنديكتوس السادس عشر فإني أود أن أبدي فيما يلي بعض الملاحظات على ما جاء في محاضرته :

1ــ ينقل قداسة البابا عن الأستاذ خوري ما دار من حوار حول الإسلام والمسيحية وحقيقة كل منهما بين القيصر البيزنطي مانويل الثاني وبين أحد المثقفين المسلمين. وقد كان ذلك في شتاء عام1391 م .

وفي أحد هذه الحوارات تطرق القيصر لموضوع الجهاد أو ما يسمي (بالحرب المقدسة)، ولاشك أن القيصر ــ كما جاء في المحاضرة ــ كان على علم بما جاء في سورة (البقرة) : " لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ" , التي يقال عنها إنها إحدى السور المبكرة في الوقت الذي كان فيه محمد ضعيفاً ومهدداً. ولكن القيصر كان يعرف أيضاً السور المتأخرة التي تتناول تشريعات الجهاد .

ويسأل القيصر محاوره عن العلاقة بين الدين والعنف , ويقول : أرني ما الجديد الذي جاء به محمد ؟ إنك لن تجد إلا أشياء شريرة وغير إنسانية مثل أمره بنشر الدين الذي كان يبشر به بحد السيف، وهذا أمر يتناقض مع جوهر الله وجوهر الروح والقضية الأساسية هنا ضد مبدأ فرض الدين بالعنف هي : إن عدم التصرف بعقلانية يناقض جوهر الله.

ويمضي خوري فيقول : إن الله في العقيدة الإسلامية مطلق السمو ومشيئته ليست مرتبطة بأي من مقولاتنا ولا حتى بالعقل، ويدلل خوري على ذلك بما نقله عن مستشرق آخر (أرنالدز) على لسان ابن حزم الذي يزعم أن الله لا يتقيد حتى بكلامه , وأنه لا يجب عليه أن يوحي إلينا بالحقيقة , وإن أراد جعل الإنسان عابدا للأصنام.

ومن الواضح أن قداسة البابا يوافق على ذلك كله, حيث لم يرفض منه شيئا بل أخذه على أنه كلام مسلم به , وإن لم يقل ذلك صراحة .

ومن ناحية أخرى فإن ابن حزم ــ وهو من زعماء المذهب الظاهري الذي يرفض العقل والمنطق ـ ليس حجة على الإسلام , وليس مرجعية يعتد بها لدى المسلمين، وقد رفض آراءه علماء العقيدة الإسلامية على اختلاف اتجاهاتهم، وعقيدة المسلمين لا تؤخذ إلا من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، وما عدا ذلك من تصورات فهي وجهات نظر واجتهادات قد تخطئ وقد تصيب، ورحم الله الإمام الشافعي الذي كان يقول : رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب.

2 ــ الإمبراطور البيزنطي في حديثه عن الإسلام ليس من المرجعيات العلمية التي يعتد بها. فكلامه من قبيل الدعاية ضد دين الأعداء قبل أن يكون كلاما دينياً أو علمياً , ولا يخرج هذا الكلام عن التصورات المشوهة عن الإسلام التي راجت في القرون الوسطى في أوروبا, والتي كانت أيضاً مصدر معلوماته عن الإسلام، ومن هنا لا يمكن من الناحية الموضوعية الاعتماد على كلام هذا الإمبراطور أو الاعتداد به

والاستشهاد برأيه، ومن أجل ذلك دهشت ودهش العالم الإسلامي كله من اقتباس البابا الجليل ــ وهو الأستاذ الجامعي ــ العبارة المشار إليها والبناء عليها.

3 ــ الحوار الذي عرض فيه الإمبراطور تصوره الغريب عن الإسلام كان الطرف الآخر فيه مثقف مسلم , فماذا قال هذا المسلم رداً على كلام الإمبراطور؟.

ألم يكن من العدل والإنصاف والنزاهة العلمية أن تعرض الصورة كاملة حتى تتضح الأمور أمام الناس ؟ وإذا تم عرضها كاملة، فإن ذلك من شأنه أن يعمل على تصحيح الأمور وتوضيح المواقف وإظهار الحقيقة.

4 ــ أما الزعم بأن المشيئة الإلهية في الإسلام منقطعة عن العقل وأن تصرفات الله لا تخضع للعقل ولا للمنطق فهذا أمر لا سند له من الواقع القرآني ولا من واقع الاعتقاد الإسلامي، فالله قد أمرنا بكل الفضائل التي تتفق مع العقل والمنطق , وقد احترم الإسلام العقل الإنساني وجعله في أعلى منزلة وأرفع مكان , وجعل الإنسان الذي لا يستخدم عقله بمنزلة إنسان قد تنازل عن إنسانيته , وجعل عدم استخدام العقل الإنساني خطيئة كبرى سوف يسأل عنها الإنسان يوم القيامة.

والله قد بين لنا في القرآن الكريم أنه خلق كل شيء بقدر, وأن كل ما في السماوات والأرض يسير وفق سنن كونية، وأن كل خلق الله مرتبط بحكم بالغة. وقد دعا القرآن الكريم الناس إلى النظر في الكون ودراسته والتفكير في آيات الله في العالم وفي الإنسان، وأما أن إرادة الله وعلمه وحكمته لا تحدها حدود فهذا أمر منطقي لأنه هو نفسه الخالق، ولكن المسلم لا يفهم من ذلك مطلقاً أن تصرفات الله لا تتفق مع العقل والمنطق .

وفي ضوء هذه التعاليم القرآنية سار علماء المسلمين. فحجة الإسلام الغزالي يقول : العقل أنموذج من نور الله ويقول الجاحظ : إن العقل وكيل الله عند الإنسان، كما قرر علماء التوحيد أن النظر العقلي يعد أول واجبات المسلم في مسائل الاعتقاد .

وقد اطلع المسلمون على الفلسفات القديمة ومنها اليونانية وناقشوها مناقشة عقلية وصانوها من الضياع، وقد تعرفت أوروبا على الفلسفة اليونانية لأول مرة عن طريق العلماء المسلمين من الترجمات العربية .

واعتمدت أوروبا على آراء الفيلسوف العظيم ابن رشد بصفة خاصة في دعم الحركة العقلية التي مهدت لعصر النهضة الأوروبية لما عرفوه لديه من تقدير لا حد له للعقل والمعقول .

ومع هذا الاعتداد بالعقل والمعقول فإن المسلمين لم ينسوا أن الله هو الخالق الأعظم مالك الملك, وأنه هو الذي وهبهم العقل ولكنه لم يسلبهم الإرادة بل حملهم المسئولية بجعله الإنسان خليفة لله في الأرض ليعمرها بالعلم , ولا علم دون عقل .

5 ــ إن القرآن الكـريم يـرفض العـدوان على الآخـرين رفضـاً قاطعـاً مـاداموا لم يسـيئوا إلى المسـلمين, ويطلب من المسـلمين أن يتعـاملوا معهم على أسـاس من التعايش الإيجابي بالبر والعدل، وآيات القرآن الكريم في هذا الصـدد صـريحة وواضـحة لكل باحث نزيه.

وقد أكد القرآن الكريم بأسلوب الحصـر هـدف الـدعوة الإسـلامية بقولـه مخاطبـا النبي عليـه الصـلاة والسـلام : "ومـا أرسـلناك إلا رحمة للعـالمين" . فالرحمـة عنـوان الإسلام، والإسلام مشتق من نفس الأصل الذي اشتق منه السلام , فهـو دين السـلام، والإسلام لا يعرف ما يسمي بالحرب المقدسة، والجهاد في الإسلام شرع لرد العـدوان فقـط ـــ كمـا يقـول القـرآن : "وَقَـاتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَـاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَـدُوا" . والجهاد الأكبر هـو جهـاد النفس. وكمـا يكـون الجهـاد بـالنفس في حالـة الاعتـداء على المسلمين فإنه يكون أيضاً بالعلم وبالمال وبكل عمـل ينصف المظلـوم ويقيم مـوازين العدل ويحض على الفضـائل وينهى عن الرذائل، وإن اخـتزال الجهـاد في الإسـلام في الحرب ضد الآخرين لنشر الإسلام بالسـيف هـو تفسـير خـاطئ لهـذا المفهـوم، فنشـر الإسلام لا يكون إلا بالإقناع وبالحجة والبرهان، والإسلام لم ينتشر بالسيف ــ كما يشاع ــ ولكن بقوته الذاتية، وكمثال على ذلك انتشار الإسلام في جنوب شرق آسيا والصـين عن طريق التجـار المسـلمين الـذين لم يكونـوا مسـلحين لإرغـام النـاس على اعتنـاق الإسلام.

والشـيء نفسـه في دول غـرب إفريقيـا الـتي انتشـر الإسـلام فيهـا عن طريـق الصوفية دون قهر أو إرغام .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن المسلمين حينما فتحوا مصر لم يرغمـوا أحـداً من أهلها على الدخول في الإسلام , ولذلك ظل المسلمون في مصر أقلية مدة قرنين من الزمان. وأي تجاوزات أو انحرافـات عن هـذا الخـط الواضـح للإسلام لا يجـوز إلصـاقها بالإسلام بأي حال من الأحوال .

وقد أنصف بعض الكتاب الغربيين الإسلام ورفضوا مقولة انتشاره بالسـيف , ومن بين هؤلاء المستشرق المعروف توماس آرنولد في كتابه "الدعوة إلى الإسلام".

والقـرآن نفسـه يقـرر منهج الـدعوة إلى الإسـلام بقولــه : "ادع إلي سـبيل ربـك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن".

ومن رسائل النبي محمد صلى اللـه عليـه وسـلم إلى أهل اليمن : «إنـه من كـان على يهودية أو نصرانية فلا يفتن عنها».

والإسلام هـو الـدين الوحيـد الـذي قـرر حريـة العقيـدة حين قـال : {لا إكـراه في الدين}، وسورة البقرة التي وردت فيها هذه الآية ليسـت من السـور المبكـرة ـــ كمـا قيل ــ وإنما هي من السور المدنية المتأخرة .

وقد أحال الإسلام مسألة العقيدة إلى المشيئة الحرة للإنسـان في قولـه تعـالى : "فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ" .

6 ــ وإذا كـانت المحاضـرة تريـد أن تلصـق تهمـة العنف بالإسـلام فمن حقنـا أن نسأل : ألم تكن الحروب الصليبية عنفا وإرهاباً وعدواناً سـافراً على شـعوب آمنـة في المنطقـة العربيـة حينـذاك ؟، وألم يكن الفاتيكـان مسـاعداً ومشـجعاً وداعمـاً لهـذه الحروب التي راح ضحيتها آلاف المسلمين ؟

وألم يكن ذلك العنف مناقضا للعقل ولطبيعة الله ؟

وعلي الـرغم من ذلـك فقـد نـأى المسـلمون بأنفسـهم عن تسـميتها بـالحروب الصليبية، وسماها المؤرخون المسلمون حـروب الفرنجـة رافضـين بـذلك الربـط بينهـا وبين المسيحية التي يعتقد المسلمون أنها دين سلام ومحبة.

7 ــ أما عن علاقة الله بالإنسان في الإسـلام فإنها أعمـق من أن يتصـورها بشر , ويكفي أن نشير هنا إلى بعض ما جاء القرآن الكريم في هذا الصدد :

يقول الله تعالى : " ادْعُـونِي أَسْـتَجِبْ لَكُمْ" , ويقـول : " وَإِذَا سَـأَلَكَ عِبَـادِي عَنِّي فَإِنِّي قَـرِيبٌ أُجِيبُ دَعْـوَةَ الـدَّاعِي إِذَا دَعَـانِي "، ويقـول : "وَنَحْنُ أَقْـرَبُ إِلَيْـهِ مِنْ حَبْـلِ الْوَرِيدِ"، ويقول : " قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُـوا مِنْ رَحْمَـةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ".

وهذه الآيات ــ وغيرها كثير في القرآن الكريم ــ واضحة بذاتها وليست في حاجـة إلى تعليق .

8 ــ لقد سعدت بلقاء البابـا يوحنـا بـولس الثـاني عـام1987 بمناسـبة أول تجمـع ديني تنظمه مؤسسة سانت إيجيديو، وقـد كـان البابا الراحـل داعمـاً بقـوة للحـوار بين الأديان , واستقبله الأزهر الشريف منـذ نحـو خمس سـنوات بكـل الـترحيب والتقـدير، وفي عهده تم توقيع اتفاقية للحوار الديني بين الأزهر والفاتيكان .

وقد استبشرنا خيراً بخلفه البابا الحالي بينـديكت السـادس عشـر آملين أن يسـير على نهج سلفه من أجل مزيد من التعـاون ودعم الحـوار والتفـاهم المشـترك لتحقيـق أمل البشرية في السلام والاستقرار.

ولكن العالم الإسلامي كله قد أصيب بصدمة بالغة لتصـريحات الحـبر الجليـل بابـا الفاتيكان الجديد، فهل يرى قداسته أن ما صدر عنـه من إسـاءة للإسـلام من شـأنه أن يدعم العلاقات الطيبة بين المسلمين والعالم الكاثوليكي ؟

لقد أحدثت كلمات البابا عن الإسلام جرحاً بالغاً في قلـوب المسـلمين ولن يلـتئم هذا الجرح إلا بعد فترة طويلة , وبعد اعتـذار واضح للمسـلمين الـذين يشـكلون خمس سكان العالم، وفضلاً عن ذلك فإن كلام البابا يبين أن ما اسـتقر في الفهم الغـربي عن

الإسلام يشوبه الكثير من سوء الفهم والأحكـام المسـبقة والمفـاهيم المغلوطة , ليس فقط في أوساط العامة , بل في أوساط المثقفين أيضـاً، وهـذا يعـني ضـرورة الحـوار لتصحيح الأفكار الخاطئة والقضاء على الأحكام المسبقة.

إن العالم اليوم أصبح يعيش في قرية كونية صغيرة، وإذا أردنـا أن نعيش معـا في سلام فلابد أن يسود الفهم المشترك والتقارب بين الأديان من أجل سـلام هـذا العـالم الذي هو عالمنا جميعاً , والأمر الذي لا ينبغي أن يغيب عن الأذهان، أنه لن يكون هنـاك سـلام في العـالم، إلا إذا كـان هنـاك سـلام بين الأديـان , ولن يكـون هنـاك سـلام بين الأديـان، إلا إذا كـان هنـاك حـوار حقيقي بين الأديـان ينأى بنفسـه عن الغمـز واللمـز والتقليل من شأن الآخرين والاستهانة بمقدساتهم .

* * *

ـ 3 ـ
"الفاتيكان" يكفر المسيحيين أيضًا

الأستاذ هاني لبيب

روز اليوسف 22/9/2006

إذا نظرنا لتاريخ العلاقات بين الغرب والإسلام ـ بوجه عام على مستوى العالم ـ لوجدناه تاريخًا طويلاً وصراعًا، فلم يكن تاريخ أخوة تربطهم أواصر ببعض أواصر المحبة والإخاء، رغم تكثيف العلاقات الثقافية بما فيها تبادل العلم ومقومات الحضارة وتوثيق العلاقات الاقتصادية، وإذا أعدنا قراءة تاريخ هذه العلاقات، لوجدنا أن المرجعية الأساسية لهذا الصراع الحربي والنزاع السياسي هي مرجعية سياسية تأخذ الإطار العام في شكل المرجعية الدينية، مما أثر في بعض مراحل النقاش العلمي والجدل الديني بين المسيحيين والمسلمين، محولاً الاتجاه العام للعلاقة إلى ميدان للتهجم من كل طرف على الطرف الثاني، بالإضافة إلى دفع عقائده ومقومات إيمانه والحكم عليها بالضلال والعبث الديني، وهو ما جعل العديد من المسلمين ينظرون إلى الغرب نظرة توجس وريبة تختلط في أحيان كثيرة مع المسيحية كدين من جانب، ومع ربط افتراضي بين أقباط مصر ومسيحي الغرب، على اعتبار أن المسيحية هي عامل مشترك بينهما من جانب آخر.

تذكرت ما سبق، بعد أن قرأت التصريحات التالية : "إن الله في العقيدة الإسلامية مطلق السمو ومشيئته ليست مرتبطة بأي من مقولاتنا ولا حتى بالعقل" إنها كلمات البابا بنديكتوس السادس عشر خلال زيارته إلى ألمانيا في الأيام القليلة الماضية، كما أضاف أيضًا مقطعًا من حوار دار في القرن الرابع عشر حيث يقول فيه الإمبراطور البيزنطي لعالم فارسي : "أرني ما لجديد الذي جاء محمد، لن تجد إلا أشياء شريرة وغير إنسانية مثل أمره بنشر الدين الذي كان يبشر به بحد السيف".

والطريف، أن البابا ــ كما يؤكد البعض ــ أراد على ما يبدو أن يقوم بوضع شروط للحوار مع المسلمين قبل أن يقوم بزيارة تركيا في نهاية شهر نوفمبر القادم ومن المعروف عن البابا بنديكتوس السادس عشر أنه كان واحدًا من أشد المعارضين لانضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي قبل أن يتولى منصب البابوية حينما كان اسمه الكاردينال جوزيف راتزنجر.

في الحقيقة، لم أتعجب كثيرًا للتصريحات التي ذكرها بابا الفاتيكان، خاصة أنــني كثيرًا ما إرتبت في مسألة الحوار المزعوم بين الأديان، وموقفهم من الإسـلام والأزهـر الشريف من جانب آخر.

ويمكن أن نرصد هنا بعض المتناقضات التي تصـل لحـد التبـاين في التصـريحات لقادة الفاتيكان ومؤسساته، وعلى سبيل المثال :

- تحت عنوان : " الحضور المسيحي في الشرق " شهادة ورسالة"، قدم بطاركة الشرق الكاثوليك إلى مؤمنيهم في شتى أماكن وجودهم بمناسبة عيد الفصح سنة 1992 رسالة رعوية مشتركة، أكدوا فيها : "إن الحوار ينقلنا من الاستعباد إلى الاستيعاب، ومن الرفض إلى القبول، ومن التصنيف إلى التفاهم، ومن التشويه إلى الاحترام، ومن الإدانة إلى التسامح ومن العداوة إلى الألفة، ومن التنافس إلى التكامل، ومن التنافر إلى التلاقي، ومن الخصومة إلى الصداقة".
- ونتذكر هنا الخطاب الرسولي العاشر للبابا يوحنا بولس الثاني، والذي قدمه الكاردينال جوزيف راتزنجر "البابا بنديكتوس السادس عشر حاليًا" في الخامس من شهر أكتوبر عام 1993، وقد أكد فيه على أن "الحوار بين الديانات يشكل جزءًا من رسالة الكنيسة التبشيرية، فهو باعتباره طريقة ووسيلة لمعرفة وإغناء متبادلين، لا يتعارض مع الرسالة إلى الأمم، إنه بالعكس مرتبط بها بنوع خاص، وهو تعبير عنها، إن الخلاص يأتي من المسيح، وأن الحوار لا يعفي من التبشير بالإنجيل"، وهي رسالة لا تحتاج إلى تعليـق لما تحمله من دلالات سلبية، وهو ما يؤكد أهمية التمييز بين المسيحية الشرقية في الدول العربية وبين المسيحية الغربية في علاقاتهما بالإسلام.

كما نجد البابا يوحنا بولس الثاني في رسالة أخرى بعنوان "إعلان الرب يسوع في وحدانية الخلاص وشموليته في يسوع المسيح والكنيسة"، وقد صدرت من مقر مجمع العقيدة والإيمان الذي كان يرأسه الكاردينال جوزيف راتزنجر "البابا بنديكتوس السادس عشر" في 6 أغسطس سنة 2000، حيث يؤكد فيها على "من جهة، على الرغم من الانقسامات بين المسيحيين، تتابع كنيسة المسيح وجودها بالملء في الكنيسة الكاثوليكية الوحيدة، ومن جهة أخرى، أنه توجد عناصر متعددة من التقديس

والحق لازالت قائمة خارج بنياتها"، أي في الكنائس والجامعات الكنسية التي ليست بعد في شراكة كاملة مع الكنيسة الكاثوليكية، وعلينا أن نؤكد في شأن هذه الأخيرة أن قواتها مستمدة من ملء النعمة والحقيقة التي استودعها الله الكنيسة الكاثوليكية".

ويزيد في الشرح : "إن هناك وجودًا وحيدًا للكنيسة الحقيقية، بينما لا يوجد خارج مجموعاتها المرئية إلا عناصر كنسية، وبما أنها عناصر من الكنيسة نفسها، فهي تتوق وتعود إلى الكنيسة الكاثوليكية"، ويضيف "فبالنسبة إلى الدين الصحيح، أكد آباء المجمع الفاتيكاني الثاني أننا نؤمن بأن الديانة الوحيدة الصحيحة قائمة في الكنيسة الكاثوليكية الرسولية التي أوكل الرب يسوع إليها مهمة أن تعرف العالم أجمع بهذه الديانة".

ومما سبق يتضح موقف الفاتيكان من الطوائف المسيحية غير الكاثوليكية، والتي أطلق عليها "عناصر كنسية"، فما الحال ــ إذن ــ مع النصوص السابقة التي تحمل العديد من الدلالات و ــ أيضًا ــ من التداعيات حول الدين الصحيح والأديان الباطلة أو الكاذبة فيما يبدو.

إن ما سبق، يؤكد على أن للفاتيكان وباباواته تاريخًا حافلاً ونصوصًا تؤكد على عكس ما يتم الترويج له من حوار الأديان وخلافه، وعلى الرغم مما يروج لـه الفاتيكان من أن الحوار المراد تحقيقه، هو حوار الحياة المشتركة والمصير الواحد، بعيدًا عن شبهة الأهداف السياسية للدول العظمى في سبيل تحقيق المصالح الخاصة لها من خلال الحوار الديني مثلما حدث في الاجتماع السنوي للجنة المشتركة بين الأزهر الشريف والمجلس البابوي "بالفاتيكان" للحوار بين الأديان بمقر مشيخة الأزهر بالقاهرة في شهر مارس سنة 2001 من مشادات حامية بين أعضاء الوفدين حسبما ذكرت صحيفة "القاهرة" في 6 مارس 2001، حيث أصر وفد الفاتيكان على عدم إصدار أي بيان يدين الممارسات الإسرائيلية ضد الفلسطينية بحجة عدم التدخل في السياسة، وبعد مشاحنات عديدة صدر من اللجنة المشتركة بيان هزيل يأسف لوقوع ضحايا من السكان الآمنين ويدين العنف والتدنيس الذي من شأنه تعريض الأماكن المقدسة للخطر دون تحديد أي سكان، ودون ذكر من الذي يدنس أو يصدر منه العنف.

وهو ما يعد مخالفًا لنصوص وثيقة الاتفاق التي تم التوقيع عليها في شهر مايو سنة 1998 بالقاهرة بين الأزهر والفاتيكان، والتي تنص على العمل على مساندة "المظلوم" أيًا كانت ديانته، كما تنص الوثيقة على أنه لا حوار في الدين أو العقائد، وأن الحوار يدور حول المساحات المشتركة، كذلك تشكيل لجنة مشتركة ودائمة للحوار تضم خمسة أعضاء من كل جانب، وتجتمع بصفة دورية مرتين كل عام في القاهرة والفاتيكان بالتناوب، ومن هذا المنطلق اصبح هناك لجنة دائمة للحوار بين الأديان بالأزهر الشريف.

والسؤال الآن : ما موقف هذه اللجنة المشتركة الآن بعد التصريحات العدائية والعنصرية المباشـــرة لبابا الفاتيكان، في حالة إذا ما كان أو مازال لها دور ؟!

أضف إلى ما سبق، أن هناك العديد من التصريحات التي تعمل على وجود نوع من البلبلة غير المبررة وغير المفهومة، وذلك على غرار ما أعلنه الكاردينال اسطفانوس الثاني "بطريرك الأقباط الكاثوليك حينذاك" بأن هناك اختلافًا بين الكنسيتين المصريتين "الأرثوذكسية والكاثوليكية" حول التعامل مع قضية القدس، فالأولى : ترفض الزيارة وتعتبرها تطبيعًا، أما الثانية : فهي تفصل بين السياسة والدين، ولا تعتبر الكنيسة الكاثوليكية الزيارة تطبيعًا لأنها ليست زيارة لليهود، وإنما زيارة للأماكن والمقدسات المسيحية، وحول ما تردد عن مجاملة الفاتيكان لليهود بنفي الإساءة للسيد المسيح، أكد البطريرك المصري السابق أن الفاتيكان لا يجامل اليهود، وقد كان المقصود بهذا الأمر تبرئة اليهود الحاليين من هذه التهمة "وهم لهم أخطاء أخرى" بحيث لا يتحملون "وفقًا للعقيدة المسيحية" أخطاء اليهود القدامى الذين أساءوا للسيد المسيح فعلاً وأهدروا دمه "صحيفة الشرق 2 مارس 2001"، وهما موقفان يحتاجان إلى مراجعة فكرية وسياسية في اعتقادي.

وفي ظني أنه على الرغم من التأكيد المستمر على محلية الكنيسة الكاثوليكية وعلى هويتها الخاصة في مصر، فإنها لا تؤكد على ذلك بقوة في القضايا الوطنية والسياسية، وذلك على غرار التصريحات السابقة، أو على غرار التصريحات ما حدث منذ عدة سنوات، إذ أصدرت الكنيسة الكاثوليكية في مصر بيانًا رسميًا يدين المحاولات الأمريكية لحماية أقباط مصر وتدويل همومهم، بعد ما يزيد على عام كامل من تاريخ إصدار أول بيان وتصريح رسمي للكنيسة القبطية في هذا الصدد.

إن ما سبق، يضع الكنيسة الكاثوليكية في مصر في مأزق توضيح ما تعنيه بالمرجعية الروحية الغربية مثل "الكنيسة الكاثوليكية والفاتيكان"، وماذا يمكن أن يحدث لو اختلف الموقف الوطني مع موقف الرئاسة الدينية الغربية لهذه الكنيسة أو ذاك من حيث إلزامه أو عدمه !! وربما يكون الموقف الآن بعد تصريحات البابا بنديكتوس السادس عشر الأخيرة نموذجًا لتلك الأزمــة التي تمثل في ظني مأزق المطرقة والسندان، مطرقة المرجعية الدينية الغربية المتمثلة في تصريحات رأس الكنيسة الكاثوليكية من جانب، وسندان الانتماء الوطني وقضية مواجهة التطاول على الدين الإسلامي من جانب آخر.

ونذكر أنه إذا كان الدين هو عقيدة راسخة في كيان الإنسان ولا إكراه عليه، بمعنى أنه لا إجبار لأحد على قول أو فعل لا يريده عن طريق التخويف أو التعذيب أو ما يشبه ذلك، فإن الإكراه في الدين لا يأتي بمؤمنين صادقين بقدر ما يأتي بمنافقين وكذابين، كما أن الأديان لا تتقاتل فيما بينها رغم الاختلاف العقيدي أو التشريعي أو الطقسي، والدين لا يذهب إلى ميادين القتال، غير أن البشر المعتنقين لهذا الدين أو

ذاك هم الذين يتقاتلون، طبقًا لمصالحهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وبالتالي صارت للأديان في العلاقات والنزاعات الدولية أدوار وتوظيفات يختلف حجمها ونوعياتها حسب كل مرحلة تاريخية.

بقي أن نؤكد على أهمية عدم الانسياق وراء بعض الأخطاء الشائعة التي تغذي ذاكراتنا التاريخية بتصورات مربكة ترسم في أذهاننا إطارًا مشوشًا للعلاقات بين الإسلام والغرب لكي لا يقوم من يدعي أن هناك علاقة بين مسيحيي الغرب وأقباط مصر، وعلى سبيل المثال :

- الاعتقاد بأن الغرب يعني "المسيحية الغربي"، وهو طرح غير دقيق إلى حد ما، لأن واقع المسيحية كدين يؤكد أنها في انحسار داخل المجتمعات الغربية، أما المسيحية المقترنة بسياسة الغرب، أي التي تحكمها السياسة، فهي تسير وفق المصالح والأهداف الخاصة.
- الاعتقاد بأن الإسلام يعني العرب رغم أن الإسلام أكبر بكثير من العرب وحدودهم الجغرافية، فهو يمتد من أندونيسيا في الشرق إلى المغرب في الغرب.
- تجاهل المسيحية العربية في علاقة الدول العربية بالغرب، وتجاهل الدور الذي يمكن أن تلعبه، بالإضافة إلى الترويج للقدس كقضية أرض ومقدسات إسلامية فقط دون الإشارة إلى المقدسات المسيحية في القدس "رغم أن المقدسات المسيحية تفوق من حيث العدد المقدسات الإسلامية"، فأهمية المقدسات لا تتجزأ سواء كانت مسيحية أو إسلامية.

* * *

ـ 4 ـ
آفاق الحوارات
المسيحية ـ المسيحية والإسلامية ـ المسيحية

الأستاذ سمير مرقص

الأهرام 24/9/2006م

استعرض الأستاذ سمير مرقص العضو المؤسس بالفريق العربي للحوار الإسلامي المسيحي نشأه وفكرة الحوار المسيحي ــ المسيحي، فقال : بدأت الحوارات المسيحية ـ المسيحية في العشرينيات من القرن الماضي، وذلك من خلال حركة تعرف بحركة الإيمان والنظام، والتي عقدت مؤتمرها الأول في لوزان عام 1927 حضره ما يقرب من 400 شخص يمثلون كنائس من الأرثوذكس والإنجليكان

(كنيسة إنجلترا) واللوثريين (إحدى الكنائس البروتستانتية الرئيسة)، وخلال هذه الفترة تعددت الحوارات مثل حوار الإنجليكان والكاثوليك (1921ــ1926) والإنجليكان والأرثوذكس الخلقيدونيين (منذ عام 1930)، واللوثريين والمصلحين (إحدى الكنائس البروتستانتية) (منذ عام 1974).

وفي عام 1948 صارت حركة الإيمان والنظام جزءًا من مجلس الكنائس العالمي، حيث عرفت باسم لجنة النظام والإيمان وضمت جميع الكنائس في عضويتها ما عدا الكنيسة الكاثوليكية التي لم تنضم إلا في عام 1968 إلى هذه اللجنة، ولكنها لم تنضم إلي عضوية المجلس ككل وقد اضطلعت الكنيسة القبطية بدور هام في هذه الحوارات منذ مطلع الستينيات وتحديدا في عام 1961 فيما عرف بمؤتمر رودس حيث توالت اللقاءات والمؤتمرات بعد ذلك.

ويمكن القول إن هذه الجهود الحوارية كانت تتم من خلال اللقاء المباشر بين الكنائس المعينة أو من خلال آليات تم تكوينها مثل مجلس كنائس الشرق الأوسط، وهو مجلس إقليمي، تأسس عام 1974 ويضم على عكس مجلس الكنائس العالمي كل العائلات الكنسية بما فيها الكنيسة الكاثوليكية العامة في المنطقة، ويمكن إجمال الهدف الرئيسي من هذه الحوارات في السعي نحو تحقيق الوحدة المسيحية بين الكنائس، مما ينعكس إيجابًا على الواقع الذي تعيش فيه هذه الكنائس، وقد مورست الحوارات من خلال نوعين أساسيين هما : الحوار اللاهوتي وحوار العمل المشترك؛ حيث يعني الأول بالقضايا اللاهوتية المختلف عليها بين المشاركين (على مستوى ثنائي أو متعدد)، ويعني الثاني بتكوين رؤى مشتركة حول القضايا الحياتية المتنوعة والاتفاق على برامج عملية مشتركة تخدم الجميع، لم تكن مسيرة الحوارات المسيحية ــ المسيحية يسيرة حيث تعرضت لانتكاسات نجحت في تجاوزها من خلال التمسك بالحوار كقيمة وأن البديل للحوار يعني القطيعة، بيد أن هذا لا يمنع من الحوارات تتسم بالمصارحة الكاملة، ورصد الفروق الجوهرية بين الكنائس، وأن الاتفاق النهائي، والصيغ المشتركة التي يتم الوصول إليها لا تكون علي حساب العقيدة، وعليه تعددت اللقاءات وتنوعت أطرافها.

إن الحوار الإسلامي المسيحي ــ تاريخيًا ــ في الأغلب الأعم حوار غير لين، سرعان ما دخل في طور صراعي إبان حملات الفرنجة للمنطقة، والمرحلة الاستعمارية، بعد ذلك ولم يظهر مفهوم الحوار بالمعني الذي طرحناه في المقدمة إلا بعد أن ظهرت الحاجة داخل المسيحية الغربية المتعددة المذاهب إلى الحوار، وفي نفس الوقت بدا أن هناك ضرورة تحت ضغط المتغيرات الدولية واعتبارات أخري لا يسمح المقام بذكرها تبني الحوار لم تلق هذه الرغبة الغربية في الحوار قبولا من قبلنا حيث صورة الغرب الاستعماري كانت ماثلة في الأذهان للمسلمين ولمسيحيي الشرق علي حد سواء، ولكن مع مرور الوقت بدأ قبول دعاوى الحوار، وإن كانت باستجابات

متفاوتة، وعندما بدأت دول المنطقة تعرف طريقها للاستقلال السياسـي وعـودة بعض من التوازن بيننا وبين المنظومة الغربية، والانتشار المتزايـد للتعـدد الـديني والمـذهبي في المجتمعات الغربية بات الحوار حاجة ضرورية، والاقتناع من جانبنا أن الحـوار ربمـا يكون قادرًا علي إصلاح ما تفسده الصراعات، في هذا السياق بدأ الحوار المسـيحي ــ الإسلامي عقائديا في البداية، ولكنه سرعان ما تطـور نحـو الاهتمـام بالقضـايا الحياتيـة للناس مثل : العدل الاجتماعي، والفقر، وحقوق الإنسان، والحريـة،.. الخ، بـالطبع كـان كل طرف يستلهم من دينه ما يدعم هذه القيم، كذلك بدأ الحوار من خلال المؤسسات الرسمية إلا أنه مع الـوقت اتسـعت بيئاتـه الحـوار لتشـمل أناسـا مهتمين ومؤسسـات مدنية، وتكونت أيضًا مراكز بحثية تعمل في هذا الاتجاه.

وتعددت أنواع الحوار التي نرصدها في سبعة أنـواع (ثلاثـة منهـا رصـدها الراحـل وليم سليمان قلادة في كتابه العمدة الحوار بين الأديان ــ 1979ــ، وأربعة أضفناها في كتابنا الآخر الحوار(المواطنة 2005) وذلـك علي الـترتيب كمـا يلي : الحـوار الموجـه، الحوار المجرد، الحوار من خلال الحياة المشتركة، الحوار الـدعوى، الحـوار السـجالي، الحوار المسكوني أو الاحتفالي، الحوار الثقافي، ويشار هنا إلى أن الحالة المصـرية لم تعرف سوي نوعين ــ تاريخيًا ــ حوار الحياة المشـتركة الـتي اختبرتهـا بحلوهـا ومرهـا، والحوار السجالي الذي يبرز في لحظات التأزم بيـد أن مصـر قـد اختـبرت في العقـود الثلاثة الأخيرة الحوار الثقافي كرد علي أحداث العنـف الـديني حيث بـدأ البعض حـول الإشكاليات التي تمس المسلمين والمسيحيين بسبب الانتماء الديني وهو الحوار الـذي أطلق عليه " الحوار علي قاعدة المواطنة".

بـالطبع تعرضـت مسـيرة الحـوار المسـيحي ـــ الإسـلامي وتتعـرض لكثـير من التحديات بفعل الأحداث السياسية التي تشهدها المنطقة من جانب، والعالم من جانب آخر، ولشطحات البعض من جـانب ثـالث، وللتـوترات الدينيـة الصـلبة والناعمـة ـــ من جانب رابع، وللانتقادات التي دائما توجـه حـول نخبويـة الحـوار بيـد أن التأكيـد علي أن الحوار بمضمونه الفلسفي الذي قـدمنا بـه موضـوعنا إنمـا يمثـل في ذاتـه أهميـة علي التمسـك بـالحوار كآليـة قـادرة على إعمـال العقـل والوصـول إلي حلـول ناجعـة وقت الأزمات وفي مواجهة مـا أسـلفنا من تحـديات، كـذلك تلافي الانتقـادات الـتي يواجههـا الحوار ودفع المجتمع المدني إلى تأسيس منتـديات حواريـة ذات طـابع مـدني قاعـدي حيث تجعل من الحوار أداة للتلاقي والتفاعـل والانـدماج بين المسـلمين والمسـيحيين، ذلك لان الحديث المشترك بينهم سيكون حول قضـايا تشـغلهم معـا، وهمـوم مشـتركة تمثل معاناة لا تفرق كما أن البرامج المشتركة الـتي سـتنتج عن هـذا الحـديث سـتدفع نحـو التماسـك والوحـدة في مواجهـة مـا أسـميه "فـيروس التفكيـك" الـذي تشـهده المنطقة، إن التمسك بـالحوار وإشـاعته ليصـير ثقافـة سـائدة من جهـة، واليـة جامعـة للنـاس من جهـة أخـرى، هـو السـبيل لمواجهـة دعـاة توظيـف الـدين في الصـراعات السياسية، وجعله عنوانًا للمحطات لتحويل النظر عن الأهداف الحقيقية.

* * *

ـ 5 ـ
العقيدة والعقل.. وبابا الفاتيكان

د. أحمد الطيب

الأهرام 24/9/2006م

ما أكتبه هنا إنما يعبر عن رأيي الشخصي كمسلم قضي نصف قرن من عمره في الأزهر الشريف يتعلم الإسلام ويعلمه، ويفخر بانتسابه إلى دين منفتح علي الآخرين، يحاورهم ويحترم عقائدهم ومقدساتهم، وقد تعلمت من القرآن الكريم، ومنذ كنت صبيا في كتاب القرية، أن يكون جدلي مع أصحاب الديانات جدلا حسناَ، وألا ينقلب الحوار إلي إساءة للأديان والمعتقدات، لا من قريب ولا من بعيد، ونظرت في تاريخ حضارة الإسلام فوجدت هذا المبدأ القرآني متجذرًا في أعمق أعماقها، وهي تتعامل مع أصحاب الحضارات الأخري تأثيرا وتأثرًا، وأضرب لذلك مثلا واحدا فقط " الحروب الصليبية " تلك التي أشعل نارها البابا "أربان" الثاني، بخطبه ومواعظه في جنوب فرنسا، واستطاع أن يقنع المسيحيين بأن الله يريد هذه الحرب، وسار بجيوشه الجرارة تحت لافتة "الصليب" واستولي على بلاد المسلمين ردحًا من الزمن، وقد دفع المسلمون ثمنًا فادحًا من دمائهم وأوطانهم قبل أن يدحروا هذه الحملة ويردوها على أعقابها، ولم يحدثنا التاريخ بأن مؤرخًا مسلمًا واحدًا فتح فمه بكلمة تسئ إلى المسيحية كدين أو إلى السيد المسيح عليه السلام، ولم يجرؤ المؤرخون المسلمون حتى على نسبة هذه الحروب إلى " الصليب" وكانوا يسمونها في كتبهم "حروب الفرنجة"، وقد اتضح أن مصطلح "الحروب الصليبية" هو مصطلح مصكوك في أدبيات "حضارة الغرب" وثقافته، مما يدل على أن المسلمين كانوا على وعي عجيب بالفرق الهائل بين المسيحية كدين رحمة وسلام، وبين صناعة الحروب وفن اختطاف الأديان للمتاجرة بها في سوق السياسات والصراعات.

أقول ذلك بسبب ما جاء في محاضرة قداسة بابا الفاتيكان من اقتباسات واستشهادات أساءت إلى دين كبير يزيد أتباعه على عدد كاثوليك العالم أجمع كما تؤكد الإحصاءات الحديثة، وليس من همي هنا أن أتحدث عن موقف قداسة البابا من هذه الاقتباسات، أو أبحث عن البواعث التي أنطقت قداسته بمثل هذه العبارات الجارحة وما الرسالة التي أراد أن يبعث بها إلى جمهوره ورعيته وهو يحاضرهم في مكان مفتوح يسمعه العالم كله، وما هو انطباعهم عن الإسلام والمسلمين بعد ما سمعوا موعظته، وهم يعلمون أن قداسته معصوم من الخطأ، وأن "روح القدس" هو الذي يتحدث بلسانه، هل كانت محاضرة البابا تصب في النهاية في مصلحة

المحافظين الجدد، لا يهمني شئ من ذلك فهذه أمور متروكة لأصحابها ولا تعقيب عليها، ولكن من حقنا أن نعقب بأمرين :

الأول : ليس من حق قداسة بابا الفاتيكان أن يهز استقرار العالم، ويزعزع أمن الشعوب ويثير العدوات بين ملايين البشر حسبما يشاء ووقتما يريد، وإذا كان " قداسته " قد استقر في محاضرته على أن "التصرفات التي لا يحكمها العقل تتناقض مع جوهر الله"، فإن الإساءة إلى عقيدة المليار ونصف مليار إنسان هي تصرف يرفضه العقلاء، وبالتالي يتناقض مع جوهر الله !

الأمر الثاني : ما جاء في محاضرة قداسة البابا من استشهادات تتعلق بالإسلام ونبي الإسلام وليست ـ في أفضل أحوالها ـ إلا مغالطات وأكاذيب مفتراة، سواء كان مصدرها قياصرة القرون الوسطى أو المرددين لأكاذيبهم من أساتذة العصر الحديث، وأولى هذه المغالطات : تأويل الآية الكريمة "لا إكراه في الدين"، فرغم أن هذه الآية نص صريح قاطع على سماحة الإسلام وأخذه بمبدأ حرية الاعتقاد، إلا أنها خضعت في محاضرة " البابا " لتأويل مناقض للعالم والتاريخ، انتهى إلى أن هذه الآية لا تدل على تسامح الإسلام مع عقائد الآخرين، بل تدل على تسامح الضعيف العاجز الذي لا حيلة له مع من هو أقوى منه، والحجة التي يقدمها البروفيسور الكاثوليكي ـ الذي نقل عنه البابا ـ هي أن سورة البقرة التي جاءت فيها آية " لا إكراه في الدين " من السور الأولى المتقدمة أيام أن كان النبي ضعيفًا ومهددًا ولا سلطان له، مع أن سورة البقرة سورة مدنية نزلت بالمدينة، ولم تكون من سور العهد المكي الذي يمثل ضعف المسلمين وقلة حيلتهم والعهد المدني هو عهد كان المسلمون فيه يقاومون الوثنية والشرك ويتصدون لاعتداءات المشركين، ويقاتلونهم وينتصرون عليهم.. ويبدو أن البروفيسور الذي استند إليه " البابا " لا يطيق الصبر على تنظير الحقائق العلمية ومقارنتها بالظروف التاريخية، وإلا فكيف يستقيم الزعم بأن سورة "البقرة" تعكس عهد الضعف بالنسبة لنبي الإسلام، وتشتمل في الوقت ذاته على تنظيم المجتمع وترتيب قوانينه وتحريم الرياء والصيام وتنظيم الأسرة وتبين لوائح القتال مع المعتدين، وكيفية الدفاع عن الدولة والمجتمع هل هذه الصورة تمثل عهد ضعف واستكانة ؟! وأين هذا العقل الذي يمكن أن تستقيم فيه هذه النقائض ؟ !

المغالطة الثانية، تقول : أن الإسلام عدو للعقل وجوابي.. أن "العقل" في فلسفة الإسلام هو " الأساس " الذي يعتمد عليه القرآن في خطاب الناس، ويعول عليه تعويلاً تاما في فهم أمور التشريع، ومنزلة العقل في القرآن يعرفها الصبيان في كتاتيب القرى والنجوع، لأن تلاوة القرآن تثبت هذا المعنى في بساطة ووضوح، وبصورة ينفرد بها القرآن عن سائر الكتب السماوية الموجودة بأيدينا، وإذا كنا نجد في الكتب السماوية ما يشير إلى شأن العقل صراحة أو ضمنا فإن فيها ما يمكن فهمه على أنه زراية بالعقل وحط من شأنه، بل فيها أيضا ما يفهم منه التحذير من العقل، وإن

حيائي ليمنعني من أن استرسل في هذه المقارنة، ولكن يكفي أن أقول : إن مواد العقل والفكر والنظر والفقه بمشتقاتها وردت في قرآن المسلمين أكثر من 120 مرة في نصوص صريحة تدعو الناس إلى استخدام العقل بكل وظائفه وقواه سواء في العلم بالله تعالى أو العلم بالكون والإنسان، وربما كان القرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يجد فيه القارئ تفرقة ـ مدهشة ــ بين مرتبة العلم والحق من جانب، ومراتب الشك والظن من جانب آخر، وأعتقد أن قداسة البابا ـ وهو في طليعة علماء الفلسفة واللاهوت ـ يعلم جيدا أن الإيمان بالله تعالى وبصفاته العليا ـ عند المسلمين ـ يبني على دليل عقلي لا على تسليم وتلقين، وأن وجه دلالة الخوارق والمعجزات على صدق الأنبياء هو العقل وليس الإيمان.. وأن القاعدة التي ترتكز عليها علوم العقيدة في الإسلام تقرر أنه " إذا تعارض الشرع والعقل، قدم العقل وأُوِّل الشرع " ويعلم قداسة البابا أن الفلاسفة والمتكلمين المسلمين بذلوا في هذا الميدان جهودا علمية جبارة، وتركوا من ورائهم تراثًا عقليًا مازال ينتزع إعجاب أساتذة الغرب ومفكريه حتى لحظة كتابة هذه السطور.

* * *

ـ 6 ـ
بين الاختلاف والعنصرية

للدكتور رفيق حبيب

جريدة الأسبوع 2/10/2006م، ص 20

فتحت محاضرة بابا الكنيسة الكاثوليكية ملفًا شائكًا يدور حول العلاقة بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية يدور في الواقع بين المنتمين لهذه الحضارات. وموقف بابا روما هو موقف حضاري ديني، ولكن الجانب الحضاري فيه واضح وبيِّن، فقد رأي تفوق الفكر الإغريقي على غيره من الحضارات حيث أكد أن التزاوج بين الفكر الإغريقي والدين المسيحي هو الذي حقق التوازن بين العقل والإيمان، وعليه رأى البابا أن الإسلام لا يوازن بين العقل والإيمان، وأن المسيحية الشرقية أي مسيحية العالم العربي وهي مسيحية الموطن الأصلي للمسيحية لا توازن بين العقل والإيمان، كما رأى أن حركة الإصلاح الديني والتي حاولت نزع الطابع الإغريقي عن المسيحية بالعودة للأصول الأولى للمسيحية والمتمثلة في الكتاب المقدس، رأى أنها تفرق بين العقل والإيمان في المسيحية.

خلاصة القول إن البابا يرى تفوق المسيحية الغربية العقلانية على غيرها من المذاهب المسيحية وعلى غيرها من الأديان، بل وعلى غيرها من المذاهب المسيحية الغربية والتي رأى أنها لا تنتمي للمذهب العقلاني، وتلك في الواقع نظرة حضارية

متحيزة، بل نقول عنصرية حضارية وهي موقف حضاري أكثر من كونها موقفًا دينيًا، فالبابا رأى أن للفكر الإغريقي فضلاً على المسيحية بأن أدخل العقل على الإيمان المسيحي، وبها اكتمل الإيمان الإنجيلي في تصوره، هذا الموقف يعيدنا إلى قصة العداء بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، وهي قصة ممتدة عبر التاريخ ولا ترتبط بتواريخ معينة، وليست نتاج 11 سبتمبر 2001، ولا نتاج حادثة معينة، بل هي قصة مرتبطة بالتاريخ الطويل من العلاقات بين الغرب والمنطقة العربية والإسلامية، والواقع التاريخي يؤكد وجود اختلاف واضح بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، وذلك الاختلاف ليس محصورًا في هاتين الحضارتين بل يمتد لمختلف حضارات العالم، فالشرق الآسيوي مثلاً له حضارته المتميزة التي تختلف كثيرًا عن الحضارة الغربية والحضارة العربية ولإسلامية سواء في نموذجها الصيني أو الياباني، والاختلاف والتنوع الحضاري هو قانون التاريخ البشري منذ فجر البشرية، ولا يمكن التغاضي عنه أو تجاوزه، فالشعوب والأمم تختلف في تراثها الحضاري سواء الديني أو الاجتماعي أو الثقافي، وكل التاريخ شاهد على ذلك والمشكلة إذن ليست في الاختلاف والتنوع الحضاري، ولكن المشكلة تنبع من الكيفية التي يوظف بها هذا الاختلاف، فلا نتصور من الإنسان الغربي أن يكون منتميًا للحضارة العربية أو الإسلامية، ولا أن يكون منتميًا للحضارات الشرقية عمومًا، ومثله في ذلك مثل الإنسان العربي أو الإسلامي والذي لا ينتمي للحضارة الغربية واختلاف الانتماء الحضاري يؤدي إلى اختلافات في البنية الفكرية والثقافية للشعوب واختلافات في المفاهيم والأفكار.

ومن الطبيعي أن نتوقع من الإنسان الغربي أن يكون منتميًا لحضارته وأن يكون معتزًا بأفكارها، وعليه نتوقع من الإنسان الغربي إيمانًا بالحضارة الغربية وفكرها سواء في تياراتها العلمانية أو المسيحية المختلفة، فداخل كل حضارة تنوع أيضًا في التيارات والأفكار ولكنها جميعًا تصب في إطار حضاري واحد، يعبر عن بنيتها الثقافية الأساسية وانتماء الفرد لحضارته يؤدي إلى رؤيته لصواب هذه الحضارة عن غيرها من الحضارات، فالإنسان الغربي يعتنق الأفكار والمسلمات الأساسية لحضارته ولا يؤمن بغيرها من الأفكار والمسلمات.

وفي المسيحية مثلاً نجد أن مسيحية العالم القديم أو المسيحية المصرية والعربية لها فكرها الديني المتميز، ولهذا يختلف الفكر المسيحي المصري والعربي عن الفكر المسيحي الغربي، ثم هناك اختلاف بين المسيحية والإسلام حتى في سياق حضارة واحدة وهي الحضارة العربية والإسلامية، وبالتالي هناك بين الفكر الإسلامي والمسيحية الغربية اختلاف في الحضارة والدين معًا.

ونتوقع أن يؤمن بابا روما وغيره من رجال المسيحية في الغرب بالفكر المسيحي، ولكن محاضرته **قدمت موقفًا من الأديان والحضارات الأخرى يرى ضمنًا أنها تخالف طبيعة الله، أي أن الفكر المسيحي غير الغربي والفكر**

الإسلامي يخالفان طبيعة الله، وهنا نـأتي للنزعـة العنصـرية، والمقصـود هنـــا أن الاختلاف لا يمثـــل مشـــكلة، ولكن تحويـــل الاختلاف لموقـــف استعلائي يقلل من شأن الآخرين يؤدي إلى رؤية تقوم على تفوق جنس على الأجناس الأخـرى، وتلـك الرؤيـة تـؤدي في الكثـير من الأحيـان إلى القول إن الشعوب الأقل شأنًا هي مجال للهيمنة والاستعمار، سواء لأنها لا تسـتحق مـا تملـك من ثـروات أو لأنهـا تقـوم بـدور سـلبي في تـاريخ البشـــرية، أو لأنـــه يجب تغييرهـــا بـــالقوة لـــترتفع لمســـتوى الشـــعوب المتقدمة.

وكل استعمار تعرضت له المنطقة العربية والإسلامية قام على مقولات متشـابهة تؤكـد تخلـف شـعوب هـذه المنطقـة وتخلـف حضـارتها وعقائـدها، وتؤكـد على رسـالة الإنسان الغـربي السـامية لتغيـير العـالم وحكمـه لأنـه الإنسـان المتقـدم، وتؤكـد أيضًـا استحلال موارد الشعوب المتخلفة، ومنذ الحروب الصليبية والاستعمار التقليدي وحـتى الاستعمار الحديث مرورًا بالاستعمار الصهيوني، ونحن نواجه نظـرة عنصـرية تـرى أننـا شعوبًا متخلفة يستحلها الغرب، ويحاول أن يهيمن عليها ويحتلها.

الاختلاف إذن موجود ونحن أيضًا نختلف عن الغـرب، ولكن المشـكلة في تحويـل الاختلاف إلى منهج فكـري عنصـري، يمثـل الغطـاء الأساسـي للحـروب والاسـتعمار والهيمنة، وتلك هي لقضية الأساسية في محاضرة البابا، فهي تمثل غطاءً دينيًا للهيمنـة على المنطقة العربية والإسلامية ولحـروب الإدارة الأمريكيـة على المنطقـة، ومن هنـا توظـف الرؤيـة الحضـارية الدينيـة في عمليـة حربيـة منظمـة على المنطقـة، بـدعوى تخلفها، سـواء تخلف الفكر الإسلامي أو المسيحي، أي تخلف حضارتها.

* * *

ـ 7 ـ

وجهات نظر قبطية

إساءة بابا الفاتيكان إلى الإسلام... جهل !

روز اليوسف 22/9/2006

أحمد باشا

في هذه الفترة الحرجة التي تحول فيها الإسلام إلى «لوحة تنشين» وأصبح يساء فهمه كما لم يحدث من قبل وإلصاق الصفات السلبية بالدين الحنيف، كان من المؤسف أن السهم المسموم الجديد جاء على لسان أبرز شخصية دينية عالمية، وأكثرها ثقلا.. بابا الفاتيكان «بنديكتوس» «السادس عشر» - الذي يبدو أنه حاول إرضاء اليمين الأمريكي و«مجاملته» في الذكرى السنوية الخامسة لأحداث 11 سبتمبر، فلم يجد سوى الإسلام لتقديمه «قربانا» !

تصريحات البابا أثارت ردود فعل غاضبة بين المسلمين في أنحاء الكرة الأرضية لثقله ومكانته الدينية الرفيعة خاصة أنها جاءت على غير توقع، فلم يسبق للبابا الذي جعل من الحوار بين الأديان إحدى أولويات بابويته، أن تطرق علنا وبهذا الوضوح إلى الإسلام منتقدا فكرة «الجهاد» في الإسلام و«اعتناق الدين مرورا بالعنف» خلال حديث إلى أساتذة جامعيين وطلاب في جامعة «راتيسبون» جنوب ألمانيا.

المحاضرة مثار الجدل كانت تدور عن علاقة الإيمان والعقل وقال فيها: «إن الله في العقيدة الإسلامية مطلق السمو ومشيئته ليست مرتبطة بأي من مقولاتنا ولا حتى بالعقل»، وأقام البابا مقارنة بين الإسلام الذي لا يؤمن بالعقل في الإيمان، ويرى أن مشيئة الله مطلقة على عكس الديانة المسيحية المشبعة بالفلسفة الإغريقية !

وحاول بابا الفاتيكان أن يوثق وجهة نظره ذاكرا لمقطع من حوار دار في القرن الرابع عشر بين الإمبراطور البيزنطي «مانويل الثاني» مع مثقف فارسي فقال الإمبراطور له : «أرني ما الجديد الذي جاء به محمد، لن تجد إلا أشياء شريرة وغير إنسانية مثل أمره بنشر الدين الذي كان يبشر به بحد السيف» !

جاءت هذه الواقعة التي يستند إليها البابا في غير محلها وغير موفقة لأنها تؤذى مشاعر المسلمين وتسيء إلى الرسول الكريم والدين الحنيف، مهما حاول الفاتيكان التقليل من شأن هذه الواقعة كما جاء في رد الفعل الأول الصادر عن الفاتيكان الذي لم ينجح في امتصاص مشاعر غضب المسلمين، واكتفى بتصريح من الأب «فيدريكو لومبارتي» ـــ مدير مكتب الإعلام بالفاتيكان ـــ جاء فيه : «إن البابا لم يشأ إعطاء تفسير للإسلام يذهب في اتجاه العنف» !

حيث جاء رد الفعل دون مستوى الهجوم العنيف الذي قام به البابا غداة الذكرى السنوية الخامسة لأحداث 11 سبتمبر، وفيها خلع البابا الرداء الديني وأدلى بدلوه في السياسة إرضاء للأصوات اليمينية في أمريكا وأوروبا ذات التوجه المعادى للإسلام !

الأمر نفسه أثار انتقادات واسعة بين المسلمين المصريين والطوائف المسيحية على اختلافها التي رفضت تصريحات بابا الفاتيكان إلا أن الطائفة الكاثوليكية فى مصر وقفت حائرة بين عدم قدرة رؤسائها في مصر على انتقاد ومخالفة البابا، وبين استيعاب حجم الغضب، فاكتفى الأب «رفيق جريش» ـــ رئيس المركز الصحفي

للكنيسة الكاثوليكية ــ بالإشارة إلى أن البابا لم يقصد الإساءة للإسلام، وأن ما جاء في محاضرته عن العقل والإيمان كان وقائع للاستشهاد وتأكيد وجهة نظره، وأن الكلمات التي تمس الإسلام لم تكن على لسانه، ولكن وفق وقائع تاريخية تخدم فكرة أهمية استخدام العقل في الإيمان، وأن البابا لم يقل إن الإسلام دين حرب أو قام بحد السيف فلم يدن عقائد الإسلام بما فيها الجهاد !

رئيس المركز الصحفي للكنيسة الكاثوليكية في مصر لم يستطع أن يحدد موعدا لإصدار بيان عن الكنيسة يوضح فيه وجهة نظرها وموقفها من تصريحات البابا المسيئة للإسلام !

في السياق ذاته تشكك الأنبا «د. يوحنا قلتة» - النائب البطريركي للأقباط الكاثوليك - أن تصدر هذه التصريحات الجارحة عن «بنديكتوس» السادس عشر - بابا الفاتيكان ــ قائلاً : أغلب الظن أن هناك تحريفا مقصودا في ترجمة المحاضرة من خلال إعلام غربي صهيوني يهدف لتعميق الكراهية بين الأديان، وأن هناك تيارا فكريا صهيونيا يحاول أن ينشر ثقافة العداء والكراهية بين الإسلام والمسيحية، ولابد من الانتباه له، ويتساءل الأنبا يوحنا : كيف لبابا الفاتيكان أن يهاجم ثاني أكبر ديانة في العالم في الوقت الذي تزداد فيه، كما أن العلاقات المسيحية والإسلامية تقاربًا وعمقا للدفاع عن القيم الروحية في العالم ؟!

وفى إطار تفنيده لتصريحات بابا الفاتيكان التي انتقد فيها فريضة الجهاد عند المسلمين أوضح الأنبا «د.يوحنا قلتة» قائلا : لا يوجد جهاد في المسيحية إلا الجهاد الروحي، أما الحروب الصليبية وما تبعها من حروب دينية، فليس لها جذور في العقيدة المسيحية وإنما كانت لأهداف سياسية واقتصادية ومصالح شخصية باسم الدين، أما الجهاد في الإسلام فهو فريضة حسب الشريعة، ورغم أن بعض المسلمين المتطرفين يأخذونه على أنه الحرب ضد من هو غير مسلم مع أن الإسلام يعلن في وضوح أن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس وأن المسلم لا يحارب إلا من يعتدي عليه أو على دياره، فمفهوم الجهاد متقارب جدًا بين الإسلام والمسيحية، وهو جهاد روحي ضد الشهوات والغرائز، إلا أن المتعصبين من الطرفين يرون أنه جهاد ضد الآخر المختلف، وهذه مأساة الأديان وفق حكمة إسلامية تقول : «آفة الأديان المفسرون».

ويضيف نائب بطريرك الأقباط الكاثوليك : «إن ما ذكره البابا يتناقض مع قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني «1960ـ- 1964» والإعلان الرسمي المعروف حول الإسلام وجاء فيه «إن للمسلمين الاحترام والتقدير لأنهم يعبدون الله»، وتعجب الأنبا «يوحنا قلتة» من مقولة أن : «الله في العقيدة الإسلامية مطلق السمو والمشيئة، ولا يرتبط بالعقل» قائلاً : «وهل قيامة المسيح ومعجزاته يرتبط الإيمان بها بالعقل» ؟!

وعدد الأنبا «يوحنا قلتة» المظاهر التي تربط الفاتيكان بالإسلام بدءا من كون الفاتيكان أول من أنشأ حوارا بين الإسلام والمسيحية عام 1964 وشكل لجنة برئاسة

كاردينال بدرجة وزير للحوار مع الدول الإسلامية منها لجنـة للحـوار مع الأزهـر وأخـرى مع السعودية وشمال أفريقيا.

كما أن للفاتيكان معهدا باباويًا في روما يدرس اللغة العربيـة والثقافـة الإسـلامية، ويضم عـددًا من الطلبـة المسـلمين وأن أغلب الـدول الإسـلامية لهـا تمثيـل وعلاقـات دبلوماسية مع الفاتيكان.

الصدمة في تصـريحات البابـا دفعت القيـادات الكنسـية في الطوائـف المسـيحية الأخـرى لأن تسـتنكرها بشـدة، حيث أكـد القمص «صـليب مـتى سـاويرس» ـــ عضـو المجلس الملي العام للأقباط الأرثوذكس ــ قـائلا : «أسـتنكر بشـدة هـذه التصـريحات التي تسـيء إلى الـدين الإسـلامي والأديـان عمومـا، ومن الغـريب أن تخـرج هـذه التصريحات الخطيرة وغير المسئولة عن قيادة الكنيسـة الكاثوليكيـة والتي تتنـافى مـع تعاليم المسيحية التي تدعو للمحبة والحوار».

ويضيف : «نحن نرفض المساس بشخص الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - وكـذلك الرمـوز الدينيـة فالمسـيحية تحثنـا على احـترام وإجلال الـديانات السـماوية وأتباعها وأن نعيش في سلام».

وأوضح القمص «صليب متى ساويرس» : إنه لا يتناسب مع شخصية البابا الدينيـة الخوض في غمار السياسة وانتقاد الإسلام بهذا الأسلوب إرضاء لأطراف متطرفة، وأن حدود رجل الدين تنتهي عند دائرته الدينية ولا يجوز للبابا أو غيره أن يتدخل في شـئون ديانـة أخـرى لأن تجـاوز هـذه الخطـوط يحض على الكراهيـة والتعصب ويثـير الفتنـة الطائفية والقلاقل على مستوى العالم !

بشكل عاصف انتقد د. صفوت البياضي ــ رئيس الطائفـة الإنجيليـة ـــ تصـريحات بابا الفاتيكان قائلا : إننا نرفض مهاجمة الأديان، وما فعله البابـا افتئـات على حـق اللـه وتجاوز لكل الخطوط الحمراء، وهو أمر غير مقبول على الإطلاق !

ويضيف : «ما قاله البابا وراءه أهداف غير دينية، ومصالح سياسية وثقافيـة، لكنهـا قد تسبب في ردة تعود بنا للحـروب الدينية في الـوقت الذي يـدعو فيـه العـالم لحـوار الثقافات، فلسنا أوصياء على البشر أو على الديانات لأنــه ليس من الإيمــان أو الأخلاق مهاجمة الرموز الدينية وانتقادها بهذا الشكل» !

د. صفوت البياضي أبدى اسـتغرابه الشـديد واسـتهجانه لهجـوم البابـا على فكـرة الجهاد عند المسلمين قائلا : إذا كان الدفاع عن الأوطان أو الأعراض «جهـادا»، فكيـف ينتقده بابا الفاتيكان، فللمسـلم وغـيره الحـق في الجهـاد والـدفاع عن وطنـه وعرضـه واللــه يحاسـبنا إذا لم نقم بهـذا الـواجب، فالـدفاع عن الأوطـان والأعـراض ليس من المحرمات !

وانتقد رئيس الطائفة الإنجيلية بشدة التطاول على الرسول الكـريم قـائلاً : البابـا تدخل فيما لا يعنيه بجهل شديد، وفيما لا يفهم فيه، والأولى أن ينشغل بعقيدته، فكيـف يهاجم عقيدة ثلث سكان الأرض وثاني أكبر الديانات انتشارا على مستوى العالم ؟!

من جانبه وصف د. نبيل لوقا ببـاوى ــ المفكـر القبطي والحاصل على الـدكتوراه في الشريعة الإسلامية ــ بابـا الفاتيكـان بعـدم «الكياسـة» وقـال : إن تصـريحاته ليس وراءها غرض ديني أو رعوي، وإنمـا جـاءت مجاملـة لقـوى سياسـية خارجيـة وأغـراض دنيوية، وهو كلام غير مقبول يؤذى مشاعر مليار و300 مليون نسمة ــ عدد المسـلمين حـول العـالم ــ وفنـد المفكـر القبطي اتهامـات البابـا قـائلا : «الجهـاد في الإسـلام له رؤيتان، الأولى رؤية متعصبة لا يقرها الكتاب والسنة بأنه الفريضة الغائبـة، أمـا الرؤيـة الثانية ــ وهى الصـحيحة ــ أن الجهـاد هـو الـدفاع عن الأرض والمـال إذا وقـع اعتـداء عليهمـا، وهـو مـا يسـمى بالـدفاع الشـرعي، وهـو مـا يـؤمن بـه السـواد الأعظم من المسلمين».

عن فكرة انتشار الإسـلام بحد السـيف كمـا ادعى بابا الفاتيكـان أجـاب «ببـاوي» قائلا : المسلمون كـانوا يضـعون ثلاثـة خيـارات للبلاد التي يـدخلونها إمـا أن تـدخل في الإسلام أو تدفع الجزية، وأخيرًا القتال والبلاد التي كان يغزوها الإسلام كلها محتلــة من قبـل الـدولتين الرومانيـة والفارسـية، وفى الحـالتين كـان المسـيحيون أقليـة يعـانون الأمرين، ويضيف : إن المسيحيين المصـريين الأرثـوذكس تعرضـوا لمـذابح ضـخمة في عهد الإمبراطور هرقل عندما أصدر مرسوما بأن كل الولايات التابعة للدولـة الرومانيـة تتبع الملة الكاثوليكية وهو مـا رفضـه المسـيحيون الشـرقيون في مصـر وأصـروا على ملتهم الأرثوذكسـية حيث تم قتـل 110 آلاف مسـيحي وهـذه الواقعـة أسـردها لمن يقولـون أن الإسـلام انتشر بحـد السـيف، ففي الـوقت الذي قتـل إمـبراطور الـروم عشرات الألوف من المسيحيين فقط ليغيروا ملتهم إلى الكاثوليكية غير مـا ذاقـوه من ألوان التعذيب فإن الإسلام تعامل مع المسيحيين في مصر بتسامح.

واستنكر (بباوي) الإساءة للرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) في الوقت الذي شجب مجلس الكنائس العالمي ومجلس كنائس الشرق الأوسـط أي إسـاءة للرسـول الكـريم في أعقـاب أزمـة الرسـوم الكاريكاتوريـة وهـو مـا رفضـته أيضـا الكنيسـة الأرثوذكسية التي أصدرت بيانا بهذا المعنى، واختتم بباوي كلامـه مؤكـدا أن تصـريحات بابا الفاتيكان لا تمثل الديانة المسيحية وإنما تمثل نفسه فقط، فارق كبـير بين تطـرف البابا الحالي (بنديكتوس) السادس عشر وتسامح سـابقه البابـا (يوحنـا بـولس الثـاني) عندما تعرض لمحاولـة اغتيـال على يـد مسـلم تـركي إلا أنـه عفـا عنـه وسـامحه على محاولة اغتياله دون الإساءة أو المساس بالدين الإسلامي.

* * *

ـ 8 ـ

تصريحات البابا
تدعم الكراهية الدينية والعنصرية
وتدفع باتجاه صدام الحضارات

بيان صحفي

25/9/2006

سلم مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان اليوم إلى سفير دولة الفاتيكان بالقاهرة مذكرة موقعة من 38 منظمة لحقوق الإنسان في 13 دولة عربية، موجهة إلى قداسة الأب بنديكت السادس عشر بابا الكنيسة الكاثوليكية ورئيس دولة الفاتيكان، وفيما يلي نص الرسالة وقائمة المنظمات الموقعة عليها :

رسالة من 38 منظمة لحقوق الإنسان في العالم العربي إلى بابا الفاتيكان
بخصوص المحاضرة التي ألقاها في الذكرى الخامسة
لأحداث الحادي عشر من سبتمبر

تحية واحتراماً..

لقد تابع الموقعون على هذا الخطاب المحاضرة التي ألقاها قداستكم يوم الثلاثاء، الثاني عشر من سبتمبر 2006، في جامعة ريتبسون بألمانيا، في الذكرى الخامسة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر، والتي جاءت تحت عنوان "الإيمان والعقل والجامعة.. ذكريات وانعكاسات"، ونظراً لما تحظون به من مكانة روحية هائلة لدى مئات الملايين من المسيحيين الكاثوليك وغيرهم في شتى أرجاء الأرض، فقد شكّلت بعض العبارات في هذه المحاضرة صدمة قاسية للموقعين على هذا الخطاب ؛ لأنها وجهت لطمة لجهود تراكمت عبر نحو ثلاثة عقود من جهود الحوار بين الأديان وتعزيز قيم التسامح وثقافة السلام، والتي أسهم فيها ممثلون عن الفاتيكان إلى جانب ممثلين لأديان أخرى، وعشرات الآلاف من منظمات المجتمع المدني في شتى أرجاء الأرض، وكانت آخر هذه الجهود المؤتمر الدولي الذي بدأ أعماله في باريس في اليوم التالي لمحاضرتكم، حول"حوار الثقافات والشعوب" برعاية رئيس الجمهورية الفرنسية ومشاركة ممثلين رفيعي المستوى لدول أوربية وعربية وعشرات من المفكرين ورجال الدين ومنظمات المجتمع المدني في جنوب وشمال المتوسط.

إن الموقعين على هذا الخطاب يخشون أن تُسهم تلك التصريحات في تأجيج نيران الكراهية الدينية والعنصرية التي أشعلتها فاجعة الحادي عشر من سبتمبر 2001، والتي يعاني من ويلاتها المواطنون في الشمال والجنوب من مختلف الأديان، ويأسف الموقعون على هذا الخطاب أن يلاحظوا أن بعض تصريحاتكم تسير في عكس اتجاه جهود أغلبية دول العالم في الشمال والجنوب ومنظماتها المدنية لاستئصال التطرف الديني وتحاشي خطر اندلاع صراع حضارات.

انطلاقاً من الإيمان الراسخ بعالمية قيم ومبادئ حقوق الإنسان، فقد دأبت منظمات حقوق الإنسان العاملة في العالم العربي على الدفاع عن حرية الاعتقاد، والدفاع عن حقوق الأقليات الدينية. وفي نفس الوقت التصدي بالنقد والإدانة لأي محاولة لاستخدام العنف كوسيلة لفرض أية معتقدات، وطالبت دائماً بأن تعكس وسائل الإعلام ومناهج التعليم بأمانة التعددية الدينية والمذهبية في العالم العربي، وأن تقوم بتعزيز قيم التسامح واحترام الآخر.

إن منظمات حقوق الإنسان العاملة في العالم العربي تأمل أن يكون لرجال الدين في مختلف الأديان والمذاهب دور إيجابي في دعم ثقافة حقوق الإنسان، وقيم التسامح بين الشعوب، والاحترام المتبادل بين الحضارات والأديان، وأن يكون لقداستكم بحكم موقعكم الروحي السامي دور مركزي في هذا السياق، سيراً على خطى سلفكم الراحل قداسة الأب يوحنا بولس الثاني، والتي شكلت بياناته ومحاضراته وأحاديثه في مناسبات عديدة مشاعل لإضاءة الطريق لثقافة حقوق الإنسان، وتعزيز قيم التسامح بين البشر، بما يكفل استعادة تلك القيم الإنسانية قبل أن تذروها رياح التعصب الديني.

مع وافر الاحترام والتقدير،،،

المنظمات الموقعة على الرسالة :

(1) مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان.
(2) الجمعية المصرية لدعم التطور الديمقراطي.
(3) الجمعية المصرية للنهوض بالمشاركة المجتمعية.
(4) الجمعية المغربية لحقوق الإنسان.
(5) الحق- رام الله- فلسطين.
(6) الرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الإنسان.
(7) الرابطة الليبية لحقوق الإنسان.
(8) الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان- مصر.
(9) المركز السعودي لحقوق الإنسان والديمقراطية.
(10) المركز السوري للإعلام وحرية التعبير.
(11) المركز المصري لحقوق المرأة.
(12) المنظمة السورية لحقوق الإنسان.
(13) المنظمة العربية للإصلاح الجنائي- مصر.
(14) المنظمة الفلسطينية لحقوق الإنسان- لبنان.
(15) المنظمة المصرية لحقوق الإنسان.
(16) المنظمة الوطنية لحقوق الإنسان – سورية.
(17) جماعة تنمية الديمقراطية – مصر.
(18) جمعية الحقوقيين – الإمارات.
(19) جمعية حقوق الإنسان لمساعدة السجناء- مصر.
(20) جمعية شباب البحرين لحقوق الإنسان.
(21) جمعية شموع لرعاية الحقوق الإنسانية- مصر.
(22) لجنة احترام حقوق الإنسان بتونس.
(23) برنامج حقوق الإنسان بمؤسسة الإمام الخوئي – العراق.
(24) مركز الأرض لحقوق الإنسان – مصر.
(25) مركز الأمل لعلاج وإعادة تأهيل ضحايا العنف والتعذيب- السودان.
(26) مركز البحرين لحقوق الإنسان.

(27) مركز الخرطوم لحقوق الإنسان و تنمية البيئة.
(28) مركز المعلومات والتأهيل لحقوق الإنسان – اليمن.
(29) مركز أندلس لدراسات التسامح ومناهضة العنف- مصر.
(30) مركز حابي للحقوق البيئية – مصر.
(31) مركز حقوق الطفل المصري.
(32) مركز دراسات حقوق الإنسان والديمقراطية – المغرب.
(33) مركز دمشق لدراسات حقوق الإنسان.
(34) مركز سالمة للدراسات وتوثيق حقوق المرأة- السودان.
(35) مركز عمان لدراسات حقوق الإنسان.
(36) مركز قضايا المرأة المصرية.
(37) ملتقى المجتمع المدني – اليمن.
(38) منتدى الشقائق العربي لحقوق الإنسان- اليمن.

* * *

ـ 9 ـ

ملاحظات حول محاضرة بنديكت السادس عشر
الإسلام ستارة لنقد البابا واستبعاده للبروتستانتية والأرثوذكسية

الدكتور نصر حامد أبو زيد

جريدة المصري اليوم الأحد 1/10/2006م

هل كان من الضروري أن تتضمن هذه المحاضرة التي ألقاها الحبر الأعظم للفاتيكان عن "العقل والإيمان في المسيحية" هذه الإشارة إلى الإسلام، والتي أثارت غضب المسلمين في كل مكان، الساسة والعلماء والعامة سواء بسواء ؟ هل دار بخلد بابا "الفاتيكان" أن تثير هذه العبارات التي استشهد بها من حوار سجالي حدث في القرن الرابع عشر في بيزنطة بين الإمبراطور مانويل الثاني ومساجله المسلم الإيراني كل هذا الغضب الذي وصل إلى حد التهديد بقطع العلاقات الدبلوماسية مع دولة الفاتيكان ؟ وأخيرًا هل يكون الحل ردًا على هذه الإهانة هو قطع قنوات الحوار الإسلامي المسيحي إلى الأبد، وهو القرار الذي يبدو أن "المجلس العالمي لعلماء المسلمين" قد اتخذه بالفعل ؟ هذه أسئلة تحاول هذه المقالة التعامل معها انطلاقًا من قناعة مؤداها أن "الفهم العميق" يجب أن يسبق "رد الفعل العنيف"، بل وأن يعيد توجيهه في الاتجاه الصحيح.

والإجابة عن السؤال تستلزم النظر إلى بنية المحاضرة، وتحليل افتراضاتها الأساسية وتتبع قضايا الإثبات والنفي المؤدية إلى النتيجة النهائية، لكننا سنقتصر في هذه المقالة على عرض الخطوط العامة للمحاضرة تاركين النقاش الأكاديمي التفصيلي لمجال أوسع. من الواضح أن موضوع المحاضرة هو العلاقة بين "العقل والإيمان في المسيحية"، والجمهور الذي تخاطبه هو جمهور أساتذة جامعة ريجنسبرج، وهذا واضح في العنوان الفرعي للمحاضرة وهو "ذكريات وتأملات جامعية"، يمكن تقسيم المحاضرة إلى سبع فقرات :

(1) المقدمة.

(2) الجدل الجامعي.

(3) الإنجيل ومفهوم "اللوجس".

(4) الكتاب المقدس واللقاء بالفكر اليوناني.

(5) رد الفعل ضد "العقل".

(6) المسيحية الأوروبية ومحاولات تحرير المسيحية من التأثيرات الهيللينية.

(7) طرح مفهوم للعقل يتجاوز حدود "الإمبريقية" والمعايير المحددة لطبيعة "العلم".

يقع الكلام عن الإسلام في نهاية الجزء الثاني من "الجدل الجامعي"، والذي يأتي بعد المقدمة، التي يحكى فيها الحبر الكاثوليكي تجربته الجامعية في كلية اللاهوت في الخمسينيات والستينيات، يعتبر البابا أن "الجدل الجامعي" بين "المتشككين" في وجود الله وبين علماء اللاهوت كان جدلاً خصبًا أدى إلى انخراط الجميع في مناقشات خصبة عن "العقلانية" وجدواها، وهذا هو الجدل والنقاش والحوار ـ يؤكد البابا ـ الذي نريده ونسعى إليه في اللحظة التاريخية الراهنة.

يأتي الكلام عن الإسلام على سبيل التداعي في هذه الفقرة، حيث يقول البابا حرفيًا : ذكرني بهذا المناخ من الحوار ذلك الجدل الذي قرأته بين الإمبراطور "مانويل الثاني" ومحاوره ـ أو بالأحرى مساجله ـ المسلم الإيراني.. الخ، وهنا لا يستشهد البابا من هذا الحوار "السجال" إلا بقول الإمبراطور على سبيل التحدي لمساجله : "حدثني عما أتى به محمد من جديد ؛ لقد أتى بكل ما هو شرير وغير شرعي وغير إنساني مثل أمره بنشر العقيدة التي أتى بها بالسيف"، ويواصل البابا استشهاده بما قاله الإمبراطور عن أن الله لا يرضى بسفك الدماء ؛ لأن القتل فعل لا يمكن أن يرضى الله، في هذا الاستشهاد الطويل لا وجود لصوت المحاور المسلم الذي لا يمكن أن يكون قد تلقى هذه التحديات في صمت، ومنطق المحاضرة الأكاديمية يقول : إن الاستشهاد بنص ما دون نقد أو تعليق يعني أن المحاضر يتبنى هذا الرأي، **فإذا أضفنا إلى ذلك أن هذا الاستشهاد قام على الانتقاء أدخلنا ذلك في حكم "عدم الأمانة" العلمية، إن معايير الأمانة العلمية في الاستشهاد تتطلب من المحاضر، الباحث أمانة العرض قبل الوصول إلى استنتاج ما.**

بعد الاستشهاد الطويل بالحوار بين إمبراطور القرن الرابع عشر ومحاوره المسلم ينتقل المحاضر إلى القسم الثالث، وهو محور "إشكالية" المحاضرة : هل الاعتقاد بتعارض الفعل والسلوك غير العقلانيين مع الطبيعة الإلهية مجرد عقيدة يونانية، أم أنها عقيدة صحيحة دائمًا وبشكل جوهري ؟ هكذا يبدأ موضوع المحاضرة في التبلور، والسؤال الذي يطرح نفسه : هل كان الاستشهاد بما قاله إمبراطور القرن

الرابع عشر ضد نبي الإسلام يمثل جزءًا جوهريًا في بنية النقاش، أم أنه مجرد استعراض زائد لا يضر حذفه، حتى لا نتجنى على المحاضر، وأنا أتعامل مع الموضوع بوصفه "محاضرة" لا أكثر ولا أقل، فمن الضروري أن نرى إلى أي حد يمثل ذلك الاستشهاد عنصرًا جوهريًا في بنية المحاضرة.

يعود المحاضر عدة مرات في سياق المحاضرة لهذا الاستشهاد، يعود إليه ــ أولاً ــ في سياق نهاية القسم الرابع حيث يقول : "إن هذا التلاقح بين الإيمان المسيحي وبين أصح ما في التراث اليوناني "اللوجوس" هو الذي مكن مانويل الثاني أن يقول إن الفعل غير العاقل يتعارض مع المشيئة الإلهية"، ثم يعود إليه مرة ثانية في القسم الخامس من المحاضرة "رد الفعل ضد العقل" ليقول إن بعض الاتجاهات المسيحية الرافضة للعقل تكرر ما يقوله "ابن حزم" من أن "الفعل الإلهي" لا يخضع للقارئ أن حديث المحاضر عن الإسلام لم يقتصر على الاستشهاد بالسجال بين إمبراطور القرن الرابع عشر "مانويل الثاني" وبين محاوره المسلم ؛ فقد اعتمد في القول السابق على تعليق محقق نص المساجلة الدكتور "تيودور خوري" الذي يقتبس بدوره هذا الرأي "لابن حزم" نقلاً عن المستشرق الفرنسي "أرنالدز"، بعبارة أخرى فإن بابا الفاتيكان يأخذ اقتباس المحقق عن اقتباس المستشرق دون فحص أو مراجعة، هذا رغم ضخامة الإمكانيات العلمية والمؤسساتية المتاحة لبابا الفاتيكان لفحص الاقتباس والتأكد من صحته أو عدم صحته.

في نهاية المحاضرة يعود البابا أخيرًا للإشارة إلى قول "مانويل الثاني" وتنتهي المحاضرة بالإسلام، الأمر <u>الذي يترك انطباعًا بوجود تعارض تام بين الإسلام والمسيحية في قضية "العقل والإيمان"</u>، وسنرى فيما يلي كيف أن حديث البابا عن الإسلام بهذه الطريقة الفجة وغير العلمية يمثل ستارًا لنقده لكل المسيحيات فيما عدا "الكاثوليكية"، والحقيقة أن المحاضرة في مجملها وفي خط البرهان الساري فيها تمثل دفاعًا عن "الكاثوليكية" بوصفها المسيحية الحقيقية من جهة، وبوصفها المسيحية الوحيدة التي لا تعارض فيها بين "العقل والإيمان" من جهة أخرى، أما "البروتستانتية" حركة الإصلاح الديني المسيحية في القرن السادس عشر، فيرى البابا أنها كانت محاولة لإزالة هذا الترابط الذي يراه البابا بنيويًا بين المسيحية واليونانية ويبرهن البابا على ذلك الترابط البنيوي الجوهري بأمرين :

الأمر الأول : أن "العهد القديم" كان قد تفاعل مع الفلسفة اليونانية واحتك بالثقافة الهيللينية حين تمت ترجمته في الإسكندرية، الترجمة التي يطلق عليها اسم الترجمة السبعينية.

الدليل الثاني : على العلاقة الجوهرية بين المسيحية والفكر اليوناني تكمن في رأي البابا في مقدمة "إنجيل يوحنا" : في البدء كانت الكلمة، والكلمة كانت عند الله وكانت الكلمة الله.

البروتستانتية في نظر البابا انحراف عن هذا الخط الحقيقي للمسيحية، وهو انحراف وجد تعبيره الفلسفي الرايكالي عند الفيلسوف "إيمانويل كانت" الذي عزل عزلاً تامًا بين الإيمان وبين العقل، وبما أن "كانت" يمثل الأب الروحي للتنوير والحداثة، فقد حرص البابا على بيان ما أدت إليه مفاهيم الحداثة من تقليل لشأن الإنسان حين حصرت "المعرفة العلمية" في إطار ما يمكن قياسه والتعرف عليه إمبريقيًا يتحرك البابا من هذا النقد لطرح محاولة للتصالح مع الحداثة بطرح مفهوم للعقل لا يستبعد "الإيمان" من أفق المعرفة العلمية "

من الواضح أن الحديث عن الإسلام لم يكن فيما يبدو إلا ستارًا لنقد المسيحيات غير الكاثوليكية، صحيح أن المسيحية لها جذور شرقية ـــ هكذا يعترف البابا ـــ لكن المسيحية وجدت تعبيرها الأصح في أوروبا بأصولها اليونانية الرومانية، من الواضح إذن أن المحاضرة كان يمكن أن تستغنى عن هذا الاستشهاد، بدليل أن حذفه لا يخل بموضوع المحاضرة، لكن البابا احتاج لهذه الستارة ليكون نقده للمسيحيات الأخرى نافذًا مادامت هي الأخرى تفتقد لهذا التآلف بين "الإيمان والعقل"، والبعد الأخطر في محاضرة البابا، وهو البعد الذي غيبته المناقشات الاعتراضات والموافقات والتبريرات حول حديثه عن الإسلام، إن قداسة بابا الفاتيكان يتبنى بعدًا "عنصريًا" في حديثه عن المسيحية الحقة التي لا تعارض فيها بين "الإيمان والعقل" إنها المسيحية التي تمثل جوهر أوروبا، أو التي يتحقق فيها جوهر أوروبا، **إن مسيحية "البابا" في هذه المحاضرة مسيحية إقصائية، لا للإسلام فقط، بل لكل دين يخالف القيم الأوروبية بتراثها اليوناني الروماني**.

هل كان رد الفعل في العالم الإسلامي صحيحًا ؟ لا شك أن المحاضرة تقدم إسلامًا وهميًا، لكنه الإسلام الذي يخدم غرض البابا، الذي من المؤكد أنه يعلم شيئًا عن تاريخ الفلسفة الإسلامية، ويعلم عن "الفارابي" و "ابن سينا" و "ابن رشد"، ولا شك أنه يعلم عن المعتزلة بوصفه عالم لاهوت متخصص، ولا شك أنه يعلم أن قضية "العقل والنقل" هي الموازي لقضية "العقل والإيمان، كانت من أهم قضايا الفكر الإسلامي لذلك نقول إن هناك مبررًا للغضب، بسبب هذا التجاهل العمدي والتزوير الواضح، ويجب أن يكون التعبير عن هذا الغضب فعلاً إيجابيًا لا مجرد احتجاجات ومظاهرات تنديد وشجب.. الخ، يتمثل رد الفعل الإيجابي المطلوب في الاندماج الحقيقي في إنتاج بحوث ودراسات تاريخية نقدية تحليلية بكل اللغات عن التراث الإسلامي، هذا أمر نفتقده، ويعلم البابا أننا نفتقده ويعلم أن فكرنا الحالي في مجمله فكر تقليدي يتنكر لقيم العقلانية المتجذرة في تراثنا.

لا يمكن إذن أن يكون الحل هو إغلاق باب الحوار، بل في وجوب الاستمرار في الحوار، ولكن وفق قواعد تبدأ من التسليم بالاختلاف العقيدي، من المستحيل أن يعترف "المسيحي" بنبوة محمد عليه السلام ويظل مسيحيًا، **هذا أمر يبدو بالنسبة**

للمسلم غريبًا، بما أن المسلم يـؤمن بنبـوة كـل الأنبيـاء ويظـل مسـلماً، أقصى ما يمكن أن يصل إليه المسيحي المتسامح أو اليهـودي المتسـامح أن يحـترم الإسـلام باعتبـار أن محمـدًا مصـلح اجتمـاعي عظيم، لا يجب أن نطلب من غير المسلم أكثر من ذلك، ووراء هـذا الاختلاف العقيـدي مسـاحات واسـعة للتفاهم والحوار، المهم في هذه اللحظة ضـرورة التصـدي لهـذه المسـيحية العنصـرية الإقصائية الـتي يبشـر بهـا البابـا في هـذه المحاضـرة، لا ضـد الإسـلام فقـط، بـل ضـد البروتستانتية والأرثوذكسية أيضًا.

* * *

ـ 10 ـ

الحقيقة الغائبة في فتنة بنديكت

البابا طرح ملاحظات إيجابية عن الإسلام
ولكنها ضاعت في مناخ ملبد بالشك قابل للاشتعال

بقلم : د. كورنيليس هولسمان

روز اليوسف في 2/10/2006م

(كاتب هذا المقال د. كورنيليس هولسمان هو عالم هولندي وهو مدير مركز التقارب بين الثقافات والترجمة (CIDT:www.vrawu.org)، ورئيس تحرير المجلة الإليكترونية Arab-West Report، وأحد مؤسسي مركز التفاهم بين العرب والغرب، وهي جمعية أهلية مصرية تحت التأسيس، والأمين العام لجمعية المراسلين الأجانب، ومراسل لعدد من وسائل الإعلام الهولندي بما في ذلك مطبوعة أسبوعية كاثوليكية كبرى في هولندا، وهو من أقدم أعضاء لجنة الشرق الأوســط بالحزب الديمقراطي المسيحي الهولندي، ويعيش هولسمان في مصر التي جاءها لأول مرة عام 1976 وهو ينتمي إلى الكنيسة الأرثوذكسية، وينبغي الإشارة هنا إلى أن هذه المقالة تعبر عن آرائه الشخصية).

أثارت محاضرة البابا بنديكت التي ألقاها في 12 سبتمبر جدلاً واسعًا في العالم الإسلامي بسبب ملاحظات غير موفقة بالمرة، من جانب البابا تتصل بكتاب لتيودور خوري، وهو أستاذ ألماني من اصل لبناني، حول حوار بين الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني باليوجوس وفارسي مسلم متعلم غير معروف الاسم حوالي سنة 1391م.

أهم مشكلة هنا هي انتزاع الملاحظات من سياقها بحيث أصبح بوسع المستمعين أو القراء أن يطرحوا تفسيرات ربما لم تكن مقصودة، فالبابا كان يبدي ملاحظاته على حوار دار في القرن الرابع عشر بدون أن يضع لها الإطار المناسب، ووسائل الإعلام المختلفة كانت تبرز ما اقتطفه البابا في تصريحات مستفزة للغاية أدلى بها الإمبراطور البيزنطي دون التفات إلى الأشياء الإيجابية التي قالها البابا في المحاضرة وفي مواضع أخرى حول الحاجة إلى حوار بين الحضارات.

وهذا المقال لن يكتفي بتلخيص المحاضرة، ولكنه سيقدم أيضًا الخلفية التي غابت عن مختلف التقارير والتعليقات.

توجهت محاضرة البابا بنديكت بالأساس إلى جمهور أكاديمي غربي متأثر تأثرًا قويًا بالفلسفة الوضعية الغربية التي نقلت الإيمان إلى منطقة المعتقدات الشخصية، وعزلته بذلك عن العلم وعن التأثير المتبادل بين (مع) العوامل الرياضية والتجريبية (الإمبريقية)، والبابا ينتقد الفلسفة الوضعية الغربية انتقادًا شديدًا لاستبعادها مسألة الألوهية مختزلة بذلك مجال العلم والعقل، وسوف يوافق غالبية علماء المسلمين على هذا الموقف، فهم أيضًا يواجهون التأثير القوى للفلسفة الوضعية الغربية في معظم الحقول العلمية التي يشتغلون بها.

ومن الواضح أن البابا بنديكت أشار إلى الإمبراطور البيزنطي الذي عاش في القرن الرابع عشر بخصوص قولـه : "إن مجافاة العقل ومجافاة المنطق مناقضان لطبيعة الله"، وليس بخصوص الإشارة المستفزة وغير العادلة إلى الإسلام، فمحاضرة البابا تؤكد بوضوح أنه يدعو للحوار مع الإسلام، بل إن البابا بنديكت يشير إلى "موضوع المسيحية والإسلام وصدق الديانتين"، وصيغة "صدق الديانتين" بالغـــة الدلالة، ولسوء الحظ لا تتردد كثيرًا في الدوائر المسيحية وهنا يقرر البابا بوضوح أن كلا من المسيحية والإسلام ينطويان على حقيقة وهو ما يتوافق مع توجه المجتمع الفاتيكاني الثاني المسكوني، وهو تجمع المطارنة الكاثوليك من كافة أنحاء العالم (1962ـ 1965) الذي حضره البابا عندما كان عالم لاهوت شـــابًا، وقد أعلن المجمع رسميًا أن "المسلمين" الذين يعلنون تمسكهم بإيمان إبراهيم يعبـــــدون معنا الإلـه الأوحد الرحيم (الدستور العقائدي للكنائس Lumen Gentium رقم 16).

والإعلان الخاص "بعلاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية" (الذي يشار إليه بأنه Nostra Aetate, nr2)، ويقول : "والكنيسة الكاثوليكية لا تنبذ شيئًا مما هو حق ومقدس في هذه الديانات، وباحترام صادق، تقدر مبادئ العمل والحياة والتعاليم، تلك التي تحمل قبسًا من شعاع الحقيقة التي تنير جميع الناس وإن اختلفت في أمور كثيرة مع ما تقول به وتعلمه هذه الديانات".

والقادة المسيحيون الذين يمكن أن يقروا بأن كلا من المسيحية والإسلام ينطويان على حقيقة ليسوا كثر، ويعتبر الأب الدكتور كريستيان فان نسبن، وهو كاهن يسوعي يعيش في مصر منذ عام 1962، ولـه كتاب رائع عن الحوار بين المسلمين والمسيحيين بعنوان (مسيحيون ومسلمون إخوة أمام الله)، أن هذه الصياغة التي يطرحها البابا بنديكت هي "بشارة أمل بتفاهم متبادل".

وتوضح المحاضرة كيف يرى البابا الحوار الذي تحتاجه الحضارات المتدينة في عالمنا، ومن بينها الإسلام لمعالجة الآثار السلبية التي ترتبت على "استبعاد ما هو مقدس من النطاق العقلي الشامل".

وهذا ما يقره معظم علماء المسلمين، وهكذا فإن البابا فعل أمرين متناقضين ؛ فهو استشهد بأقوال مستفزة للغاية، لكثير من المسلمين وفي مناخ قابل للاشتعال، كما أنه طرح ملاحظات عن الإسلام إيجابية بشكل غير معتاد عندما رأى الحقيقة المسيحية والإسلام معًا، وللأسف فإن العديد من وسائل الإعلام ركز على الجانب السلبي فقط ن ولعب ذلك دورًا في طرح عبارات تفتقر إلى السياق المناسب.

وقد كان للغضب الإسلامي ما يبرره، وطرح كثير من العلماء والمنظمات وجهات نظر منطقية تفسر هذا الغضب، ولكن لسوء الحظ، فإن ردود فعل أخرى لم تكن طيبة، والعنف الذي تلا ذلك، في بعض الأماكن ونظريات المؤامرة التي تمت صياغتها يمكن أن تهدم الجسور وتقربنا من صدام الحضارات الذي لا يريده أي إنسـان لديه ذرة من العقل، لكن هذه المحاضرة تبقى إشارة قوية أخرى إلى حاجة العالم الإسلامي والغرب، أكثر من أي وقت مضى، إلى ممارسة الحوار.

ومن المشاكل الرئيسية أن الإعلام والدارسين ن بل وكثيرًا من العلماء والقادة البارزين في الغرب، لديهم قدرة محدودة على الوصول إلى معلومات سليمة وموثوق بها، ومن المدهش أن كثيرًا من الكتب والمقالات التي تصدر في الغرب عن العالم العربي والإسلامي تعتمد على مصادر غير عربية غالبًا ما تفتقر إلى الدقة، وقد نشأ عن هذا فقر في الدراسات التي تستند إلى مراجع عربية وافتقاد القدرة على قراءة النصوص العربية.

وقد عاش البابا وتعلم ودرس في الغرب، وهو مدرك بشكل جيد لتحولات الفكر في الغرب كما هو واضح من محاضرته، ولأنه ابن الحضارة الغربية فلابد أنه طوال حياته، تعرض لكثير من الأفكار أحادية الجانب، وربما الخاطئة عن الإسلام، فهو لم يعش أبدًا في بلد مسلم، وليس خبيرًا في الشئون الإسلامية أو في تاريخ العلاقة بين الإسلام والمسيحية بالدرجة التي كان يمكن أن تجعله يقدم أطروحاته بحرص أكبر.

وبالطبع فلدى الفاتيكان عدد هائل من العلماء الممتازين الذين كان بوسعهم أن يزودوا البابا بالنصيحة التي كان من الممكن أن تساعده على تقديم أطروحاته بعناية أكبر، ويبدو أن هذا لم يحدث، وبالتالي فقد تيسر لنا الاطلاع على الفهم الشخصي لبابا غربي متعلم قدم في نص واحد تصريحًا إيجابيًا غير عادي عن المسيحية والإسلام، وما يحتويه من صدق، وفي الوقت ذاته طرح صورة عن الإسلام هي بالتأكيد مشوهة ولكنها أيضًا نتيجة لكثير من المعلومات المغلوطة عن الإسلام التي تروج في الغرب.

وهذا ما يحتاج إلى معالجة !! فلابد من الرد على المعلومات أحادية الجانب التي تغذي التصورات النمطية السائدة والتي تطرح دون خلفية كافية والتي تنطوي حتى على تضليل، والرد عليها بمعلومات دقيقة ووضعها في إطار يساعد على تصحيح الأفكار المغلوطة لدي الناس الذين نشأوا في وسط ثقافي بالغ الاختلاف، وبوسع المسلمين والعرب أن يفعلوا الكثير في هذا المجال.

هذا يتطلب جهد المسلمين والعرب الذين يفهمون العقلية الغربية والقادرين من خلال الدراسات والمقالات التي يتم نشرها على مساعدة الجمهور الغربي على التوصل إلى فهم أفضل، لكن عدد المسلمين والعرب القادرين على أن يفعلوا ذلك بطريقة مقنعة للجمهور الغربي هو عدد قليل جدًا.

وهذه أحد الأسباب الرئيسية لنشــأة الحاجة الملحة إلى حوار حقيقي، فلابد للمنتمين للثقافات المختلفة أن يبذلوا المزيد من الجهد ليفهم بعضهم بعضًا، ومن أفضل الطرق لتحقيق ذلك أن نعمل معًا لمعالجة مظاهر سوء الفهم والنظر في الخلافات الفكرية وفي التقارير الإعلامية باحترام كامل للمعتقدات الدينية القائمة.

وقد كان هذا هو السبب الذي دعانا لإطلاق مشروع لترجمة آلاف مؤلفة من مقالات الرأي العام التي ينشرها الإعلام العربي إلى الإنجليزية ونقل ما يهم العرب وما تعبر عنه وسائل الإعلام العربية إلى الرأي العام الغربي.

نحن بحاجة إلى معهد يجعل المراقبين الغربيين على دراية بوجهات النظر وبالمشاعر السائدة في العالم الإسلامي، ليس بالسطحية التي يباشر بها الإعلام الغربي هذه المهمة في الغالب، ولكن بمزيد من التعمق.

وكما عبر أحد المراقبين فإن السبب الحقيقي للغضب العارم الذي يجتاح العالم الإسلامي هو أن كثيرًا من المسلمين يشعرون بأنهم مستهدفون بهجمات غربية، وقد ساهمت التدخلات الغربية العسكرية وغير العسكرية، وأحداث كثيرة أخرى في تغذية هذه الشكوك، وهناك بالفعل ما يدعو المسلمين إلى الحذر، ولكن على الإنسان أن يحذر من التسرع في الاستجابة للشكوك في النوايا السلبية للآخرين ؛ لأن ذلك من شأنه أن ينسف إمكانية بناء الجسور.

بناء الجسور ممكن، وقد رأيت كيف أن مئات من الغربيين غيروا رأيهم في العرب والإسلام بعد أن زاروا مصر، وبعد أن تزودوا بالمعلومات من مصادر يثقون بها، ومن أشخاص و منظمات يشعرون بالصلة التي تربطهم بها.

هناك ملايين من الناس من ذوي النوايا الطيبة في الغرب يتعرضون للتضليل، وتنبع مقالاتهم ومحاضراتهم عن معلومات مغلوطة، وهؤلاء هم الناس الذين يتعين علينا أن نسعى إلى إمدادهم بالمعلومات الدقيقة، نحن بحاجة إلى تطوير آليات من شأنها أن تحول دون تكرار وقوع إساءات غير مقصودة للإسلام ولغيره من الديانات لنحول بذلك وقوع صدام فعلي بين الحضارات.

محاضرة البابا :

وقع حوار القرن الرابع عشر الميلادي الذي أشار إليه البابا في لحظة كانت الإمبراطورية البيزنطية فيها عرضة للخطر بسبب الجيوش العثمانية الزاحفة التي استولت على العاصمة البيزنطية "القسطنطينية" بعد ذلك بما لا يزيد على نصف قرن

في عام 1453م، ومثل هذه الظروف لا تساعد على قيام حوار متوازن، كما أنها تفسر اللغة المقتضبة التي استخدمها الإمبراطور البيزنطي.

لا شك أن الحوار جدير بالاهتمام لأنه يساعدنا على أن نفهم كيف كان شعور المسيحيين في تلك الأيام إزاء الإسلام، ولكن يجب ألا يتوقع المرء أن يكون ذلك موضوعيًا، وهناك العديد من الحوارات المتشابهة التي دارت في القرون الوسطى وكثير منها استهدف فيما يبدو، أن يظهر للجمهور العريض تفوق وجهات نظر أحد الفرقاء على وجهات النظر الأخرى، وهذا لا يجعل تلك الحوارات مصادر يستخدمها المرء دون توضيح السياق الذي أحاط بها.

ويرفض البابا مبدأ نشر الإيمان بالسيف، ومعظم المسلمين والمسيحيين المعاصرين لا يختلفون حول هذه النقطة، وقد أشار بعد ذلك إلى الجهاد بطريقة تعكس سوء فهم شائع في العالم الغربي، وهو ما يغضب المسلمين الذين يشعرون بالإهانة بسبب هذا التفسير المغلوط من جانب المؤلفين الغربيين الذين يكتبون عن الجهاد، ولهذا فإن أي كتابة أو حديث حول هذا الموضوع يجب أن يتسم بالحذر الشديد.

ويؤكد البابا أن الإمبراطور كان يدرك مفهوم المسلمين عن الجهاد، وقد كان من الممكن أن تساعد هنا المصادر الإسلامية المعاصرة لتفسر كيف استخدم الأتراك العثمانيون هذا المفهوم في تلك الأيام ؛ لأن هذا كان يمكن أن يساعدنا على أن نفهم أفكار الإمبراطور حول هذه المسألة، ولا شك في أن الإمبراطور لم يتأثر بالمعتقدات العثمانية المعاصرة لـه عن الجهاد فقط، ولم يكن يرد على هذه المعتقدات وحدها، ومن الممكن أنه كان متأثرًا أيضًا بكتابات مسيحية سابقة يصعب اعتبارها محايدة عقب الحروب الصليبية، وبعد طرد الصليبيين من بلاد الشام.

وهكذا فقد تعرض البابا لقضية بالغة الحساسية اعتمادًا على مصدر واحد يعود إلى فترة مفعمة بالتوترات، وذلك المصدر هو الحوار كما حرره البرفيسور "خوري"، وكان يتعين عليه أو على مساعديه استخدام مجموعة أكثر تنوعًا من المصادر.

ويقرر البابا بنديكت أن الإمبراطور لابد وأنه كان يعرف أن الآية رقم 256 من سورة البقرة تقول : "لا إكراه في الدين"، ثم يضيف : "حسبما يقول الخبراء فهذه الآيات التي تعود إلى المرحلة المبكرة عندما كان محمد لا يزال بغير قوة ومعرضًا للخطر"، ويقول علماء المسلمين أن هذا خطأ، وبعكس ما قاله البابا فقد نزلت هذه الآية في المدينة عندما كان محمد في مركز القوة لا الضعف، ولا نعرف الخبراء الذين استشارهم البابا بنديكت، ولكنهم بالتأكيد لم يساعدوا البابا بمشورتهم.

وناقش البابا بنديكت "العلاقة بين الدين والعنف بصفة عامة"، واستشهد بما قاله الإمبراطور البيزنطي من أن الإسلام انتشر بالسيف، وقد وجه علماء المسلمين انتقادًا

شـــديدًا للبابا بسبب هذا الاقتباس المستفز، ووصف البابا في محاضرته ما قاله الإمبراطور بأنه جاء "In erstaunlich schroffer, uns uberrachend schroffer From" وهو يعني بالإنجليزية "Astoundingly Gruff" and "For us (a) surpisingly harsh from"، أي "غليظ بشكل محير"، و "بالنسبة لنا صيغة قاسية بشكل يدعو للدهشة"، لكن المترجم أخطأ وأخطاء الترجمة عديدة ومتكررة هنا، عندما ترجم النص الألماني إلى "اقتضاب مدهش"، وهو تعبير أضعف بكثير من الأصل الألماني، وبين هذا التعبير أيضًا أن البابا لا يؤيد ما قاله الإمبراطور عن الإسلام، وقد أعلن بعد ذلك على الملأ أن هذا الاقتباس لا يعكس آراؤه الشخصية وأنه شديد الأسف لأن هذه الاقتباسات أغضبت الكثير من المسلمين في جميع أنحاء العالم، واعتبر المنتدى الإسلامي العالمي للحوار أن البابا تراجع بذلك عما قاله، فقد رأى المنتدى في المبررات التي قدمها البابا درجة من الاعتذار.

ويعتقد المنتدى أن المحاضرة تعكس نقصًا في معرفة البابا بالإسلام، ويبدو أن هذه الخلاصة مبررة على اعتبار أن البابا في هذه المحاضرة وفي مناسبات سابقة، أظهر ميلاً للحوار مع الإسلام، ليس إلى المدى الذي يود أن يصل إليه الآخرون بالحوار، وقد كان يعد العدة أيضًا لزيارة رسمية لتركيا، وليست هذه إشارة إلى معارضة بابوية للحوار.

وقد كان من الممكن تجنب المشاكل لو أن البابا استشار الخبراء الذين يعرفون العالم الإسلامي، واقل ما كان يمكن أن يفعله لم يكن ليقتصر على إظهار مخالفته لكلمات مانويل الثاني، ولكن أيضًا الإشارة إلى دعوات من التسامح والسلام والعدالة والرحمة صدرت عن مفكرين إسلاميين قبل القرن الرابع عشر وتم تجاهلها في الحوار المشار إليه.

وقد كان هدف البابا بنديكت واضحًا : العنف مناقض لطبيعة الرب والإيمان لا يمكن نشره بالسيف، وهذه تعاليم الإسلام والمسيحية، لكن القادة المسلمين والمسيحيين ــ على السواء ــ خرقوا هذه التعاليم واستخدموا الدين لأغراضهم السياسية، وقد وقع استغلال الدين لأغراض سياسية لسوء الحظ في كل الديانات، ولا يجب على المرء أن يلوم هذه الديانات، بل علينا أن نلوم الحكام الذين فعلوا ذلك بنا.

ويوضح البابا السبب في أن العنف لا يتماشى مع طبيعة الرب على أساس أن "التصرف بغير مقتضى العقل مناقض لطبيعة الرب"، ثم يستشهد البابا بما قاله العالم الأندلسي ابن حزم الذي قال " إن الله يتعالى على كل ما هو بشري حتى أن البشـــر يعجزون عن فهم العقلانية الإلهية"، وهذه الصياغة توحي بصعوبة التوحد بين الإسلام والعقل، ويرفض العلماء المسلمون هذا رفضًا شديدًا، فبدلاً من تسليط الضوء على عالم أندلسي واحـــد، لا يمثل التيار الرئيسي للفكر الإسلامي، كان أحرى بالبابا أن يتكلم عن مساهمة الأندلس المسلمة في تطور أوروبا.

وعند هذه النقطة من محاضرته تسائل البابا بنديكت : "هل الاعتقاد بأن الخروج على سلطات العقل مناقض لطبيعة الرب هو مجرد فكرة إغريقية ؟ أم أنه أمر صحيح دائمًا وبشكل جوهري ؟ وأعتقد أن بوسعنا أن نرى هذا التناغم العميق بين ما هو "تفكير" إغريقي بأفضل ما تعنيه الكلمة وبين مفهوم الكتاب المقدس للإيمان بالله، وتفسير كلمة "Logos" في إنجيل يوحنا يمثل نقطة مركزية في حوار البابا بنديكت، فهو يستخدم نقاطًا مرجعية عديدة من الكتاب المقدس لشرح "الضرورة الجوهرية للربط بين الإيمان في الكتاب المقدس والاجتهاد الإغريقي"، ولم تكن هذه الآراء لتؤثر على العلاقات الإسلامية المسيحية لو أنها طرحت بمعزل عن التعليق على الحوار بين الإمبراطور البيزنطي ومحاوره الفارسي.

والحجج التي طرحها البابا بنديكت لصالح الربط بين الإيمان والعقل هي بالتأكيد مهمة في أوروبا ذات الطابع العلماني القوي، فالباباوات يختارون أسماءهم، واختيار هذا البابا لاسم بنديكت لم يأت اعتباطًا لأن بنديكت (حوالي 480 ـ 547م) هو مؤسس الرهبنة الغربية وهو أيضًا القديس الذي يرعى أوروبا ومعروف عن البابا بنديكت السادس عشر أنه شديد الإنزعاج من تحول الأوروبيين عن الكنيسة وتبنيهم فلسفات أخرى عديدة عن الحياة، هي في غالبها مادية، وبالمناسبة فقد أثرت على كثير من مسلمي أوروبا أيضًا، وهم مسلمون حافظوا على إسلامهم من حيث الاسم فقط، لكنهم فقدوا، مثل كثير من مسيحيي أوروبا، كثيرًا من إيمانهم بتعالم موروثاتهم الدينية.

وترتكز الحجج التي يسوقها أولئك الذين انصرفوا عن الديانة المسيحية، إلى حد كبير على الاعتقاد بأن الإيمان والعقل لا يمكن أن يتحدا، وليس البابا بنديكت وحده هو الذي يقول بإمكانية الربط بين الإيمان والعقل، ولكن كثيرًا من المسيحيين المحافظين ومن كل المذاهب سبقوه إلى ذلك.

ويرى البابا أن ارتباط الإيمان المسيحي بالبحث الفلسفي الإغريقي حاسم تاريخيًا بالنسبة لشخصية أوروبية وهي شخصية من المؤكد أنه يريد أن يحافظ عليها، ولهذا فهو يعارض الدعوات إلى "تنقية المسيحية من الهيلينية"، كما ظهرت في اللاهوت الليبرالي في القرنين التاسع عشر والعشرين حيث يتم فصل الإيمان عن العلم أو العقل، ويشير البابا إلى أيام كان طالبًا عندما "كان هذا البرنامج بالغ التأثير في اللاهوت الكاثوليكي أيضًا.

وبتعبير آخر، فإن مسالة الإيمان والعقل هي مسألة انكب البابا على معالجتها طوال حياته، وهذه الإشارة الشخصية توضح أيضًا أن البابا لم يكن يقصد الإسلام، بل كان يعالج قضية الفصل بين الإيمان والعقل، ألا يوافق معظم علماء المسلمين على أن الفصل بين الإيمان والعقل غير ممكن ؟ ألا يمكن لأطروحات البابا بهذه الكيفية أن تكون جديرة باهتمام المسلمين الذين يعيشون في أوروبا العلمانية ؟

ويحذر البابا من أن فصل الإيمان عن العقل يترتب عليه أن "يصبح الضمير الفردي" الحكم الوحيد الذي يقرر ما هو أخلاقي (و) أن تفقد الأخلاق والدين القدرة على خلق مجتمع وتصبح مسألة فردية خالصة"، ويعتقد البابا أن هذا "وضع خطير على الإنسانية كما نرى من الاختلالات المزعجة التي تطرأ على الدين وعلى العقل بالضرورة، عندما يختزل العقل لدرجة ألا تدخل في نطاقه أمور الدين والأخلاق، على اعتبار أن محاولات تأسيس قيم أخلاقية استنادًا إلى أحكام التطور أو استنباطها من علم النفس وعلم الاجتماع ببساطة يثبت قصورها في النهاية".

ثم يتوصل البابا بنديكت إلى خلاصة مهمة تعرضت لسوء الحظ لإهمال بالغ في الجدل الذي أعقب استشهاده غير الموفق بالإمبراطور مانويل الثاني.

"بهذه الطريقة وحدها نصبح قادرين على ذلك الحوار الحقيقي بين الثقافات والأديان الذي نحن أحوج ما نكون إليه اليوم"، وبداية فإن الحوار بين الثقافات يحتاج إلى الاعتراف بأن العقل والإيمان لا يستبعد أحدهما الآخر، ألا يوافق معظم علماء المسلمين على ذلك ؟

ويقول البابا بنديكت : " ترى ثقافات العالم المتدينة بعمق هذا الاستبعاد للمقدس من شمولية العقل كهجوم على من يؤمنون به أشد الإيمان، فالعقل الذي يصم أذنيه عن المقدس والذي ينزل بالدين إلى مستوى الثقافة الفرعية هو عقل غير قادر على الدخول إلى حوار الحضارات" و "الإنصات إلى التجارب والرؤى العظيمة للموروثات الدينية الإنسانية، ولموروثات العقيدة المسيحية على وجه الخصوص، هو مصدر لمعرفة، وتجاهلها يعد حجرًا غير مقبول على أسماعنا واستجاباتنا".

والبابا يتكلم عن التجارب والدروس العظيمة للموروثات الدينية بصيغة الجمع، وهذا يشمل الإسلام بشكل لا لبس فيه، وبالطبع فهو يتحدث عن العقيدة المسيحية على وجه التخصيص، ولكن ألا يتكلم العالم الإسلامي عن العقيدة الإسلامية على وجه التخصيص ؟

وقد اتهم البابا <u>بتصوير الإسلام تصويرًا خاطئًا، سواء في تاريخ الإسلام أو تعاليمه، وأنا أؤمن بأن هذا صحيح لسوء الحظ</u> ، واتهم البعض البابا أيضًا بأن لديه أجندة لتشويه الإسلام، وهذا ما لا أؤمن بصحته، وقد أشار البروفيسور هانز كونج الذي تكررت خلافاته مع الكاردينال راتزنجر قبل أن يصبح بابا، إلى "أن البابا لم يكن مدركًا لما ينطوي عليه كلامه بكل بساطة"، ومن المؤكد أن هناك الكثير من المعلومات المغلوطة التي راجت عن الإسلام في أوروبا والتي أثرت حتى على قيادات رئيسية مثل البابا.

وهذه الواقعة غير الموفقة تظهر أن الحوار والتفاهم المتبادل مطلوب أكثر من أي وقت مضى ونحن بحاجة بالتأكيد إلى معهد للتفهم

بين العرب والغرب يساهم فيه الناس من كافة الديانات بمساواة كاملة واحترام كامل إزاء بعضهم البعض، لا نحتاج لتعميق الهوة بين العالم العرب والغرب، ولا يجب أن نستسلم لأولئك الذين يحبــون أن يروا تلك الهوة تعمق، بل يجب أن نتعاون معًــا لمعالجة سوء الفهم بطريقة إيجابية.

(1) سوف يكون أمرًا جديرًا بالاهتمام لو أن أحدًا استطاع أن يدرس ردود الفعل الغاضبة العديدة في الإعلام العربي على استخدام الغربي، أو ما يتصوره البعض استخدامًا غربيًا لتعبير الجهاد، وفي أرشيف "تقرير العرب والغرب" مجموعة لا بأس بها من المواد ذات الصلة التي تغطي السنوات من 1997 إلى اليوم، وقد يساعد أمر كهذا القراء الغربيين على التوصل إلى فهم صحيح إلى حساسية الاستعمال الخاطئ لتعبير الجهاد.

(2) أسفرت محاضرة البابا بالفعل عن عدد من ردود الفعل الجديرة بالاهتمام من قبل شخصيات بارزة رأت فيها إشارة قوية إلى ضرورة الحوار.

يتوجه كاتب هذه المقالة بشكره إلى الأستاذ الدكتور حسن وجيه الذي زوده بمعلومات عن التعاليم الإسلامية في حدود ما تستدعيه مناقشة المحاضرة التي ألقاها البابا بنديكت السادس عشر.

* * *

ـ 11 ـ

تحالف بين الصقور في الفاتيكان والبيت الأبيض حملة شرسة منظمة ضد الإسلام

الأستاذ وليد الشيخ ـ رسالة برلين

جريدة الأسبوع في 2/10/2006م

هل أخطأ البابا أم لا ؟ وهل كان خطأ مقصودًا أم غير مقصود ؟ أم أنه لم يخطئ وإنما المسلمون الغاضبون الذين أساءوا تفسير خطبته هم الذين أخطأوا ؟ وهل اعتذر أم لا ؟ لكن ما الذي حدث بالضبط ؟ والأهم هو لماذا ؟ كانت هذه هي الأسئلة التي فرضت نفسها بوضوح في الأسبوع الماضي ليس فقط في العالم الإسلامي بل أيضا في أوروبا وبالذات في الفاتيكان نفسها.

وللأمانة نشير من البداية إلي أن كلمة البابا التي ألقاها في جامعة ريجنسبورج باللغة الألمانية يوم الأربعاء 12 سبتمبر أثناء جولته في ألمانيا لم تتم ترجمتها بدقة سواء من المواقع الإسلامية ولا من المواقع الأوربية حتى تلك التي ادعت أنها تقدم ترجمة حرفية لها، فبينما تقول العبارة الأصلية التي عرضها البابا نقلاً عن الإمبراطور البيزنطي إيمانويل الثاني والتي أثارت غضب المسلمين أن الإمبراطور "تطرق

باقتضاب فظ" بدرجة تثير الاندهاش في تناوله للمسألة الجوهرية حول العلاقة بين الدين والعنف بوجه عام مع محدثه، أي الفيلسوف الفارسي قائلا له : "فقط أرني ما الجديد الذي أتى به محمد عندها ستجد فقط كل ما هو شرير ولا إنساني، كأمره نشر الدين الذي نادي به بحد السيف" حيث قامت "إسلام أون لاين" مثلاً بترجمة العبارة الأولي بما نصه : "أن الإمبراطور طرح على نحو مفاجئ على محاوريه (...) السؤال المركزي بالنسبة لنا عن العلاقة بين الدين والعنف بصورة عامة، حيث فتحت هنا قوسين حذفت منهما عبارة اعتقدوا أنها يمكن أن تخفف من كلام البابا، بينما ذهبت الدويتشه فيلله بالمقابل بمحاولة ترجمة العبارة بصورة تساعد على التخفيف من أثرها مشيرة إلي أن البابا قال : الإمبراطور تطرق بشكل فظ الأمر الذي فاجأنا وأثار دهشتنا إلى العلاقة بين الدين والعنف في حواره مع الفارسي هذا بينما التزمت الـ (بي بي سي) بالترجمة الدقيقة للعبارة.

والمشكلة في حقيقة الأمر ليست في النص الحرفي للكلمة خاصة أن وصف الفظاظة هنا لا يعني أبدا عدم الهجوم علي الإسلام أو الرسول صلي الله عليه وسلم أو ربط ليس فقط المسلمين بالعنف والإرهاب بل الإسلام نفسه، بل يصف فقط الهجوم السافر علي الرسول صلي الله عليه وسلم بأنه لم يأت سوي بكل ما هو سيئ وغير إنساني وبنشره الإسلام بالعنف، لكن المشكلة الحقيقية في المغزى من وراء استخدام هذه العبارة وهذه الصورة النمطية المعادية للإسلام وبصورة مستفزة لإثارة غضب العالم الإسلامي بأسره خاصة حين يصدر ذلك عن رأس الكنيسة الكاثوليكية نفسها وكأن ذلك يصب في خانة التحريض علي الإرهاب خاصة حين يأتي في هذا الوقت بالذات ومواكبتها للذكري الخامسة لأحداث 11 سبتمبر وذلك في 12 سبتمبر، وبعد أيام قليلة من حديث الرئيس بوش عما أسماها بالفاشية الإسلامية، وهو ما فسر من قبل الكثيرين ومعهم حق مثل الدكتور يوسف القرضاوي بأن ذلك يبدو وكأنه تأصيل ديني من قبل البابا للفكرة السياسية التي أطلقها بوش عن تطوير حربه ضد ما أسماه بالفاشية الإسلامية أو بالأحرى كما يري غالبية المسلمين في استطلاعات الرأي ضد العالم الإسلامي أو حتى ضد الإسلام نفسه، خاصة أنه يقال إنه يفكر في أن يلعب مع القوي الغربية وبالذات الولايات المتحدة دورًا هامًا في هزيمة "الخطر الإسلامي" وتفكيكه بعد أن نجح البابا السابق يوحنا بولس الثاني في لعب دور هام في القضاء علي الخطر الشيوعي بعد تفكيكه وشله.

لكن الأبعاد المحيطة بالأزمة التي رافقت جولته في ألمانيا أو حتى بالبابا الجديد (بنديكت السادس عشر) وهو الألماني (جوزف راتسنجر) تشير إلي علامات استفهام إن لم تكن اتهامات صريحة عديدة ليس فقط من قبل المسلمين أو الأوربيين بل وحتى من قساوسة الفاتيكان أنفسهم، فجوزف راتسنجر متهم منذ البداية بأنه كاثوليكي محافظ وصارم ويحظى بدعم المحافظين المتشددين في الفاتيكان حتى أن انتخابه بابا للفاتيكان قوبل بتحفظ من قبل كرادلة أمريكا اللاتينية الليبراليين وبعض

الكرادلة الألمان أنفسهم خاصة أنه كان قد هاجم في السـابق فكر لاهوت التحرير الذي نادي به كرادلة أمريكا اللاتينية لفترة طويلة وتيارات الإصلاح في الكنائس وعلي رأسها تيارا (هانز كونج) و (ويوجن دريورمن)، بل إن البعض زعم أن اختياره جاء عن طريق سيطرته علي الأوضاع في الفاتيكان أثناء فترة مرض البابا السابق الطويلة، بينما وقف كثير من الكرادلة أثناء انتخاب البابا وراء القس الإيطالي (تيتامنز)، وحتى في بلده ألمانيا تعرض أول بابا ألماني منذ 482 عامًا لانتقادات فور إعلان انتخابه لخصتها صحيفة (شفايتسر) بوجود مخاوف من أن راتسينجر لا يمثل سوي الذراع الطولي للقرون الوسطي، كما تحدث منتقدوه أيضا عن عدم أهليته للتربع علي كرسي البابوية باعتباره 'عائقا أمام الإصلاح' ولكن بعد عام علي صعود الدخان الأبيض خمدت أصوات النقد بشكل واضح خاصة بعد إعلانه بعد تقلده مهام البابوية انه سيواصل نهج سلفه الرامي إلي إثراء الحوار ليس مع منتقدي الكنيسة فحسب بل ومع الديانات الأخرى أيضًا.

وكان المراقبون قد أكدوا فور اختياره للمنصب أن المسائل الشائكة ومنها العلاقة مع العالم العربي والإسلامي ستكون من بين أهم المشاكل التي تواجهه، وأن ذلك لا يأتي فقط بسبب تصريحات الكاردينال(جياكومو بيفي (التي كانت قد أساءت للإسلام حينها، بل تمتد إلي إعلان راتيسنجر ومنذ فترة طويلة رفض انضمام تركيا للاتحاد الأوربي باعتباره مقصورا علي الدول المسيحية، ومسألة اعتذار الفاتيكان والبابا الجديد عن ويلات الحروب الصليبية التي تعرض لها العالم العربي والإسلامي علي غرار اعتذار الكنيسة لليهود إزاء سكوتها في عهد البابا بيوس الثاني عشر عن الجرائم التي ارتكبها النظام النازي بحقهم في الحرب العالمية الثانية، وكذلك ملف مدينة القدس وما لها من أهمية دينية في العالم الإسلامي الذي خشي البعض من حدوث تراجع عن المواقف الجيدة للبابا السابق تضامنا مع الشعب الفلسطيني، هذا إلي جانب قضية دور الدين المسيحي وقيمه في الدستور الأوربي، وخاصة بعد نجاح الفرنسيين في تمرير النهج العلماني في الدستور الأوربي وإسقاط جميع القوانين التي تشير في الدستور إلي الجذور المسيحية.

ورغم لقاء البابا مع وفد عن الجالية الإسلامية في زيارته لألمانيا في سبتمبر من العام الماضي إلا أن البعض فســروا أن ذلك كان فقط كرد فعــل بعد إعلان زيارته لمعبــد يهودي في مدينة "كولونيا "شـــهد في غضونها صلاة يهودية وترحم فيها على من قال إنهم أكثر من 6 ملايين يهودي سقطوا ضحية القهر والعدوان النازي الغاشم أثناء الحرب العالمية الثانية، كما تحدث باستفاضة عن علاقات المسيحيين بإخوانهم اليهود، وهو ما جعل هذه الزيارة حدثا فريدا من نوعه، إذ لم يسبق في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية أن حضر أحد أصحاب الكرسي الرسولي أثناء إقامة الشعائر الدينية اليهودية وذلك لإظهار مدي تقارب الكاثوليكية مع اليهودية بل إنه كان حينها قد رفض زيارة أحد المساجد الإسلامية، بل اكتفي بدعوة الوفـــد الإسلامي لمقر إقامته، بل إنه

أعلن من قبل الكنيسـة الكاثوليكية رسميًا حينها بأن أعضاء الوفــد الإسلامي مثلوا بين يدي البابا، بل قيل إنه هاجمهم بشدة وتحداهم بأن يقوموا بإدانة أي صلة تربط الإسلام بالإرهاب، كما أن موقفه من أزمة الرسوم الكاريكاتيرية ورغم أنه طالب باحترام معتقدات الآخرين وعدم استفزازهم، إلا أن كثيرا من الخبراء بمن فيهم الغربيون أشاروا حينها إلى أنه لم يكن قويا بما فيه الكفاية، لذلك لم يلاق اهتماما من قبل العالم الإســلامي، خاصة أن البابا الجديد فرض صمتا جاثما علي علاقتـه بالبلدان العربية والإسلامية مقارنة مع البابا السابق الذي قام بزيارات كثيرة لعديد من هذه الدول.

لكن كثيرًا من المراقبين وجهوا انتقادات حادة للبابا ورأوا أن تصريحاته الأخيرة تظهر تحولا واضحا في سياسة الكنيسة الكاثوليكية تجاه الإسلام، بل وصل الأمر ببعضهم إلي الحديث عن انقلاب يقوده البابا ومن وراءه مما أسموهم صقور المحافظين في الكنيسة الكاثوليكية تصل إلى إبعاد الكرادلة الإصلاحيين في الفاتيكان والسير في نهج تصادمي مع العالم الإسلامي مما أثار قلق الكثيرين حول توجه البابا الجديد إزاء علاقة الكنيسة بالعالم الإسلامي، لدرجة ذهاب بعض المراقبين أنه يبدو واضحا أن الاختلاف الأساسي بين البابا الحالي والبابا السابق هو في توجه الفاتيكان إزاء الإسلام رغم أنه كان يفترض أنه سيسير علي خطواته، وهو ما رأت أنه بدأ منذ اللحظة الأولي لتولي البابا الجديد لمهامه حين قام بنقل أو بالأحرى نفي) مسئول تعزيز الحوار مع الأديــان الأخرى الأسقف البريطاني (مايكل فيتزجيرالد) من منصبه رغم أنه باحث متعمق وخبير في الشئون العربية والإسلامية، الأمر الذي كان قد أحدث ضجة في الفاتيكان حينها عبر الباحث الخبير في شـئون الفاتيكان الأب (توماس رايز(عن قلقــــه قائلا في مقابلة مع الـ "بي بي سي" في أبريل الماضي : لقد كان أسوأ قرار للبابا حتى الآن هو نفي الأسقف فيتزجيرالد، فلقد كان الأكثر فطنة في الفاتيكان بأسره فيما يتعلق بالعلاقات مع المسلمين، وشخص مثل هذا لا ينبغي إقصاؤه بل الاستماع إليه، بل إنه أكد حينها قائلا : " إنه إذا قال الفاتيكان شيئا غبيا عن المسلمين فسوف يموت أناس في أجزاء من أفريقيا وستحرق كنائس في أندونيسيا ناهيك عما يمكن أن يحدث في الشرق الأوسط، وسيكون أفضل للبابا أن يكون فيتزجيرالد إلي جواره".

وهو ما رأت الـ (بي بي سي) أنها وكأنها كانت نبوءة من الأب (توماس رايز) لما يحدث الآن فعلا بل إنها تساءلت مستنكرة عن ردود الأفعال المحتملة لمثل ذلك بعد أحداث 11 سبتمبر وغزو العراق وأزمة الرسوم الكاريكاتيرية في الدانمرك والتي أعيد نشرها في عديد من الدول الأوربية ؟ ! وهو ما أيده المحلل (دومينيك لوسن) في (الإندبندنت) مؤكدا أن البابا يقصد كل كلمة قالها خاصة أنه لم يكن راضيا في السابق عن مدي دخول البابا السابق في حوار مع الإسلام وخلص إلي قناعة مفادها أنه يستحيل إجراء أي نقاش لاهوتي حقيقي معه لذلك قام فور توليه منصبه بإزاحة كبير

الأساقفة (مايكل فيتزجيرالد) من رئاسة مجلس حوار الأديان ثم تقليص دور المجلس .

من ناحية أخري فبينما رأي البعض في الغرب أن البابا ليس بحاجة إلي الاعتذار لأن العبارة المثيرة للجدل ليست له ولأن هدفه إيصال رسالة برفض نشر الدين بالعنف رغم أن المسيحيين الغربيين هم الذين احتلوا ولا يزالون يحتلون الدول الإسلامية بل وصل الأمر ببعض المراقبين إلي القول إن ردود أفعال المسلمين الغاضبة والمطالبة باعتذار البابا هي التي تصب البنزين علي النار وتعد تجاوزا وتصب في خانة التصعيد، بالمقابل ذهب معظم المحللين الغربيين إلي أن البابا قد أخطأ بصورة واضحة فهو مسيحي كاثوليكي ومن الطبيعي أن يري أن دينه يمثل الحقيقة الوحيدة طالما أنه لا يعامل الأديان الأخرى بعدم تسامح أو عدوانية كما أن استخدامه لعبارة الإمبراطور البيزنطي التي تسيء للإسلام يعد إقرارا منه بهذا الرأي بصورة غير مباشرة، رغم إشارة البعض لذكائه أو بالأحرى خبثه لاستخدامه للأسلوب اللاهوتي الذي يعتمد علي جمع المتناقضات بدعوته لحوار الحضارات في نفس الوقت الذي يسيء فيه لتعاليم نبي الإسلام مما لم يعد بأي حال دعوة للحوار بين الحضارات بل العكس بينما تهكم البعض من أنه كان قد طالب المسيحيين في أزمة الرسوم الكاريكاتيرية باحترام مقدسات الآخرين ثم فعل هو نفسه عكس ذلك لدرجة قولهم إن احترام ديانات الآخرين واجب ينطبق علي الجميع سواء كان مسيحيا عاديا أم بابا، بل إنهم ذهبوا إلي أن البابا ليس رجل دين عاديا يحق له أن يتفلسف دون مراعاة لتبعات كلماته كما قالت صحيفة فرانكفورتر روندشاو بحيث يجب أن يحسب حساب ردود أفعال المسلمين الذين يشعرون بالإهانة والإذلال من قبل الغرب وأصبح فاقدا للثقة تجاهه بعد حروب أفغانستان والعراق ولبنان وسجن أبو غريب وأزمة الرسوم لتختم بالقول إن من يقل إنه يريد حوارا بين المسيحيين والمسلمين يجب أن يفكر كيف سيكون رد الفعل تجاه كلماته وهو ما لم يفعله البابا بصورة كافية.

وقد أجمعت الصحف الأوربية علي إدانة البابا، ففي هولندا رأت صحيفة دي فولكسكرانت أن ما فعله البابا ليس سوي نوع من الاستفزاز لمشاعر المسلمين ولا يمكنه سوي أن يلوم نفسه وحدها بشكل أساسي، بينما رأت صحيفة إلموندو الأسبانية في الحادث نكسة للتسامح بين الديانات، ورأت أنه تطلب الأمر وقتًا قبل أن يتوصل البابا السابق يوحنا بولس الثاني إلي التخفيف من حدة التناقضات بين الديانات الرئيسية، وفيما يتعلق بالإسلام، فإن البابا الحالي جوزف راتسينجر أفسد في كلمة واحدة كل عمل سلفه بينما صحيفة ليبراسيون الفرنسية كتبت تقول إن : " هذا البابا البالغ من العمر 78 عاما يرتكب هفوات متتالية منذ تعين، وستتشكل لدينا في نهاية المطاف قناعة بأنها ليست عرضية بل تكشف عن فكره الدفين".

أما البروفيسورة الألمانية أورسولا شبولر شتيجيمان المتخصصة في علوم الإسلام والمدرسة في جامعة ماربورج الألمانية، فتقول إنه : "كان يتحتم علي البابا أن يصرف النظر عن الاقتباس من حوار قديم، مشيرة إلى أن النبي صلي الله عليه وسلم) كان شخصية كاريزمية جديرة بالاحترام والتقدير مؤكدة أن تصريحات البابا قد تعرقل حوار الأديان معربة عن تخوفها من أن يتطور الوضع بين المسلمين والغرب إلي حد التأزم، بينما دعا الرئيس شيراك إلى أسلوب أكثر دبلوماسية في الحديث قائلا : (يجب أن نتجنب أي ربط بين الإسلام وهو دين عظيم يحظى بالاحترام ويبعث علي الاحترام وبين التطرف الإسلامي وهو نشاط مختلف تماما وذو طابع سياسي).

بل إن الانتقادات تجاوزت ذلك لتشير إلي وجود مشاكل داخل الوسط الكاثوليكي والفاتيكان نفسه لتحمل مسئولية الخطأ في تصريحات البابا لما أسمته صحيفة 'ديلي تليجراف (البريطانية) بالطبيعة الشمولية للنظام البابوي في الفاتيكان' مشيرة إلي أن البابا بنديكت يصر علي كتابة خطاباته بنفسه وعلي عكس البابا يوحنا بولس الذي كان يعمل بجد مع مجموعة من مستشاريه عند كتابة خطاباته، مضيفة أنه وحتى مع توزيع مسودات كلماته علي كبار مستشاريه فلا أحد يمتلك الشجاعة الكافية ليقول له إنه أخطأ، ليس ذلك فقط بل إن رئيس وكالة الأنباء الكاثوليكية (رنج آيفل) نفسه قد انتقد البابا بحدة معارضا تصريحاته ومتنصلا عنها قائلاً : "إن البابا أراد هنا ارتداء ثوب البروفيسور، وأعتقد أنه يستطيع أن يتجرد من منصب البابا ولو لمدة نصف ساعة، وهذا لم يكن سوي سذاجة سياسية، بينما كان أحد الكرادلة الكبار في الفاتيكان قد أكد لصحيفة (لاسـتامبا) الإيطالية أن ذلك لم يكن ليحدث مع البابا يوحنا بولس، بينما وجهت صحيفة)لاريبوبليكا) التي تصدر في روما انتقادات حادة للبابا الحالي بسبب خطئه في تصريحاته التي أجبرته علي التراجع ليكون أول بابا في التاريخ يحاول التراجع بهذا الشكل عن شيء قاله مؤكدة أن رد الفعل السريع والواضح للفاتيكان وتراجعه لتفادي تداعيات الأزمة سببه أيضا الانتقادات الحادة التي تلقاها من الفاتيكان نفسه بعد أن انتهت الكنيسة الكاثوليكية إلى أن بنديكت قد اقترف هنا خطأ واضحا لا يمكن إنكاره !

هذا بينما أشارت بعض المصادر الإيطالية إلي أن المسئول عن هذه الأزمة هم صقور الفاتيكان وعلي رأسهم الكاردينال الألماني (فالتر كاسبير) هم من أعدوا الخطاب الذي ألقاه البابا بالجامعة الألمانية من أجل إقناع الكاثوليكيين والعالم المسيحي بأن موقف جمهورية الفاتيكان من الإسلام واضح ومخالف للبابا الراحل يوحنا بولس الثاني، وهو ما لا يخلو من دلالة في الإشارة لتيار يبدو وكأنه متحالف مع المحافظين الجدد الذين يحكمون الولايات المتحدة حاليا وهو الأمر الذي أشار له بوضوح المؤرخ الديني الفرنسي (أودون فاليت) الذي صرح لوكالة الأنباء الفرنسية بأن البابا الحالي أكثر قربا للولايات المتحدة من البابا السابق الذي عارض غزو العراق وأفغانستان: حيث إنه لم يقم منذ توليه بأي إدانة للسياسة الخارجية الأمريكية، وقال

فاليت: لا شك أنه يوجد بعد سياسي في تصريحات البابا حتى وإن تخفى وراء فكر لاهوتي واضح وهو ما اتفق معه فيه المؤرخ الفرنسي رينيه ريموند قائلا: "رغم أن محاضرة البابا كانت واضحة ودقيقة من الناحية الفكرية فإنها تجعلنا نتساءل ما إذا كان توقيتها مناسبا من الناحية السياسية"، لكن الأمر وصل حسبما نشرت صحيفة دير تاجيس شبيجل الألمانية في 18سبتمبر والتي أشارت نقلا عن مصادر وثيقة لها في الفاتيكان أنه حدث نوع من الانقلاب ضد سكرتير الدولة في الفاتيكان أعلي شخص مسئول في الدبلوماسية للفاتيكان فالمدير الذي كان في المنصب حتى الآن) أنجيلو سودانو (كان قد تم إرساله إلى (بنسيون) رغما عن إرادته ليقوم المدير الجديد الذي لم يستلم منصبه بعد) تارشيزيو بيرتوني) بتولي الإعداد لزيارة بايرن وبالتالي لكلمة البابا التي ألقاها !

لكن المشكلة الحقيقية كانت في تخوف كثير من المسلمين أن تكون كلمات البابا هذه بداية لحملة هجوم حاشد علي الإسلام خاصة أنه كانت هناك تصريحات غريبة معادية للإسلام قد صدرت عن رئيس الحزب المسيحي الاجتماعي الألماني ورئيس وزراء ولاية بافاريا 'إدموند شتويبر' والمعروف بانتقاداته الحادة للإسلام والمسلمين قبيل زيارة البابا الأخيرة لولاية بافاريا، مما أثار غضب واستياء الجالية الإسلامية هناك لدرجة مطالبته بالاعتذار عنها وعدم تكرارها لكن المشكلة أن تصريحاته تبدو الآن وكأنها تمت لتمهيد الأرضية أمام البابا ليدلي بتصريحاته بل وأنها تمت بالاتفاق معه، حيث صرح (شتويبر) لصحيفة تابلويد شعبية تدعي (بيلد) تابعة لدار نشر أكسل شبرنجر ومعروفة بدعمها المطلق لإسرائيل، وبمناسبة زيارة البابا لمسقط رأســـه في ولاية بافاريا قائلاً : (إن المسيحية تختلف عن الإسلام برفضها التعصب وعدم التسامح وقبولها الحريات الدينية واعترافها بالمساواة الكاملة بين الرجل والمرأة وعدم سماحها بالزواج عن طريق الإكراه، وأضاف قائلا: "علي العكس من الإسلام تعتبر المسيحية الإنسان كائنا فريدا له قيمة كبيرة ويتمتع بالحق في الحرية والمساواة"، الأمر الذي لم يعد مفهوما سوي بتصريحات البابا التي جاءت بعد تصريحات بوش وكأن هناك اتفاقا سريا ما لشن حملة سياسية دينية عالمية ضد الإسلام وبنفس الاتهامات تقريبا تكون مقدمة أو علي الأقل تمهيدا لاستهداف بعض دوله.

لكن الأمر تكرر في مقالة نشرتها صحيفة "فرانكفورتر ألجماينه" يوم 16 سبتمبر للكاتب) إيجون فليج) تحت عنوان (الإسلام يريد غزو العالم) هاجم فيها الإسلام بحدة ووصمه فيها بالعنف وبأنه دين قتالي وأنه يرى الأندلس ومنطقة البلقان وجنوب إيطاليا والجزر اليونانية كلها باعتبارها مستعمرات إسلامية سابقة وأنها يجب أن تعود إلي حصن الإسلام وأن هدف المسلمين غزو العالم بأسره وتدمير دار الحرب والتعويل علي ذلك بالحرب والعنف، بل إنه وصل به الأمر إلي الدفاع بقوة عن الحروب الصليبية مؤكدا أن البابا أوربان الثاني كان حينها علي حق وأن هذه الحروب تمت إما

لمساعدة المسيحيين المضطهدين وإما لتحرير الأماكن المقدسة في فلسطين أو لحماية المسيحيين من الأطماع الإسلامية، بل إنه تكلم حتى وعلي عكس ما هو ثابت تاريخيا عما أسماه تمييزا واضطهادا من المسلمين تجاه المسيحيين واليهود.

ثم وصل الأمر ب(فليج) إلى انتقاد الإسلام بكل قوة ودعم من أسماهم بالمثقفين الإسلاميين من أتباع الغرب ليختم مقاله قائلا: "إن من يستمر في بث الأساطير عن التسامح الإسلامي يحول دون قيام المثقفين الإسلاميين بأي إصلاح للإسلام".

وبعدها بثلاثة أيام فقط في 19 سبتمبر نشرت صحيفة) لوفيجارو) الفرنسية مقالا للكاتب) روبير ريديكيه) كتب فيه يقول : "محمد يصور نفسه في القرآن علي أنه مقاتل لا يرحم قام بالنهب وهو قاهر لليهود ومتعدد الزوجات، وإن القرآن الذي يتعلمه كل مسلم يتضمن الكراهية والعنف". ورغم اعتراف الصحيفة بعدها بيوم بالاعتذار عن ذلك علي لسان نائب رئيس تحريرها) بيار روسلان) باعتبار أن نشر هذا المقال كان أمرا خاطئًا ومؤكدًا أنه لا يمثل رأي الصحيفة بحجة أن نشر بعض المقالات من كتاب من خارج الصحيفة لا يعبر سوي عن رأي كتابها، ثم عاد مؤكدا وجود تقصير للصحيفة في ذلك من أنه تحدث أحيانا في مهنة الصحافة أخطاء تؤدي لنشر مواد قبل مراجعتها بدقة.

وبعدها بأسبوع واحد أي خلال أسبوعين فقط من كلمة البابا اندلعت أزمة جديدة وخطيرة في ألمانيا حيث عقدت مؤسسة للعروض الأوبرالية في برلين مؤتمرا صحفيا يوم الثلاثاء 26 سبتمبر أعلنت فيه (كريستن هارمز) مديرة مؤسسة الأوبرا الألمانية في برلين عن إلغاء عرض اوبرا (يدومينيو) لموتسارت التي كانت ستعرض 4 عروض في شهر نوفمبر وذلك خشية أن يعتبرها المسلمون استفزازية وذلك بعد أن أشارت الشرطة إلى أن عرضها سيؤدي إلي مخاطر غير محسوبة علي الجمهور والعاملين في الأوبرا، وذلك لتضمن المسرحية مشاهدا لقطع رأسي الرسول صلي الله عليه وسلم وسيدنا عيسي عليه السلام وقالت الشركة في بيان وزعته إنها فعلت ذلك لمعرفتها بما يمكن أن تحدثه من جدل بعد أزمة الرسوم الكاريكاتيرية، وختمت (هارمز) بأنها تلقت تحذيرات أمنية من عرضه ولذلك فإن قرار الإلغاء يأتي في صالح الفنانين ومرتادي الأوبرا.

وهذه الأوبرا التي أدخل عليها المسرحي (هانس نوينفيلس) تعديلات والمكونة من ثلاثة فصول كان قد ألفها (موتسارت) عام 1781 وسبق أن عرضت في ألمانيا في ديسمبر 2003 وأثارت حينها ردود فعل قوية لدي الجمهور، وكان يفترض أن يعاد عرضها في 5 و8 و15 و18 نوفمبر.

وهو عرض يقوم علي الفكر الإلحادي الذي يعتمد هنا علي عبارة نيتشه الفلسفية الشهيرة) إن الله قد مات) التي أراد أن يجعلها عنوانا لفلســـفته التي لا تعترف إلا بالحسيات وفقط بالبشــــــر وبأنهم هم وحدهم الموجودون في العالم، وهنا تسير

التفاصيل علي جلب ملك كريت) ادومينيو) رموز جميع الأديان ومنهم الرسول صلي الله عليه وسلم وسيدنا عيسي عليه السلام بل وكذلك) بوذا) و (بوزيدون' (إله البحر عند الإغريق) ثم قطع رقابهم ووضع كل واحدة منها علي كرسي من الكراسي ليثبت أنه انتصر علي جميع الأنبياء والمصلحين بل حتى علي فكرة الإله ذاتها !

لذا فكان طبيعيًا أن يؤدي عرض هذه الأوبرا إلى غضب عارم في العالم الإسلامي بأسره حيث إنها تصور عملية قطع رقبة الرسول صلى الله عليه وسلم وكذلك سيدنا عيسى بصورة لا يمكن لأحد تحملها بل وهناك مشاهد لبطل العرض يمسك بالرقبة والدماء تنسال منها ولكم أن تتخيلوا ذلك خاصة أننا بالطبع لا يمكننا نشر مثل هذه الصورة في صحيفتنا، وهذا الغضب لا يأتي فقط لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يعد مقدسا عند المسلمين، ولكن أيضًا لأنه لا مسلم في العالم يقبل أن تتم إهانة سيدنا عيسى أيضا ولا حتى أي نبي من الأنبياء الآخرين ولا حتى المصلحين الكبار أو إهانة شعوب بكاملها حتى لو كان لا يؤمن أو حتى يقتنع بأبطالها، كما أن ذلك يأتي في وقت خاص بعد كلمة البابا ومقالي (فرانكفورتر ألجماينه) و(لوفيجارو) وكأنه أمر مقصود تماما لاستفزاز المسلمين أو دفع المتطرفين منهم لمزيد من التطرف، خاصة أن البعض تساءل ومعه حق حول سبب وضع هذا العرض من الأساس علي جدول العروض في شهر نوفمبر ثم إعلان إلغاء العرض بهذه الصورة المسرحية خاصة مع ما صحب ذلك من أزمة غريبة غير مبررة في ألمانيا حيث فوجئنا بردود فعل حادة تجاه إلغاء العرض من قبل عديد من السياسيين الألمان وبالذات من قبل الاتحاد المسيحي الذين من المفترض أنهم يقومون علي حماية ودعم القيم المسيحية رغم إهانة العرض ليس فقط للرسول صلي الله عليه وسلم بل أيضًا لسيدنا عيسي عليه السلام حيث انتقدت المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل زعيمة الاتحاد المسيحي ذلك قائلة: (علينا أن نتنبه وألا نتراجع أمام التخويف الذي يقف وراءه إسلاميون راديكاليون مستعدون لارتكاب أعمال عنف).

بينما وصل الأمر بالمتحدث للشئون الثقافية للكتلة البرلمانية للاتحاد المسيحي (فولفجانج بورنزن) للقول بأن ذلك الإلغاء يمثل (ركوعًا للإرهابيين) وتشجيعًا للراديكاليين وسيزيد ممارسة الضغوط والتهديدات على ثقافتنا وديننا المسيحي، بينما رآه (بيتر رامساور) زعيم المجموعة البلدية للحزب المسيحي الاجتماعي بأنه ليس سوى (جبن خالص)، بينما تحدث آخرون عما أسموه بخطورة أن يؤدي ذلك لممارسة رقابة ذاتية ولتهديد حرية الفن والتعبير، في الوقت ذاته قام عمدة برلين من الحزب الاشتراكي الديمقراطي (كلاوس فوفرايت) والمعروف بأنه شاذ جنسيًا وأثارت علاقته بصديقه ضجة في الساحة الألمانية بمهاجمة مديرة الأوبرا لقرارها إلغاء العرض قائلا : يجب أن نحيا بجرأة بقيمنا حول الانفتاح والتسامح والحرية' بينما وصف وزير الداخلية (فولفجانج شويبله (أيضًا من الاتحاد المسيحي إلغاء العرض بأنه (غير مقبول).

بالمقابل انتقدت صحيفة (فرانكفورتر روندشاو) موقف كل هؤلاء الذين أسمتهم بالجوقة التي انتقدت مديرة الأوبرا وقرارها بشجاعة واستياء رخيصين متحدثين عن جنون وركوع للإرهابيين، وأكدت أن السيدة (هارمز) تستحق الشكر لقرارها ذلك لأنها تصرفت بمسئولية وليس بالهيستيرية التي نراها .

* * *

ــ 12 ــ

الفاتيكان والمسلمون : الحوار المعلّق

أحمد النيفر (*)

جريدة الحياة 7/10/2006 ــ ص 26

لقد رحل البابا يوحنا بولس الثاني تاركا أمـام خلفـه ثلاث معضـلات كـبرى لا مفـرّ من مواجهتها :

(1) الحاجة إلى إعـادة تنظيم الإدارة البابـــــــــوية المعروفـة باســـم : La curie والـتي أضـحت تشـكو من تضـخّم عـددي وتشـابك مريـر في التوجّهـات والـرؤى والمصالح.

(2) ضرورة التصـدّي للـتراجع الأكيـد لفاعليـة الخطـاب الكـاثوليكي في أوروبـا نتيجـة إعراض واضح عن جانب هام من تعاليم الكنيسة وقيمها وأنظمتها الطقوسية.

(3) حتمية مواجهة التحدّي المتواصـل لحـراك ديـني صـادر من خـارج أوروبـا إمّـا من بلـدان العـالم الثـالث والمتعلّـق بالإسـلام والمسـلمين أو من ثقافـات القـارّتين الإفريقية والآسيوية ومعتقداتهما وإما من الولايات المتحّـدة عـبر نشـاط تبشـيري مكثّف لمذاهب مسيحية غير كاثوليكية.

جماع هذه المعضلات يتعلّـق باستشراف مستقبل الكنيسة في أوروبا والعالَم، مـا أثبتته المتابعة المتأنيّة لمسيرة البابا "بينيديكتوس السادس عشر" حتى قبل أن يُنتخب حبرًا أعظم، هو أنه ومجموعة من رجال الدين الكاثوليـك يستشـرفون المسـتقبل دون رؤية تركيبيـة للـذات بحاضـرها وماضـيها في علاقتهـا بـالآخر أي دون القيـام بمراجعـة حقيقية للإرث العقدي والفكري؛ هذا الوضع أذكى لديهم تنكّرا أكـبر للعـالَم من حـولهم وإحجاما أشدّ عن أيّ تواصل إيجابي مع الإسلام، أقرب الرسالات إليهم ثقافيًا.

ما استقرّ عليه رأي البابا الجديد ومن معه ومنذ زمن لمواجهـة المعضـلات الثلاث الكبرى هو ضرورة التخلّص من معوّقات المحافظين التقليديين في الكنيسـة من جهـة والقطع مع دعاة الانفتاح والتجديـد من رجـال الإصـلاح في داخـل الحـرم الكنسـي من جهة أخرى.

(*) الكاتب مفكر إسلامي تونسي عريق.

بموازاة ذلك كانت أولى سمات هذا التيار الجديد هي مهمّته الرسالية الــتي ليس لها من غاية إلاّ استعادة أوروبا "عافيتها المهـددّة بتفسّـخ كامـل" نتيجـة ضـياع المعـنى وتنكّر للإيمان، في هذا يقـول الكاردينـال راتسـينجر قبـل أن يصـبح الحـبر الأعظم في محاضرة له ببرلين في 28/11/2000 : " يعاني الغرب من تنكّرٍ حاقد على الذات هو أقرب إلى الحالة المَرَضيّة ؛ إنه في انفتاحه المتفهّم للقيم الوافـدة عليـه أضـحى كأنّـه يكـره نفسـه إذ لم يعـد يـرى في تاريخـه إلاّ كـلّ نقيصـة تحـطّ من شـأنه وتهـدّم من كيانه،لقد فقد الغرب كـل قـدرة على إدراك مـا عظُم من الأمـور ومـا خلُص منها، **مـا تحتاجــه أوروبــا إن أرادت لنفســها النجــاة هــو استســاغتها لهويّتهــا، استساغة متواضعة ونقدية، أمّا مـا نشـاهده من تشـجيع مشـبوب للتلاقح الثقافي فإن مآله في الغالب حالة تَخَــلٍ لأوروبـا عن خصوصـيتها ونبـذٍ لذاتيتها"**.

لهذا لم يكن من المستغرب أن يستشهد البابا في محاضـرة جامعـة "راتيسـبون" بالإمبراطور البيزنطي مانويل الثـاني بـاليولوغوس (1350ــ 1425)، كـان الإمـبراطور العــالم يجــادل المســلمين في دينهم في زمن عصــيب يعــاني فيــه من ويلات حصــار العثمانيين لملكه وتهديدهم لكيانه السياسي والديني من جهة ومن عدم اكتراث ملــوك أوروبا وكنيستها بمصيره وإهمالهم مساعيَه الحثيثة في طلب نجدتهم، لـذلك فـإذا كـان الفاصل الزمني بين البابا والإمبراطور البيزنطي تجاوز ستة قرون فإن ما يجمع بينهمـا في مستوى الشعور هو هذا الإحسـاس المُقِضّ بـأنّ الكنيسـة في حالـة حصـار يتطلّب تحصينا وحماية متواصلين. تلك هي إحدى خلفيات السياق الجديد الذي يسعى فيه البابا إلى إنقاذ أوروبا من براثن نبوءة مشبوهة للمؤرخ "برنار لويس" الـتي قـرعت مسـامع الكثيرين والتي ذكر فيها أنّه : " لن ينقضيَ هذا القرن حتى تصبح أوروبا مسلمة".

من ثم جاز للبعض أن لا يرى فرقا بين وضع كنيسة رومـا اليـوم وكنيسـة بيزنطـة بالأمس، إذ تبدو الحصـون في الحـالتين مهـددة من الـداخل ومن الخـارج رغم كـلّ مـا اعـترى جـوانب أخـرى من المشـهد من تغيـيرات جذريـة لا يمكن أن يغفـل عنهـا أيّ تشخيص موضوعي للسياق الأوروبي المعاصر.

لذلك فإن ما ينبغي التأكيد عليه هو أن هذا التوجّه الحمائي الذي انخرط فيه خــط البابا والمحافظين الجدد في كنيسة روما لم يبق دون تأسيس نظريّ جلب لهم إنصات عدد من المفكرين الأوروبيين وأحيانا تقديرهم.

لعلّ أفضل مثال عن هذه المتانة الفكرية التي حرص عليها البابا وهـو المـبرز في المجالين اللاهوتي والفلسفي قـد تمثّـل في حـواره الطويـل مـع الفيلسـوف الألمـاني الكبير "يورجن هابرماس" ضمن لقاء فكري دعت إليـه الأكاديميـة الكاثوليكيـة لبافاريـا في مدينة ميونيخ شـهر ينـاير 2004م، نُشـر الحـوار الـذي تنـاول "الأسـس الأخلاقيـة للفـــكر السياسـي في الدولـة الليبراليـة"، بعـد ذلـك في مجلّـة"إيسـبري" (Esprit)

الذائعة الصيت في عدد يوليو 2004 ليؤكد جملة من الأمور كان في مقدّمتها ذلك الاختيار التأصيلي لتيار الكاردينال "يوسف راتزينجار" : لا مجال لمهمّة الكنيسة الرسالية أن تتجسّد إلا بحضور فعليّ واستيعاب حقيقيّ للتوجهات الفكرية والفلسفية في الغرب المعاصر. عندئذ وعندئذ فقط يمكن للكنيسة الكاثوليكية أن ترفع عقيرتها بالشعار الذي يلخّص مهمّتها الرسالية المعاصرة : " بدون المسيح لن تكفيَ أنوار العقل لإضاءة سبيل الإنسان والعالَم".

من جهة ثانية فإن ذلك الحوار الثريّ كان في تناوله لأزمة العقل والدين في المجتمعات المعلمَنَة في ما بعد الحداثة يتجاوز المدرسة الوضعية تجاوزا حدّيًّا في قولها بالفصل بين المجال النظري وما اتصل به من مسائل الطبيعة والعلوم الدقيقة وبين المجال العملي وما ارتبط به من قيم ذاتية كالدين والأخلاق والحريّات، لقد كان من أهمّ ما تناوله كلٌّ من الفيلسوف ومن رجل الدين في ذلك الحوار هو نقد فلسفة الأنوار وما تولّد عنها من إدخال العقل في المجتمع إلى درجة أدّت في القرن العشرين إلى تحطيم القيم التي أسّسها العقل وإلى حروب ودمار ومحارق مايشهد عليه ذلك الحوار هو أن "هابرماس" في تطويره لفكر "مدرسة فرنكفورت" وفي تجاوزه لفلسفة "أوجوست كونت" يلتقي جزئيا مع من سيصبح حبرًا أعظم للكنيسة الكاثوليكية إنّه يؤكد أن الفلسفة ملزَمَةٌ بأن تأخذ الدين مأخذ الجِدّ في المستوى المعرفي، هذا في حين يعلن معه الكاردينال راتسينجر رئيس مجمع عقيدة الإيمان عندئذ ضرورة تجاوز انحراف الفلسفة المعاصرة التي ظنّت أن الثورة العلمية المنتصرة تتيح للعقل أن يُحَكَّم في كل المجالات.

ما يعنينا اليوم من هذا الحوار هو ذلك المسعى الحثيث لتيار الكاردينال في حضورٍ ومواكبةٍ فعليين ضمن المجال الفكري المعاصر تحقيقا لريادة يريد أن يكون حقيقا بها في غرب يسعى إلى تنصيره من جديد.

من هنا يمكننا أن نفهم جانبا من قلّة اكتراثه بالحوار بين الأديان عامّة والإسلام خاصة إنها مرّة أخرى مشكلة المركزية الأوروبية في صيغة جديدة.

لكن يبقى بعد ذلك جانب آخر لا بد من ذكره بعد توضيح تصوّر البابا الحالي لطبيعة الكنيسة الكاثوليكية باعتبارها مؤسسةً أوروبية بالأساس بنية وفكرًا ومستقبلاً.

إن ما يُذكي تساؤل الطرف المسلم في شأن الحوار الإسلامي المسيحي الذي سار في تؤدة منذ ما يقارب نصف قرن هو <u>أن البابا في تعامله مع الإسلام خاصة ظل رغم عبارات المجاملة مصرّا على أن الحقيقة الدينية حكر على الكنيسة وأنه لا خلاص للإنسانية خارجها. مؤدّى هذا الموقف المبدئي هو أنّ صدقية الإسلام والمسلمين</u> في مشروع الحوار تصبح غير ذات موضوع، هذا إذا لم نعتبر الحوار مبارزة أو سجالا إنما

رأيناه إثراءً متبادَلا لتجربتين دينيتين مختلفتين أي إخلاص كلّ جهة لإيمانها وانفتاحا على الآخر.

* * *

ـ 13 ـ

هل يكفي تعديل بابا الفاتيكان تصريحاته السيئة للإسلام ؟

مصطفى محمود عبد الله

جريدة الأهرام 14/10/2006م

عاد بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر وللمرة الرابعة لتوضيح الفقرات المسيئة للإسلام التي استشهد بها خلال المحاضرة التي ألقاها في جامعة ريجنسبورج الألمانية في12 من سبتمبر الماضي من خلال طرح الفقرات التوضيحية مع تعديل النص عن طريق إضافة خمس إضافات توضح جليًا الفرق بين موقف الإمبراطور البيزنطي وموقف البابا الذي شعر بالحزن إزاء سوء فهم بعض ما جاء في محاضرته وأدى إلى ثورة عارمة واعتراضات غاضبة في العالم الإسلامي .

بالإضافة إلى حالة الخوف من أن تؤدي هذه الاحتجاجات والاعتراضات إلى التفاقم والتحول إلى أعمال عنف قد تؤدي إلى إلغاء أو فشل زيارة البابا القادمة إلى تركيا المقرر لها يوم28 من نوفمبر المقبل وخاصة أن البابا عارض كثيرًا قبل توليه كرسي البابوية حينما كان يحمل اسم الكاردينال جوزيف راتسينجر انضمام تركيا المسلمة إلى الاتحاد الأوروبي ووصفه بالخطأ الأكبر .

هذا وكان النص الذي تم توزيعه علي الصحفيين قبل إلقاء البابا لمحاضرته قد تضمن ملحوظة ختامية تفيد بأنه نص مؤقت وليس النص النهائي الذي صدر يوم الاثنين الماضي والذي ذكر أن البابا سيطرح في وقت لاحق صياغة جديدة تتضمن ملاحظات أخري !

ومن بين التعديلات الجديدة يشير النص إلى استشهاد البابا لكلام الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني باليجوس الذي قال : (إن النبي محمد صلي الله عليه وسلم جاء بما هو سيئ وغير إنساني) ، وقد أوضح التعديل الفقرة التالية : " لقد فهم هذا الاستشهاد في العالم الإسلامي على إنه موقفي الشخصي لأسف الشديد مما أثار استنكارا يمكن تفهمه " .

وآمل أن يفهم قارئ النص علي الفور إن تلك الجملة لا تعبر عن تقييمي الشخصي للقرآن الكريم الذي اكن له الاحترام الواجب للكتاب المقدس لدين عظيم، وعندما استشهدت بنص الإمبراطور البيزنطي، كنت اقصد فقط توضيح العلاقة

الجوهرية بين الإيمان والعقل وفي هذه النقطة فأنا اتفق مع مانويل الثـاني بـاليجوس، ولكن دون أن أتبني عباراته الجدلية ".

وهناك عبارة أخري تتعلق بالجهاد وردت لكلمـات الإمـبراطور الـذي استشـهد بها البابا وهي " إن عدم التصـرف وفقا للعقل يتعـارض مع طبيعة الرب، وقد أضـاف إليها البابا ملحوظة أخـــري في النص الجديد حيث يقـــول : " من أجل هـــذه العبـــارة فقط اقتبست الحـوار بين الإمـبراطور ومحدثه الفارسي ومن هـذه العبـارة يـبرز موضـوع تأملاتي التي تلتها ".

إن التعـديلات الخمس الصـغيرة الـتي ادخلها البابا علي النص الأصـلي تتمثل في كلمـات مفـردة أو جمل إعتراضـية، فمثلا الخطأ الـذي وقع فيه البابا عنـدما استشـهد بالآيـــة القرآنية "لا إكـــــــراه في الديـــــــن" (2:256) على أنها مكية، والحقيقة أنها مدنية تعتـبر الدعامة النصـية الأولى للحرية الدينية في الإسـلام على أسـاس أنها تعـود إلى الفقرات الأولى من حياة الرسول الكريم عندما كـان مهـددا وبلا سـلطة فقد جـاء التعـــديل تحت عبـــارة " من المـــرجع أنها إحـــدى ســـور الفـــترة الأولى عنـــدما كـــان محمد(عليه الصلاة والسلام) خلالها مهددًا وبلا سلطة".

وهنـــاك تعـــديل آخر يتضـــمن الحكم الـــذي وصف به إيمانويل الثـــاني الرســـول الكـريم(بالحـاد بشـكل يثـير الدهشة)، حيث أصـبحت العبـارة في النص الجديد " حـاد لدرجة تصبح بالنسبة لنا غير معقول ".

بينما آخر التعديلات فقد أضيفت علي اقتباس البابا لبعض كلمات الإمـــبراطور في إشارة إلى أن المتحدث ليس البابا وإنما الإمبراطور .

وكـان بابا الفاتيكـان بنـديكت السـادس عشر قد أعـرب من قبل ثلاث مـرات في كلماته العلنية ولقـــاءه مع22 من ســـفراء الـــدول ذات الأغلبية الإســـلامية، فضلا عن البيانات الرسمية الصادرة من الفاتيكان عن اسفه الشخصي لردود الفعل الغاضبة من جانب المسلمين وقـال : " انه وبحق فقد كـان من خلال الاقتبـاس والاستشـهاد لرواية تعود إلى القرون الوسطي لا تعـبر بـأي شـكل من الأشـكال عن أفكـاري الشخصـية"، وأضـاف البابا إن كلمته الـتي تحـدث فيها عن الإسـلام كـانت دعـوة لحـوار صـريح بين الأديان من خلال الاحترام المتبادل معربا عن أمله في أن تسـاهم إيضـاحات الفاتيكـان وشـرح سـكرتير عـام دوله الفاتيكـان للمعـني الصـحيح لكلماته كافيا لتهدئة النفـوس وإيضاح موقفه.

وأخيرًا هل تكفي التعـديلات البسـيطة الـتي ادخلها بابا الفاتيكـان علي خطابه في الجامعة الألمانية لتهدئة ثورة العالم الإسـلامي ولإنجـاح زيارته المرتقبة إلى تركيا ؟ أم أن الأمر سيتطلب إدخال تعديلات أخرى علي نص الخطاب إرضاء لمشاعر المســلمين ومن اجل تدعيم الحوار بين الكنيسة الكاثوليكية والإسلام كما أكد البابا اكـثر من مـرة،

أم سيقدم البابا في ظاهرة غير مسبوقة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية اعتذارا رسميا لتصريحاته ليس امتثالا للغضب الإسلامي فقط بل لمطالب الغالبية العظمي من الصحف الغربية وخاصة صحيفة نيويورك تايمز التي كتبت في افتتاحية عددها الصادر يوم السبت16 سبتمبر الماضي مطالبة البابا باعتذار وصفته بأنه يجب أن يكون عميقا ومقنعا وعقبت قائلة في نفس الافتتاحية : "إن العالم يستمع باهتمام لكلمات أي بابا، وإنه من الخطير والمؤلم أن ينشر أحد ما الألم سواء عامدا أو غير مكترث.. إن البابا بحاجة إلي أن يقدم اعتذارًا عميقا ومقنعًا ليبين أن الكلمات يمكن أيضًا أن تشفي الجراح ".

* * *

ـ 14 ـ
رد الدكتورة زينب عبد العزيز
أستاذة الحضارة الفرنسية
نشر بجريدة الأهرام القاهرية يوم 14/10/2006م (ص 3)
ضمن "حديث الإفك"
وهو التحقيق الذي قدمه الأستاذ / عزت السعدني

حضرة المحترم أسقف روما، ومندوب يسوع المسيح، وخليفة أمير الرسل، والحبر الأعظم للكنيسة العالمية، وكبير أساقفة إيطاليا، والمطران الأسقفي للمقاطعة الرومية، ورئيس دولة مدينة الفاتيكان، وخادم خدّام الله، ولم أذكر" باتريارك الغرب" لأنكم تنازلتم عنه، كما لا يجوز لي إغفال لقب : رئيس مكتب عقيدة الإيمان (محاكم التفتيش سابقا)، و الأستاذ المتفرغ بالجامعات الألمانية، البابا بندكتوس السادس عشر :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

أبدأ بهمسة عتاب كزميلة في اللقب الجامعي ــ وهو المستوى الذي يدور في نطاقه هذا الخطاب ــ وكإنسانة مسلمة، نالها من الإهانة والمرارة والألم ما نال المسلمين في العالم أجمع مما ورد في المحاضرة التي ألقيتموها، في جامعة راتيسبون بألمانيا، تحت عنوان : " العنف يتعارض مع طبيعة الله ومع طبيعة الروح".

فمن يحمل على كاهله أمانة ومسئولية كل هذه الألقاب، عار عليه أن يتدنى إلى مستوى السب العلني لدين يتمسك به ويتّبعه أكثر من خمس سكان العالم، وعار عليه أن يختار موقف التحدي الاستفزازي للنيل من الإسلام والمسلمين، وهو موقف يندرج بلا شك ضمن مسلسل الإساءة والمحاصرة الذي بدأ منذ بداية انتشار الإسلام و يتواصل حتى يومنا هذا ؛ أنه موقف وضعكم على أرض احتقار الآخر، والكذب، والجهل، باختياركم، وكلها تشبيهات لا تليق بمن في مثل منصبكم، فهو موقف يكشف عن مدى

جهلكم بـدينكم وبـدين الآخـرين من جهة، ومن جهة أخـرى، هو موقف أشـبه ما يكـون بإطلاق العنان لحملات صليبية جديدة ما أغنانا جميعا عنها.

وتؤكد جريدة "لاكروا " المسيحية الصادرة في 17/9/2006، أن المحاضرة قد تم الإعـداد لها طويلا، وقرأها العديد من المحيطين بكم، مثلما يحـدث مع كافة النصـوص العامة على الأقل. كما تؤكد الجريـدة أنه منذ يـوم الأثـنين 11 /ـ 9، و " بينما لم يكن البابا قد نطق محاضرته بعد، صدرت الصحف الإيطالية بعناوين حول بنديكت السـادس عشر و الإسلام " ! الأمر الذى يؤكد ربط هذه المحاضـرة في هـذا التـوقيت بمسـرحية الحادي عشر من سبتمبر !.. فما أصبح معروف يقينًا رغم التمويه الشـديد، أن الأيـادي المـدبرة أمريكية رفيعة المسـتوى. وكـان هـدف المحاضـرة واضـحا في ربطه بين الإسـلام والإرهاب والشـر.. أي أنه موقف متعمّد.

وحتى التصريح الصـــادر عن المكتب الإعلامي للفاتيكـان يـوم السـبت 16/9/ 2006 والذي استشهد فيه المتحدث الرسمي بقرار وثيقة " في زماننا هـذا " الصـادرة عن مجمع الفاتيكان الثاني سـنة 1965،ـ فهو أيضا بمثابة عـذر أقبح من ذنب، ويكشف عن الموقف غير الكريم والملتوي ــ لكي لا أقول ذو الوجهين للفاتيكان.

فمن يطّلع على محاضر صياغة هذا النص تحديدا يندهش من كثرة ما جاهد كاتبوه لاسـتبعاد أن العـرب من سـلالة إسـماعيل، الابن البكر لسـيدنا إبـراهيم، ولا ينتمـون إليه، وإنما يتخذونه مثلاً.

واستبعاد حتى أن الله قد خاطب المسـلمين عن طريق الـوحي إلى سـيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والمرجع صادر عن الفاتيكان بعنـوان " الكنيسة والـديانات غـير المسيحية"، وبه محاضر الجلسات المخجلة، الأمر الذي يوضح مدى تمسككم باستمرار ذلك الموقف غير الأمين تجاه الإسلام و المسلمين، لعدم الاعتراف به كديانة توحيدية.

تعتبرون سيادتكم أن نصوص الكتاب المقدس بعهده القديم القـائم على الترجمـة السبعينية وأناجيله الأربعة وباقي الكتب المرفقة هو الكتاب الذي يعتد بـه فهـو يحتـوي على الإيمـان الإنجيلي وتسـتعينون بفكـره طـوال محاضـرتكم بعـد اسـتبعاد القـرآن، والمعروف تاريخيًا أن القديس جيروم هو الذي صاغه بأمر من البابا دامـاز بعـد توليفـه من أكثر من خمسين إنجيلاً كانت منتشرة ومستخدمة حتى القرن الرابع.

ولا تفوتنا هنا الإشارة إلى ندوة "عيسى" التي عقدت في الولايات المتحـدة سـنة 1992 وأن أهم ما خرج به فريق العلماء المساهمين فيها وهم نحو 200 باحث لاهوتي وأكاديمي، أن 82 % من الأقوال المنسوبة إلى يسوع لم يتفوه بها وإنمـا صـاغها كتبـة الأناجيل.

وما تــذكره المراجع التاريخية والعلمية عن عمليــات التعــذيب التي تفننت فيها محاكم التفتيش من حرقها الناس أحياء أو خزء عيونهم أو انتزاع لسانهم وهم أحيـاء أو دهن أرجلهم بـــالزيت ووضـــعها فـــوق النـــار بعد ربطهم حـــتى لا يتحركـــون من أماكنهم ليصيب القارئ بالغثيان.

وما كتبه القس بارتولوميه دى لاس كازاس عن وحشية أعمال المبشرين ورجال الكنيسة وجنودها عند غزوهم شـعوب أمريكا الجنوبية يفـوق الخيـال فى بشـاعته، ولم يُسمح بنشر مذكراته إلا في أواخر القرن العشرين.

الأستاذ والباحث المبجل، إن كل ما تقدم وأكثر منه بكثير هو ثـابت علميا وتاريخيا ووثائقيا، بل أكثر منه جد كثير ولا يسع المجال هنا لذكره، إنها مجرد شذرات.

أنتقل بعد ذلك إلى مجمع الفاتيكان الثاني وقراراته سنة 1965 التي تمثل خروجا سافرا على نصوص و تعاليم العهد الجديد، والتي تمثل جزءا كبيرا من المشـكلات التي تواجه العالم حاليا. فعلى الرغم من اتهامكم اليهود في قداس كل يـوم أحد بـأنهم قتلة الـرب، وعلى الـرغم من وجـود أكـثر من مائة آية صـريحة الوضـوح في اتهامها بالعهد الجديد، نص ذلك المجمع من ضمن ما نص عليه فى نصوصه المتعددة، على :

تبرئة اليهود من دم المسيح.

توصيل الإنجيل إلى كل البشر.

وهنا تجدر الإشارة إلى خطـابكم الرسـولي الأول " الله محبة "، ولا يسع المجـال لتناولـه بالتفصيل، فقد أفردت له مقالا آنذاك بعنوان " تنازلات على نغمة المحبة " !

ومن أهم ما يجب الإشارة إليه اعتباركم أن اليهود والمسيحيين وحدهم هم الـذين يعبــدون الله الحقيقي، ثم قيــامكم بالربط بين الإســلام والانتقــام و الكراهية والعنف باسم الله.

ماذا نحن صانعون ؟

هل نظل كما نحن دائمًا ضائعين تائهين متفرقين، نصرخ وحدنا في البرية ويتحدث بعضـنا إلى بعض حـديث الطرشـان، ونتكلم مـع أنفسـنا ولا نتكلم مـع الآخـرين بلغتهم وبمنطقهم وفي بلادهم وفي صحفهم وعلى شاشات محطاتهم التليفزيونية.

لماذا لا يتبرع أمير من أمراء النفط بمسـاحة يوميـة يشـتريها في صـحف عالميـة مثل النيويورك تايمز والهيرالد تريبيون والفرانس سوار والكوردنيري ديلا سوا الإيطالية يكتبها علماء مسلمون متنورون بلغة أهل البلاد.

لماذا لا نقيم محطة لدين الله باللغة الإنجليزيـة لشـرح سـماحة الإسـلام وعظمـة الإسلام ؟

لماذا لا يقوم فريق مشترك من شيخ الجامع الأزهر وبابـا الإسـكندرية برحلـة إلى العواصم الأمريكية والأوروبيـة يشـرحون للغـرب سـماحة الإسـلام وعظمـة المسـيحية ورحلة رفاق عمرها خمسة عشر قرنًا في أرض الحضارة ؟

لماذا لم يتحرك المؤتمر الإسلامي ولـه سطوته واتصالاته وتأثيراته حتى الآن ؟

لماذا لم يرسل الصديق عمرو موسى الأمين العـام لجامعـة الـدول العربيـة وفـدًا رفيع المستوى فكريًا وثقافيًا ودينيًا وتنويريًا، لشرح طبيعة الإسلام وسماحته.

ألف لماذا ؟ ولا جواب واحد.

* * *

ـ 15 ـ
رسالة العلماء إلى بابا الفاتيكان
جريدة المصري اليوم 15/10/2006م

وجه ٣٨ مفتياً وعالماً وداعية من كبار علماء المسلمين رسالة مفتوحة إلي بابا الفاتيكان بنديكيت السادس عشر للرد علي تصريحاته المسيئة للإسلام خلال محاضرة لـه في ألمانيا، يدعونه إلى تجنب أخطاء الماضي من أجل العيش في سلام، وأكدوا في رسالتهم التي ستقدم إلي الفاتيكان اليوم «الأحد» أن الإسلام ليس دين عنف وكراهية، مدللين على ذلك بآيات من القرآن الكريم.

ومن أبرز الموقعين على الرسالة الدكتور علي جمعة «مفتي الديار المصرية»، والدكتورة عبلة الكحلاوي «الأستاذ بكلية الدراسات الإسلامية بنات ببورسعيد»، والدكتور طارق سويدان «الداعية الإسلامي»، والشيخ الحبيب علي الجفري «الداعية الإسلامي»، إضافة إلى مفتيو روسيا والبوسنة وكرواتيا وكوسوفو وتركيا وأوزبكستان، وسلطنة عُمان والأردن، و٢٦ من كبار العلمـاء المسـلمين يمثلون ١٠ دول إسلامية، وفيما يلي نصها :

« نحسب أنه من الملائم ضمن سياق روح النقاش المفتوح وفيما يتصل بمحاضرتكم التي ألقيتموها في جامعة رجنسبورج في ألمانيا بتاريخ ١٢ سبتمبر ٢٠٠٦، أن نتناول استخدامكم لمناظرة جرت بين الإمبراطور مانويل الثاني باليولوجوس ورجل «فارسي مثقف»، كنقطة بداية لخطابكم حول العلاقة بين العقل والإيمان، ففي الوقت الذي نطري فيه جهودكم التي تبذلونها في معارضة هيمنة الفلسفة الوضعية والمادية في حياة الإنسان، لابد لنا أن ننوه إلي بعض الأخطاء التي وردت في إطار

الطريقة التي أشرتم فيها إلي الإسلام على أنه الجهة المقابلة للاستعمال المناسب للعقل، بالإضافة إلى بعض الأخطاء التي وردت في التأكيدات التي سقتموها لدعم حجتكم.

«لا إكراه في الدين» :

لقد ذكرتم بأنه «وفقاً لما يقرره أهل الدراية» فإن الآية القرآنية التي مطلعها « لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ » (البقرة، آية ٢٥٦)، كانت في بداية أمر النبي عندما «كان ضعيفاً وتحت التهديد»، وهذا غير صحيح، والصحيح الثابت أن هذه الآية تعود إلي الوقت الذي كان فيه الترتيل القرآني متوافقاً ومنسجماً مع واقع السيطرة السياسية والعسكرية للأمة الإسلامية الفتية لم تكن آية « لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ » أمراً للمسلمين بالبقاء ثابتين راسخين أمام رغبة الذين ظلموهم وعذبوهم لإرغامهم علي التخلي عن دينهم وإيمانهم، ولكنها جاءت تذكيراً للمسلمين أنفسهم عندما تحققت لهم أسباب القوى والمنعة أنه ليس باستطاعتهم أن يرغموا قلوب غيرهم ويحملوها علي الإيمان، « لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ » تخاطب أولئك الذين هم في حالة القوة وليس الضعف، ولقد بينت التفاسير الأولي للقرآن الكريم (مثل تفسير الطبري) بأن المسلمين في المدينة أرادوا إرغام أبنائهم ليتحولوا من اليهودية أو النصرانية إلى الإسلام، فكانت هذه الآية جواباً دقيقاً لهم بألا يحاولوا أن يكرهوا أبناءهم حتى يدخلوا في الإسلام، هذا بالإضافة إلي أن المسلمين لديهم أيضاً توجيهات قرآنية هادية في هذا الصدد مثل: « وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ » (الكهف، آية ٢٩) ؛ وأيضاً : « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ » (الكافرون، آية ١-٦).

تنزيه الإلـــه :

لقد قلتم أيضاً إن : « الإله، بالنسبة إلي التعاليم الإسلامية، منزه تنزيهاً مطلقاً بتبسيط يمكن أن يكون مؤداه مضللاً »، فلقد بين القرآن أنه : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » (الشورى، آية١١)، ولكنه بين أيضاً : « اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ » (النور، آية ٣٥)، وقال : « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » (ق آية ١٦)، وقال : « هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ » (الحديد، آية ٣)، وقال: « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ » (الحديد، آية ٤)، وقال : « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ » (البقرة، آية ١١٥) ؛ وكذلك دعنا نتذكر حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي يبين فيه أن الله يقول في العبد الصالح : « فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها » (صحيح البخاري ٦٥٨١، كتاب الرقاق).

وفي مجال التعليم المتعلق بالروحانيات وعلم الكلام والفلسفة، يعتبر المفكر ابن حزم (المتوفي ١٠٦٩م) الذي استشهدتم به شخصية هامشية جداً ــ وإن كان ذو شهرة ــ وهو ينتمي إلي المدرسة الفقهية الظاهرية التي لا يتبعها أي مسلم في العالم اليوم،

وإذا أراد إنسان البحث عن عبارات ونصوص أصيلة بشأن عقيدة التنزيه، فإن هناك شخصيات أهم بكثير من ابن حزم من حيث تأثيرهم ومرجعيتهم في مجال العقيدة الإسلامية مثل الإمام الغزالي (المتوفي ١١١١م).

لقد اقتبستم مناقشــة مفادها أنه بسبب أن الإمبراطور « كان متأثراً بشــدة بالفلسفة اليونانية »، فإن فكرة أن « الله لا يرضي عن سفك الدماء » « أمــر بدهي » بالنسبة له، وأنها بالنسبة للتعليم الإسلامية بشأن تنزيه الإله عرضت كنموذج مقابل، فقولكم إن إرادة الله بالنسبة للمسلمين «غير مقيدة بأي مقولة من مقولاتنا»، يعتبر تبسيطاً أيضاً يمكن أن يفضي إلي سوء فهم. إن لله في دين الإسلام أسماء كثيرة منها : الرحيم والعدل والبصير والسميع والعليم والودود واللطيف، وأن اعتقاد المسلمين التام بوحدانية الله وأنه « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ » (الإخلاص، آية ٤)، لم يؤد إلي إنكارهم نسبة هذه الصفات إلي الله وإلي خلقه، (مع الوضع جانباً الآن فكرة «المقولات»، وهي عبارة تحتاج إلي إيضاح أكثر في هذا السياق)، وحيث أن هذا أمر يتعلق بإرادة الإله، فاستنتاجكم أن المسلمين يؤمنون بإله مزاجي يمكن أن يأمرنا بالشر أو يمكن ألا يفعل، من شأنه إن يغفل قول الله في القرآن : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » (النحل، آية ٩٠)؛ تماماً كما يغفل قولـه تعالى : « كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » (الأنعام، آية ١٢، انظر أيضاً آية ٥٤)؛ وبأنه قال: « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ » (الأعراف، آية ١٥٦)، وإن كلمة رحمة يمكن أيضاً أن تترجم إلي الحب واللطف والشفقة، ومن كلمة الرحمة جاءت العبارة المقدسة التي يستعملها المسلمون يومياً، «بسم الله الرحمن الرحيم»، فهل هو أمر غير بدهي أن سفك دم بريء يتعارض مع الرحمة والشفقة ؟

استعمال العقل :

إن التعاليم الإسلامية غنية بتنقيباتها وبحوثها في طبيعة الذكاء الإنساني وعلاقته بكنه الإله وإرادته، ويتضمن ذلك تساؤلات بشأن ما هو بدهي وما هو غير بدهي، لكن الفصل بين العقل من جهة والإيمان من جهة أخري لا يوجد بنفس هذا الشكل تماما في الفكر الإسلامي، بل أدرك المسلمون قوة الذكاء الإنساني وحدوده بطريقتهم الخاصة، مقرين بتسلسل هرمي للمعرفة يقع العقل في جزء مهم جداً منه، وهناك تطرفان عمل المنهج الفكري الإسلامي الأصيل علي تحاشيهما عموما: الأول جعل العقل التحليلي هو الحكم النهائي علي الحقيقة، والآخر، هو إنكار قوة الإدراك الإنساني في تناول التساؤلات المطلقة، و الأهم من ذلك بكثير أن البحوث الفكرية للمسلمين خلال العصور في أنماطها الأكثر نضجا ورواجا قد حافظت علي انسجام وتوافق بين حقائق التنزيل القرآني ومطالب الذكاء الإنساني دون التضحية بأحدهما من أجل الآخــر، يقول الله تعالى : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ

لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » «فصلت٥٣»، هذا وإن العقل آية من بين آيات كثيرة بداخلنا، دعانا الله للتأمل فيها والتأمل بها، كوسـيلة لمعرفة الحقيقة.

ما الحرب المقدسة ؟

نود الإشارة إلى أن «الحرب المقدسة» مصطلح ليس له وجود في المفردات الإسلامية، بينما يوجد الجهاد ولابد من التأكيد هنا أنه يعني المجاهدة والمناضلة، وخصوصا الجهاد في سبيل الله، إن هذا الجهاد يمكن أن يأخذ أشكالا كثيرة بما في ذلك استخدام القوة، وبالرغم من أن الجهاد يمكن أن يكون مقدسا إذا كان في سبيل غاية قدسية، إلا أنه ليس بالضرورة أن يكون «حربا»، وعلاوة علي ذلك تجدر الملاحظة إلي أن مانويل الثاني باليولوجوس يقول بأن «العنف» يتعارض مع طبيعة الإله، ولكن المسيح نفسه استعمل العنف ضد صرافي الأموال في المعبد وقال: « لا تظنوا أنني أتيت لأجلب السلام في الأرض، لم آت لجلب السلام ولكن جئت بالسيف » (متي: ٣٤-٣٦)، وعندما أغرق الله فرعون، هل كان يتصرف علي عكس طبيعته ؟ ربما قصد الإمبراطور القول بأن القسوة والوحشية والعدوان ضد طبيعة الإله، وهذا ما يؤكد عليه فقه وقانون الجهاد التقليدي الأصيل في الإسلام تمامًا.

لقد قلتم بأن الإمبراطور علم بالطبع التعليمات التي طورت فيما بعد ودونت في القرآن فيما يتعلق بالحرب المقدسة، ولكن كما أشرنا أعلاه بخصوص لا إكراه في الدين، فإن التعليمات آنفــة الذكــر لم تكن « فيما بعد» علي الإطلاق، وعلاوة علي ذلك، تبين أقوال الإمبراطور حول اعتناق الدين بالعنف بأنه لم يكن يدري ما هي هذه التعليمات وكيف كانت دائمًا.

ويمكن تلخيص القواعد الإسلامية الأصيلة المعتمدة الخاصة بالحرب في المبادئ التالية :

(1) غير المقاتلين ليسوا أهدافا جائزة أو شرعية، ولقد تم التأكيد علي هذا مرارا وبشكل واضح من قبل النبي وأصحابه ومن قبل أهل العلم منذ ذلك الحين.

(2) الاعتقاد الديني وحده لا يجعل أي إنسان هدفا للنيل منه، فالمجتمع الإسلامي الأول كان أفراده يقاتلون وثنيين قاموا بطردهم من ديارهم وظلمهم وتعذيبهم وسفك دمائهم، وبعد ذلك كانت الفتوحات الإسلامية ذات طبيعة سياسية.

(3) المسلمون يمكنهم أن يعيشوا بسـلام مع جيرانهم وينبغي عليهم ذلك،« وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» «الأنفال، ٦١»، ومع ذلك، فهذا لا يمنع حقهم الشرعي في الدفاع عن أنفسهم والحفاظ علي سيادتهم واستقلالهم.

والمسلمون ملتزمون تماما بالتقيد بهذه القواعد كالتزامهم بالبعد عن السرقة والزنا وإذا نظم الدين تشريعا للحرب وحدد الظروف التي تجعله ضروريا وعادلا فذلك لا يجعل هذا الدين دينا عدوانيا، كما لو أن الدين وضع نظاما خاصا بالعلاقة الجنسية فإن ذلك لا يجعل الدين دينا شهوانيًا، وإذا استخف البعض بالتعاليم والمبادئ الراسخة بقوة وعلي مدي طويل من أجل أحلام يوطوبية حيث الغاية تبرر الوسيلة، فبذلك يكون فعلهم من قبيل الهوى والرغبة الخاصة وليس من جراء مرسوم أو قانون صادر عن الله أو عن نبيه أو عن أهل العلم، يقول الله في القرآن العظيم « وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» «المائدة ٥:٨»، وفي هذا السياق لابد من بيان أن جريمة القتل التي وقعت بتاريخ ١٧/٩/٢٠٠٦ وراح ضحيتها راهبة كاثوليكية بريئة ــ وأي أعمال عنف فردية مخزية وشائنة مماثلة أخري ـ كردة فعل لمحاضرتكم في جامعة رجنسبورج، هي لا تمت بصلة إلي الإســلام أبداً، ونحن ننكر مثل هذه الأفعال تماماً.

اعتناق الدين بالإكراه :

إن الفكرة التي مفادها أن المسلمين مأمورون بنشر دينهم «بالسيف» وأن الإسلام في الواقع انتشر بشكل هائل «بالسيف» لا يعضدها التدقيق وإمعان النظر، وحقيقة الأمر أن الإسلام من حيث كونه كيانا سياسيا فقد انتشر بشكل جزئي نتيجة للفتوحات لكن الجزء الأكبر من توسعه قد تحقق نتيجة النشاط الدعوى فالتعاليم الإسلامية لم تنص علي أن سكان البلاد المفتوحة يتعين إرغامهم أو إكراههم حتى يتحولوا إلى الإسلام، وفي الواقع، فإن كثيرا من المناطق الأولي التي فتحها المسلمون بقيت أغلب أجزائها غير مسلمة لقرون من الزمان، ولو أن المسلمين رغبوا بإكراه الناس جميعهم حتى يعتنقوا دينهم، لما بقي هناك كنيسة واحدة أو معبد يهودي في أي مكان من العالم الإسلامي، وأن الأمر الإلهي الذي تتضمنه آية « لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ » تعني الآن ما عنته في ذلك الوقت، وأنه لم يكن مجرد كون الشخص غير مسلم مبررًا شرعيًا للحرب قط لا في الشريعة ولا في العقيدة الإسلامية، وبالنسبة لقوانين الحرب، يبدي التاريخ أن بعض المسلمين قد خرقوا المبادئ الإسلامية فيما يتعلق بإكراه غيرهم علي اعتناق الدين وبمعاملة أقوام الأديان الأخرى، ولكن التاريخ يبدي أيضا بأن هذه التصرفات بلا أدنى ريب هي استثناء يثبت القاعدة، وإننا نوافق بالتأكيد علي أن إكراه الآخرين علي الاعتقاد ــ إن كان ذلك يتأتى حقيقة علي أي حال ــ هو أمر غير مرضي ــ عند الله، وأن الله لا يرضي عن سفك الدماء البريئة، ونحن في حقيقة الأمر نؤمن ويؤمن المسلمون دائماً بقول الله: « مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَــادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً » (المائدة ٥ : ٣٢).

شيء جديد ؟

لقد ذكرتم تأكيد الإمبراطور بأن «أي شيء جديد» جاء به النبي كان شريراً ولا إنسانياً، مثل أمره المزعوم بنشر الدين الذي يدعو إليه بالســيف، هذا وإن الأمر الذي فشل الإمبراطور في إدراكه ومعرفته ــ علاوة على أن واقع مثل هذا الأمر كما ذكر أعلاه ليس لـه وجود في الإســلام مطلقاً ــ وهو أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يدع أنه جاء بشيء جديد من الأساس، يقول الله تعالى في القرآن العظيم : «مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُــلِ مِنْ قَبْلِكَ» (فصلت آية ٤٣)، ويقول أيضًـا: « قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ » (الأحقاف آية ٩)،

وهكذا فإن الإيمان بالله الواحد ليس من خصائص أي دين دون غيره، ووفقاً للعقيدة الإسلامية فإن جميع الأنبياء الحقيقيين «عليهم السلام» كانوا يدعون أقواماً مختلفين في أزمنة مختلفة إلى الحقيقة ذاتها، فمن الممكن أن تكون الشرائع مختلفة، ولكن الحقيقة لا تتغير.

<u>أهل الدراية :</u>

لقد أشرتم مرة من دون تحديد إلي «أهل الدراية» بشأن الإسلام، وفعلياً قمتم أيضاً بنقل كلام عالمين كاثوليكيين بالاسم، الأستاذ عادل تيودور خوري والأستاذ المساعد روجر أرنالدز، ويكفي القول هنا أنه بينما يعتبر كثير من المسلمين أن هناك منصفين من غير المسلمين والكاثوليك الذين من الممكن أن يعتبروا حقيقة «أهل دراية» في دين الإسلام، إلا أن المسلمين لم يصادقوا حسب علمنا علي «أهل الدراية» الذين أشرتم إليهم ولا يقرون لهم بأنهم يمثلون المسلمين أو وجهات نظرهم، لقد كررتم بتاريخ ٢٥/٩/٢٠٠٦، ما جاء في بيانكم الهام في مدينة كولونيا في ألمانيا بتاريخ ٢٠/٨/٢٠٠٥، أن الحوار بين الأديان والثقافات فيما بين المسيحيين والمسلمين لا يمكن تقليصه إلى مستوى الشيء «الزائد الاختياري»، فهو في الواقع ضرورة أساسية حيوية يعتمد عليها مستقبلنا بمقدار كبير، وفي الوقت الذي نوافقكم فيه تماماً، إلا أنه يبدو لنا بأن جزءاً كبيراً من هدف الحوار بين الأديان، يكمن في أن نجاهد من أجل الإصغاء إلى الأصوات الفعلية لأولئك الذين نتحاور معهم، وليس فقط لأولئك الذين ينتمون إلى جماعتنا.

<u>النصرانية والإسلام :</u>

إن النصرانية والإسلام يعتبران الأكبر وثاني أكبر دينين في العالم وفي التاريخ، حيث يشكل النصارى والمسلمون حسب التقارير ثلث العالم وخمس العالم علي التوالي، وهم يشكلون معاً أكثر من ٥٥% من عدد سكان العالم، مما يجعل حسن العلاقة بين مجتمعات هذين الدينين أهم عامل من العوامل المساهمة في إحلال سلام مؤثر حول العالم، وباعتباركم قائداً لأكثر من مليار كاثوليكي ومثالاً أخلاقياً لكثيرين غيرهم في أرجاء المعمورة، فربما تكونون أنتم الصوت الأوحد والأهم في مواصلة

المضي قدماً في هذه العلاقة باتجاه التفاهم المتبادل، ونحن نشارككم الرغبة في إقامة حوار صريح مخلص وندرك أهميته في عالم يشتد الترابط فيه بشكل متزايد، وعند إقامة حوار مخلص صريح فإننا نأمل في الاستمرار ببناء علاقات وئام وصداقة مؤسسة علي الاحترام والإنصاف المتبادلين وعلي ما يجمعنا جوهرياً من الإرث المشترك المرتبط بالنبي إبراهيم «عليه السلام» وخصوصاً «الوصيتين العظميين» في إنجيل مرقص، ١٢: ٢٩ ـ ٣١، «وبشكل مختلف في إنجيل متي، ٢٢: ٣٧ ـ ٤٠» «الرب إلهنا رب واحد، وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك، هذه هي الوصية الأولى، وثانية مثلها هي تحب قريبك كنفسك ليس وصية أخرى أعظم من هاتين.

وعلى ذلك، فإن المسلمين يقدرون الكلمات الآتية الصادرة من مجلس الفاتيكان الثاني : « تكن الكنيسة أيضاً احتراماً عالياً للمسلمين، فهم يعبدون الله الواحد الحي القيوم الرحيم القادر، خالق السماوات والأرض، والذي كلم البشر أيضاً، وهم يجتهدون في الخضوع الكامل لأوامر الله دون تحفظ، تماماً مثل خضوع إبراهيم لقضاء الله، وهو الذي يربط المسلمين دينهم بدينه بشدة، وبالرغم من أنهم لا يقرون بأن عيسي المسيح إلــه، إلا أنهم يوقرونه باعتباره نبياً، وهم يجلون أمه العذراء أيضاً ويذكرونها حتى في أوقات تضرعهم الخاشع، ويترقبون أيضاً يوم القيامة والثواب من الله بعد بعث الأموات، ولهذا السبب هم يعظمون الحياة المستقيمة ويعبدون الله خاصة من خلال الصلوات الصدقات والصوم (نوسترا إيتاته، ٢٣/١٠/١٩٦٥).

كذلك وبنفس القدر، يثمن المسلمون كلمات البابا الراحل يوحنا بولس الثاني والذين يحترمونه ويقدرونه كثيراً : « نحن المسيحيين نعترف بكل سرور بالقيم الدينية التي نشترك فيها مع الإسلام، وأود اليوم أن أكرر ما قلته لشباب مسلمين في الدار البيضاء قبل بضع سنين : نحن نؤمن بالإله نفسه، الإله الواحد الحي، الإله الذي خلق العالم وأخرج مخلوقاته في أكمل صورة » (انسجنمنتي، VIII/٢، ١٩٨٥)، صفحة ٤٩٧، اقتبست من كلمة خلال عظة عامة بتاريخ ٥/٥/١٩٩٩.

كما يقدر المسلمون أيضاً تعبيركم الشخصي غير المسبوق عن الأسف وإيضاحكم وتأكيدكم «في ١٧/٩/٢٠٠٦» بأن الاقتباس الذي استعملتموه لا يعكس رأيكم الشخصي، بالإضافة إلي تأكيد أمين سر حاضرة الفاتيكان الكاردينال تارشيزيو بيرتوني في «١٦/٩/٢٠٠٦» علي ما جاء في الوثيقة الصادرة عن مجلس الفاتيكان نوسترا إتياته، وأخيراً ; فإن المسلمين يقدرون تعبيركم عن «الاحترام الكامل والعميق لجميع المسلمين »، أمام مجموعة مجتمعة من سفراء دول إسلامية بتاريخ ٢٥/٩/٢٠٠٦.

نأمل بأننا سوف نتجنب جميعاً أخطاء الماضي ونتحاشاها ونعيش سوياً في المستقبل بسلام وتسامح واحترام متبادلين.

والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله،،،

* * *

وعقب نشر هذه الرسالة كتبت "المصري اليوم" إن : "علي جمعة و 37 مفتيًا وعالمًا إسلاميًا يقبلون اعتذار البابا"، جاء فيها : وقع 38 مفتيًا وعالمًا إسلاميًا من 10 دول بينهم الدكتور علي جمعة مفتي الديار المصرية على رسالة بعثوا بها إلى البابا بنديكت السادس عشر "بابا الفاتيكان" أعربوا فيها عن تقديرهم لاعتذاره الشخصي عن تصريحاته التي اعتبرت مسيئة للإسلام.

وقالوا في رسالتهم لـ "بنديكت" والتي تنشر "المصري اليوم" نصها الكامل : إن المسلمين يقدرون اعتذاركم الشخصي "غير المسبوق" وتوضيحاتكم وتأكيداتكم بأن مقاطع الحوار التي تطرقتم إليها لا تعبر عن وجهة نظركم الشخصية، كما أنهم يقدرون أيضًا إعرابكم أمام مجموعة من سفراء الدول الإسلامية المعتمدين لدي الفاتيكان عن تقديركم واحترامكم لجميع المؤمنين المسلمين، مشددين على أملهم في تجنب أخطاء الماضي والعيش في سلام خلال المستقبل، وأكدوا أن الإسلام دين سلام، ولم ينتشر بحد السيف، وأن مصطلح "الحرب المقدسة" غير موجود في المفردات الإسلامية، موضحين أن الجهاد ليس بالضرورة أن يكون حربًا، وأن غير المقاتلين ليسوا هدافًا جائزة أو شرعية.

الجدير بالذكر أن الدكتورة عبلة الكحلاوي الأستاذ بكلية الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر، والدكتور طارق سويدان الداعية الإسلامي، والشيخ الحبيب علي الجفري، من أبرز الموقعين على البيان الذي يتسلمه الفاتيكان اليوم الأحد، إضافة إلى مفتيي روسيا والبوسنة وكرواتيا وكوسوفو وتركيا وأوزبكستان وعمن والأردن، وآية الله الإيراني محمد علي تسخيري.

ولكن جاء نفي قبول هذا الاعتذار فنشرت جريدة "الأهرام" في 16/10/2006م : "مفتي الجمهورية : بابا الفاتيكان لم يعتذر.. ونحن لم نقبل" في تعقيبه على ما نشرته بعض الصحف عن قبوله، مع عدد من العلماء ــ اعتذار بابا الفاتيكان ــ أوضح الدكتور علي جمعة مفتي الجمهورية أنه لم يقبل أي اعتذار من البابا الذي لم يعتذر في الحقيقة، وقال : إن الرسالة التي أرسلتها إلى البابا بنديكت السادس عشر مع عدد من العلماء استهدفت توضيح حقائق الإسلام، فيما تناوله البابا في محاضرته.

* * *

ــ 16 ــ
الكنيسة الكاثوليكية العنصرية

بقلم : صلاح عبد الكريم

الأسبوع في 16/10/2006م

من الغريب أن يستشهد بابا الفاتيكان الكاثوليكي "بنديكت السادس عشر" بقول إمبراطور أرثوذوكسي قاست بلاده الأمرين على أيدي القوى الكاثوليكية الأوروبية بما فيهم البابا الكاثوليكي، فلابد أن تاريخ ذلك الإمبراطور المحبط آثار شجون البابا.

فقد ولد الإمبراطور "مانيويل الثاني" الذي استشهد به البابا عام 1350 ومات عام 1425، وعاش طوال عمره في خوف من سقوط القسطنطينية وما تبقى من الإمبراطورية البيزنطية في أيدي العثمانيين أو في أيدي القوى الأوروبية الكاثوليكية الأخرى.

فلقد كانت الإمبراطورية البيزنطية في مرحلة اضمحلالها مرتعا للجميع، وكانت الحملات الصليبية الكاثوليكية لتحرير بيت المقدس تنهب في طريقها كل المدن البيزنطية وأهلها المسيحيين، بل إن قلة عدد المتطوعين في الحملة الصليبية الرابعة عام 1203 التي كانت تستهدف فتح مصر جعلتهم يصرفون النظر عن الهدف الأصلي بعد ما تورطوا في استئجار سفن الحملة من تجار فينيسيا بتكلفة باهظة واضطر القائمون على الحملة تحت ضغط أصحاب السفن إلى الإبحار إلى بيزنطة ناهبين في طريقهم كل ما صادفوه من مدن حتى دخلوا القسطنطينية بخدعة ماكرة ونهبوها تماما وأحرقوا مبانيها العريقة لجمع ما يكفي لسداد تكلفة الحملة الفاشلة، وأضعفوا بذلك وللأبد ما تبقى من قوة الإمبراطورية البيزنطية الآفلة.

ومن ناحية أخرى شهد القرن الرابع عشر حروباً مستمرة مع الدولة العثمانية تم فيها إنهاء الوجود البيزنطي في آسيا الصغرى تماما، ولم تتوقف الهجمات العثمانية على ما تبقى من الإمبراطورية البيزنطية في أوروبا، ولم تتوقف أيضا محاولات والده (الإمبراطور جون الخامس 1341-1391) لطلب المعونة من دول أوروبا الكاثوليكية دون جدوى.

وكانت هناك أيضا صراعات داخل الأسرة الملكية على عرش الإمبراطورية البيزنطية الآفلة، وكان كل المتصارعين يلجئون لطلب المساعدة من سلاطين الدولة العثمانية حتى أن "مانيويل الثاني" نفسه، صاحب المقولة التي استشهد بها البابا، أقام في بلاط السلطان "بايزيد" كرهينة مكرمة في مقابل المساعدة في عودة والده على العرش بعد ما انقلب عليه جون السابع (ابن أخيه أندرينيكوس الرابع).

وقام "مانيويل الثاني" أثناء تواجده في بلاط السلطان "بايزيد" بمساعدة السلطان في القضاء على الجيوب البيزنطية الأخيرة في آسيا الصغرى !

كان الإمبراطور "مانيويل الثاني" ممزقا بين ضعفه بالمقارنة بالدولة العثمانية الفتية وضعفه في مقابل القوى الأوروبية الأخرى المعادية للكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية، واضطرته البرجماتية السياسية لمحاولة الاتحاد مع القوى الأوروبية الكاثوليكية الأخرى لتقوية ملكه ضد الجميع، بل حاول إنشاء مجمع للكنائس بهدف

تقوية الجبهة المسيحية وذلك رغم الخلافات الجوهرية في الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية ولكن دون جدوى.

ففي ظل قناعة فينيسيا بأن الإمبراطورية البيزنطية منتهية لا محالة عقدت اتفاقاً مع الدولة العثمانية تقايض فيها امتناعها عن مساعدة الإمبراطور البيزنطي في مقابل سيطرتها على بحر إيجة.

وهكذا عاش الإمبراطور مانويل الثاني (رغم ميوله الأدبية التي تنبئ عن رقة نفسه) طوال حياته وهو محاصر بالأعداء تماما من كل جانب بل وفي داخل الأسرة الإمبراطورية نفسها، وشهد تآكل الإمبراطورية البيزنطية من كل ناحية تحت تأثير كل هؤلاء الأعداء، وبسقوط القسطنطينية (1453) سقطت تماما آخر بقايا الإمبراطورية الرومانية القديمة.

وبذلك عانى الإمبراطور المحبط من تآكل الملك، ومن الهزائم، ومن تناقص الأتباع، ومن دفع الجزية، ومن الفشــل في حشد الحلفاء والمساعدات من أوروبا، بل ومن العيش كرهينة في يد أعدائه.

وإن استشهاد بابا الفاتيكان بهذا الإمبراطور يكشف من حيث لا يقصد عن نفس متوترة لعلها تعاني من نفس الإحباط الذي كان يعانيه الإمبراطور القديم ولكن بصورة مختلفة.

<u>البابا والتركة المثقلة :</u>

إن الأحوال التي يعيشها الغرب بصفة عامة تجعل من الصعب على بابا الفاتيكان خصوصا إذا كان ألماني الأصل أن يشعر بارتياح، فالطبيعة البشرية بصفة عامة تميل إلى الحسم وربما العنف في أثناء البناء، وتتصف بالطمأنينة والسماحة عند الشعور بالقوة واستتباب الأمر، بينما تعاني من التوتر وضيق الصدر عندما تشعر بالأزمة.

لقد حافظت الكاثوليكية بإبقائها على المرجعية الخلقية الثابتة المستقاة من الدين على التواضع الذي تميزت به المسيحية على مر القرون فكانت أكثر المذاهب المسيحية انتشارا بين الفقراء وفي جنوب الكرة الأرضية، طبعا مع بعض التدخلات بالسيوف وغيرها لإقناع المترددين وذلك ليتحقق خلاصهم على الأقل من ضغوط الكنيسة.

وكانت كل الفظائع التي ارتكبتها الكنيسة الكاثوليكية على مر العصور الوسطى تستهدف نشر العقيدة في حين أن البروتستانتية مثلا كانت أكثر طائفة مسيحية تأثراً بفكر النهضة التي جعلت من الإنسان مرجعاً لنفسه، بحيث أصبحت المراجع بعدد المؤمنين، فوقع أتباعها فريسة لأفكار المادية والعنصرية التي راجت في الفكر المادي الحداثي في الغرب.

ولهذا ففي حين اهتم الكاثوليك بنشر العقيدة (ولو بأساليب تستحق من البابا موقفا معترفا بخطئها، منها مثلا محاكم التفتيش التي استأصلت شأفة المسلمين تماما من الأندلس القديمة)، فإن البروتستانت اهتموا بنشر أنفسهم كعنصر متميز عن بقية البشر.

لقد تسلم البابا الكاثوليكي الحالي تركة مثقلة، فالعالم الغربي الذي نشأ في ظل الأيديولوجية التنويرية الفردية أصبح يعاني من مشاكل سياسية واجتماعية وسكانية حادة جعلت التوتر وضيق الصدر أقرب إلى نفسه من الطمأنينة والسماحة.

<u>الغرب وخطر الانقراض :</u>

لقد أدت تلك الأيديولوجية المادية إلى إضعاف العاطفة الدينية في الغرب بصفة عامة، كما أدت إلى الفردية وإضعاف مؤسسة الأسرة، وعدم الرغبة في الزواج وفي إنجاب الأطفال بل وقتلهم بالإجهاض وذلك لأسباب يطول شرحها، إلا أن الثابت من الإحصائيات أن الغرب بصفة عامة، وكل من سار على دروبه يعاني حقيقة من خطر الانقراض.

لقد انخفضت معدلات المواليد في أوروبا وأمريكا بين البيض خصوصا، وهم أشد المتأثرين بأيديولوجية التنوير والحداثة، وأصبحت تتراوح بين 1.4 طفل إلى 1.1 طفل لكل زوجين وهي نسبة أقل بكثير من المعدل المطلوب لثبات عدد السكان وهو 2.1 طفل لكل زوجين وذلك طبعا بشرط أن يتزوج الجميع، وأن يتزوجوا من الجنس الآخر عندما يتزوجون وهي أمور قد لا تحدث في أوروبا وأمريكا.

فهناك تفضيل العلاقة الجنسية الحرة على قيود الزواج الكنسية ومسئولياته (وبعضهم يفضل زواج المثل) وقد لا ينجبون ويكتفون عادة بطفل واحد أو طفلين لأسباب كثيرة تضرب بجذورها في أيديولوجية التنوير والحداثة، ومقومات النهضة الصناعية، والمجتمع الاستهلاكي وذلك يجعل حل المشكلة الديموغرافية الغربية شبه مستحيل في المستقبل المنظور.

فالاتحاد الأوروبي يحتاج إلى 750 مليون مهاجر في سن العمل حتى عام 2050 لتعويض النقص المتزايد في المواليد والاحتفاظ بعجلة الاقتصاد دائرة، والمصدر الأساسي لسد هذا الاحتياج البشري هو العالم الإسلامي الذي يتمتع بمعدلات مواليد عالية، حتى أن نسبة السكان تحت 20 عاما تزيد عن 50%.

وأوروبا اليوم بها حوالي 25 مليون مسلم يعيش حوالي 75% منهم في الاتحاد الأوروبي وهم يمثلون الآن نسبة صغيرة من السكان (أقل من 5%)، لكن معظم خبراء الديموغرافيا يتنبئون بزيادتهم إلى 10% مع حلول عام 2020 (جلهم من الشباب، بينما تتزايد نسبة كبار السن والعجزة والمقعدين بين غيرهم من الأوربيين)، وهذا الأمر هو الذي يجعل الخبراء (الذين لا يستبعد قيامهم ببعض عمليات التجميل

للإحصائيات الفعلية قبل نشرها، وذلك بعد عرضها طبعاً على صناع القرار) يتوقعون زيادة أعداد المسلمين في أوروبا.

أليس من المثير أن 57% من المواليد في عام 2003 في بروكسل مقر الاتحاد الأوربي كانوا من المغاربة ! (والمشكلة الديموغرافية عالمية، فقد تضاعف عدد المسلمين في العالم 235% في الخمسين عاما الماضية بينما لم يزد عدد المسيحيين إلا بمقدار 47% في نفس الفترة).

ومع تقدم الأيام وظهور الأجيال التالية من أبناء المسلمين الذين لا يعرفون أوطانا لهم سوى أوروبا، تزداد كل يوم في أوروبا مظاهر الإسلام المختلفة من رجال ذوي لحى، ونساء محجبات، ودور عبادة تقام في كل مكان، بل وفى أبنية الكنائس المهجورة.

كما يعلو صوت المسلمين بمطالب لم تعتدها أوروبا من اعتراف رسمي بالإسلام كدين وتعليمه في المدارس، والحديث عنه باحترام، وعدم الافتراء عليه، وتعديل ظروف وأوقات العمل بالنسبة للمسلمين بما لا يتعارض مع فرائض الإسلام، إلى الحرص على أكل الحلال من الطعام.

إن ازدياد المظاهر الإسلامية في أوروبا وازدياد عدد المساجد في ألمانيا موطن البابا الجديد إلى 2500 مسجد، وتضاعف عدد المسلمين في أوروبا بمقدار 300% في الثلاثين عاما الماضية جعلتهم أكثر ظهورا وأكثر إثارة للمشاعر الأوروبية المحافظة.

إن رؤية تلك الأعداد المتزايدة من البشر الذين يأكلون ويتصرفون ويتكلمون بطريقة مختلفة وملامحهم ليست هي الملامح التي يعجب بها إنسان الحداثة الغربي تجعل من الصعب على الغربي (وخصوصا الألماني التقليدي المحافظ) أن يشعر بالارتياح.

<u>أوروبا والحاجة للمسلمين :</u>

إن "فرانسيس فوكوياما" و"صموئيل هنتنجتون" قالا إن النخب الأوروبية لا يصح أن تشعر بالعار عندما تدافع عن تقاليدها الثقافية مثل الهيومانية المادية والمسيحية في مواجهه الوجود الإسلامي المتزايد في أوروبا، لا بد أن مثل تلك الأفكار والأقوال في ظل الواقع الأليم تلح على العقلية الأوروبية التقليدية المثقفة ومنها عقلية البابا الألماني الكاثوليكي الجديد وتضغط عليه.

إن محاولات تركيا المستميتة للانضمام للاتحاد الأوروبي الذي أنشأته الأحزاب الديمقراطية المسيحية الأوروبية كناد مسيحي تثير حفيظة النخبة المحافظة التي لا تحب أن يكون أكبر عضو في الاتحاد الأوروبي من حيث عدد السكان دولة مسلمة !

والأتراك يصرون مرة ثانية على محاصرة أباطرة أوروبا، فمجرد ذكر تركيا ذات الشعب الفتي كثيف العدد (70 مليونا) ومعدل المواليد المرتفع يثير شجون أي أوروبي تقليدي محافظ مثل البابا الكاثوليكي الذي يقضي وقته في قراءة تاريخ سقوط الدولة البيزنطية وأوراق إمبراطورها المحبط وتجعله يستشهد بمقولات ذلك الإمبراطور الأرثوذكسي القديم الذي حاصره الأتراك بأسلوب آخر.

لقد عاد الأتراك (وإخوانهم في الدين) لفعلها مرة أخرى اليوم ولكن بوسائل ديموغرافية لا بوسائل عسكرية، وفي الماضي كان ذلك الإمبراطور المحبط تؤخذ منه الدنيا رغما عنه وهو يقاوم بشراسة.

لكن أوروبا المسيحية اليوم تجد نفسها في موقف شائك بصورة أشد إيلاماً، فهي تحتاج إلى هؤلاء الأغراب المكروهين، وعادة لا يحتاج الأعداء لبعضهم، وهو وضع مريح يمكن الإنسان من أن يعادي عدوه بكل قلبه وقواه.

لكن ما يثير المرارة والارتباك هو ذلك الشعور المحبط بأنك مضطر لأن تفتح لهم أبواب حصونك بيدك.

وكما كان الإمبراطور البيزنطي القديم يشعر بأن المتاعب تأتيه من داخل بيته وممن كان من المفروض أن يكونوا حلفاءه الطبيعيين، فإن بابا روما الحالي يشعر بنفس المشكلات تقريبا، ولكن من ناحية العقيدة والأفكار وأتباع الكنيسة.

لا شك بأن البابا يشعر بالغربة العقيدية في وطنه الأم ألمانيا مهد البروتستانتية التي كادت تعصف بالكاثوليكية وكنيستها، لا بد أن هذا الأمر ساهم في العصف بالسلام الداخلي الذي يشعر الإنسان به حال نشأته على دين الأغلبية، وساهم في إذكاء الشعور بالحصار في نفسه.

كما أن ألمانيا أيضا كانت ولا تزال من معاقل الفكر المادي التنويري الحداثي المعادي للمؤسسة الكنسية وللدين بصفة عامة.

إن أوروبا الغربية وبصرف النظر عن الإحصائيات التي تبين أعداد أصحاب كل دين، تعاني من نسب متزايدة من المبتعدين عن الدين والتدين بصفة عامة، حتى أن كل الإحصائيات تشير إلى أن نسبة أتباع أي كنيسة تتراوح من 20% إلى 30% على أقصى تقدير، وهؤلاء فقط هم الذين يتوزع ولاؤهم على الكنائس المختلفة، أما الباقون فهم إما لا دينيون أو يتبعون أديانا أخرى وعلى رأسها الإسلام.

إن أوروبا التي كان من المفروض أن تكون العمق الطبيعي للمسيحية الغربية هي مصدر أشد الضربات التي توجه إلى الدين والتدين المسيحي، فما أشبه الليلة بالبارحة ! لقد وحَّد القلق من أوروبا ومن الإسلام بين الإمبراطور الأرثوذكسي القديم وبين البابا الكاثوليكي الحديث.

الكاثوليكية وآخر الفرسان :

إن الكنيسة الكاثوليكية تقف وحدها تقريبا في الغرب المسيحي مدافعة عن المرجعية الخلقية الإلهية وعن مؤسسة الأسرة والزواج رافضة الإجهاض، وكل ما يعارض المعتقدات المسيحية ذات المرجعية الدينية الثابتة.

بينما ظاهرة الشواذ والمثليين والتحرش بالأطفال ظواهر مجتمعية في الغرب تضرب بجذورها في الأسس الأيديولوجية لحضارة التنوير والحداثة الغربية منذ أن وضعت في عصور النهضة وما نتج عن ذلك من انهيار للمرجعيات، وهي أمور لا تمثل فضائح بالنسبة للطوائف الأخرى التي تمثلت مبادئ تلك الأيديولوجية بالكامل. ولكنها تمثل فضائح بالنسبة للطائفة المسيحية الغربية الكبرى التي لا تزال تتمسك بالمرجعيات الدينية الثابتة وبالأخلاق التي وضعها الله لعباده تسلط عليها أضواء وسائل الإعلام في عصر ما بعد الحداثة الذي تخلص من المرجعيات.

إن ما يقال عن الفضائح الخلقية لكهنة الكنيسة الكاثوليكية والتي يسلط عليها أشد الأضواء في أمريكا ذات الأغلبية البروتستانتية التي لا ترى في هذه الأمور فضائح بالنسبة لها هو في الحقيقة شهادة إيجابية للكنيسة الكاثوليكية، وهو أيضا إشارة إلى المتساقطين من رجالها تحت مطارق اللامرجعية التنويرية لعصر ما بعد الحداثة، انظروا إلى الطوائف الأخرى ستجد فيها نفس تلك الظواهر، لكن أصحابها يتحركون بحرية في السلم الهرمي لكنيستهم، حيث لا أحد هناك يستطيع أن يشير إليهم بإصبع الاتهام إلا بناء على رأيه الشخصي الذي لا يأبه به أحد وذلك بعد الاستغناء عن المرجعية الإلهية الثابتة.

<u>واقع محبط :</u>

ترى كم تركت تلك الأيديولوجية المادية الفكرية (التي يمكن اعتبارها طبيعة لصيقة بالشخصية الغربية) من الآثار على المؤسسات الكنسية ومنها الكنيسة الكاثوليكية، إن هناك مؤشرات تاريخية تشير إلى أن خروقات كثيرة حدثت وكان من مظاهرها وفاة البابا "جون بول الأول" في 28 سبتمبر 1978 فجأة بدون مرض أو مقدمات بعد 32 يومًا فقط من اعتلائه كرسي البابوية في حادث مفاجئ ثم التكتم عليه بشدة عندما ظهر أنه يحاول إجراء بعض الإصلاحات الإدارية والمالية الجذرية في مؤسسة الفاتيكان وخصوصا بنك الفاتيكان.

إن الكنيسة الكاثوليكية اليوم في وضع يصيب بالإحباط فهي ليست في أوج قوتها وسلطانها على مؤسساتها وعلى المؤمنين.

كما أن الأيديولوجية المادية ومؤسساتها التعليمية الإعلامية النافذة في المجتمعات الغربية تأكل من أتباعها في الغرب باستمرار بتحويلهم إلى لا دينيين، بالإضافة إلى أن المجتمعات الغربية المتناقصة العدد تحتاج إلى الأيدي العاملة الفتية

وأهم مصادرها هو العالم الإسلامي (ذلك العدو القديم)، وذلك لكي تحتفظ بعجلات حضارتها دائرة.

وفي ظل ثورة المعلومات والاتصالات ورغم أن سيوف اليوم وسهامه (وهي الصواريخ عابرة القارات والقنابل النووية) مشرعة في وجه العالم الإسلامي لنشر عقيدة الليبرالية وديمقراطية واقتصاد السوق، فإن الإسلام يشق طريقه في العقل الجمعي ليس للغربيين الأفراد وحدهم، ولكن حتى في المراجع الدينية والمؤسسات المختلفة بما فيها المؤسسات الكنسية التي لم تعد تستطيع (كما فعلت من قبل) أن تدعي في عصر ثورة المعلومات على العقيدة الإسلامية ما ليس فيها بدون أن ينكشف هذا الادعاء.

إن تاريخ الادعاء على الإسلام بما ليس فيه ارتبط دائما في العقل الجمعي المسيحي الغربي بالشعور بالحصار والانكشاف في مواجهة المسلمين، فقد أطلقوا على المسلمين اسم المحمديين وادعوا عليهم ما ليس في معتقداتهم، ولا تزال الكتب الكنسية القديمة غاصة بكل عجيب من الافتراءات، إن البابا على الأقل لم يقل إن المسلمين يعبدون محمدا كما ادعى أسلافه في القرون الوسطى، ولكنه وجه سهام النقد إلى الطريقة التي تم بها في نظره نشر الإسلام على أنها لا ترضي الرب وهذه نقطة تحسب له، خلاف الكنيسة الكاثوليكية مع الإسلام إذن يمكن أن يوصف بأنه خلاف في (الفروع) وليس في الأصل الأكبر وهو عبادة الله الواحد خالق الكون والإنسان.

إن الإسلام والكاثوليكية والأرثوذكسية وكل المؤمنين بالله وكل المؤمنين بالمرجعيات الخلقية في خندق واحد في حقيقة الأمر ضد اللادينيين والمادية واللاأخلاقية، وهذا البابا الألماني التقليدي المحافظ يشعر أنه محاصر داخل أسوار الفاتيكان، بينما تناوشه المؤسسة المادية الغربية المتنفذة من كل جانب وتأكل من اختصاصاته القليلة الباقية وتلتهم أتباعه المتناقصين.

والإسلام الفتي الناهض الذي تدق أفكاره وعقيدته أبواب الحصون المادية الأوروبية ويزداد ظهور أتباعه فيما كان في الماضي يعتبر من حمى الكنيسة الكاثوليكية يسبب له مزيدا من التوتر.

وهذه العوامل كلها تجعل البابا يشعر بأنه محاط به وتجعله لا شك يقلب في أوراق التاريخ وينظر في أحوال مَنْ كان في مثل موقفه لعله يلتمس منهم السلوى.

* * *

ـ 17 ـ
أشجع الردود
من مواطن مصري كاثوليكي إلى البابا بنديكت
الأستاذ البير عازر بارح

جريدة الدستور في 25/10/2006، ص 20

تقدم بهذا الرد مواطن مصري كاثوليكي هو الأمين العام لجمعية الإخاء الوطني لنسيج الأمة بالإسكندرية، ولولا أننا التزما ترتيب تاريخ النشر لاستحق أن يتصدر الردود العربية :

قداسة الحبر بنديكيت السادس عشر بابا الفاتيكان.. حزنت كل الحزن وأسفت كل الأسف لمحاضرة قداستكم بإحدى الجامعات الألمانية وبها بعض العبارات تسيء للدين الإسلامي السمح ورسوله الكريم وكنت أتمنى عدم انزلاق قداستكم للمهاترات بالإساءة بقصد أو عدم قصد فقد أغضب حديثكم مليارًا ونصف المليار مسلم مؤمنين بالعقيدة الإسلامية ومؤمنين بالقيم والمبادئ وبالرسول الكريم وللأسف الشديد والمحزن أن محاضرة قداستكم مرفوضة شكلاً وموضوعًا من جميع شعوب العالم وبالأخص الشعوب العربية الإسلامية وكنت أتمنى بصفتي مواطنًا مصريًا كاثوليكيًا أن تكون قداستكم خير خلف للبابا لراحل القديس يوحنا بولس الثاني الذي حظي بمحبة شعوب العالم وبالأخص الشعوب العربية والإسلامية، فقداسته كان مثالاً للتواضع والمحبة والتسامح بين الأديان السماوية جمعاء، وبالأخص الدين الإسلامي فقد حظي كأول بابا في تاريخ الباباوات بدعوى كريمة من الرئيس محمد حسني مبارك لزيارة مصرنا الغالية، وقد قوبل بحفاوة بالغة من الرئيس حكومة وشعبًا وقام قداسته بزيارة الأزهر الشريف وفضيلة شيخ الأزهر الشريف الدكتور سيد طنطاوي ليؤكد مواقفه الثابتة من الإخاء والمحبة والتسامح بين الأديان السماوية جمعاء، وحينما رحل إلى دار الحق كانت مراسم جنازته عبارة عن استفتاء عالمي لقداسته بحضور معظم رؤساء وملوك الدول العربية والإسلامية وفاء منهم لرسالة قداسته في خدمة السلم العالمي.

قداسة بابا الفاتيكان.. كنت أتمنى أن يكون بداية عهد قداستكم عهد سلام ومحبة بين الأديان المتساوية فالسيد المسيح قال لنا الله محبة، فحديث قداستكم أساء للقيم التي نادى بها السيد المسيح علمًا بأننا جميعًا أبناء سيدنا آدم وحواء مهما اختلفت العقائد أو اللغة أو الدين وتوجد آية كريمة بالقرآن الكريم تقول لجميع الأديان السماوية "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً"، فرسالة بابا الفاتيكان هي رسالة روحية لتعليم الإنجيل المقدس وهي المحبة والتواضع وإنكار الذات فقداستكم أغضبت شعوب العالم وبالأخص العالم العربي والإسلامي فالإساءة للأديان السماوية مرفوضة نهائياً حينما تصدر من الرجل الأول لكاثوليك العالم (بابا الفاتيكان) فتعداد كاثوليك العالم مليار ومائتا مليون نسمة فلمصلحة من حديث قداستكم ؟! حيث أنني مواطن

مصري كاثوليكي نرفض نهائيًا تصريحات قداستكم ولدي عدة أسئلة لقداستكم وبها الأجوبة :

(س) : من المستفيد الأول من حديث قداستكم ؟

(حـ) : المستفيد الأول اللوبي اليهودي العالمي والاستعمار الجديد.

(س) : ما رأى قداستكم عن حوار الحضارات ؟

(حـ) : بعد حديث قداستكم والإساءة للدين الإسلامي لن يوجد حوار حضارات بل يوجد صراع حضارات.

(س) : ما رأى قداستكم في التطرف والإرهاب ؟

(حـ) : بعد حديث قداستكم المرفوض سوف يزداد التطرف والإرهاب وسيكون له مبرر مقنع بسبب حديث قداستكم.

(س) : ماذا ستكون العلاقة بين المسيحيين والمسلمين في جميع أنحاء العالم بعد حديث قداستكم غير المسئول ؟

(حـ) : ستكون العلاقة بها حساسة جداً ولها عواقبها نتيجة إساءة قداستكم للدين الإسلامي ورسوله الكريم.

هل تعلم قداستكم إن مسيحي الشرق الأوسط وبالأخص في مصرنا الغالية يعيشون في أحضان وسماحة الدين الإسلامي السمح ويرعى الوحدة الوطنية رئيس كل المصريين الرئيس محمد حسني مبارك ؟ فحديث قداستكم أساء لمسيحي الشرق الأوسط قبل الإساءة للشعوب العربية والإسلامية.

وبصفتي مواطنًا مصريًا كاثوليكيًا غيورًا محبًا لجميع الأديان السماوية أقترح على قداستكم الآتي :

(1) اعتذار قداستكم بالتوضيح وليس بلغة السياسة لجميع شعوب العالم، وبالأخص الشعوب العربية والإسلامية عن حديث قداستكم غير المقصود، حسب بيان دولة الفاتيكان فهو غير مقنع.

(2) في حالة عدم استطاعة قداستكم الاعتذار شخصيًا أقترح لقداستكم تقديم استقالة عن رئاسة الكنيسة الكاثوليكية لكي يعود السلام والمحبة بين الأديان السماوية وبالأخص الدين المسيحي والإسلامي.

وفي ختام رسالتي أهدي لقداستكم الآية الكريمة من القرآن الكريم : (لكم دينكم ولي دين) صدق الله العظيم، ومن الإنجيل لمقدس (أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم)، متمنيًا لقداستكم موفور الصحة والتوفيق بخدمة الرسالة الروحية ولخدمة ومحبة الأديان السماوية.

كلمات البابا

جريدة نيويورك تايمز في مقالها الافتتاحي في 16/9/2006م

هنـاك مـا يكفي وزيـادة من الغضـب الـديني في العـالم، وممـا يثـير مزيـدًا من الاضطرابات أن يهين البابا بنديكت المسلمين، مستشهدًا بقول من القرن الرابع عشـر يصف الإسلام بأنه " شر ولا إنساني.

في أشـد المقاطع استثارة من محاضرة البابا عن "الإيمـان والعقـل"، استشـهد بمناظرة ما بين إمبراطور بيزنطي واسـع الاطلاع وعـالم فارسـي مسـلم حـدثت عـام 1391م، وجاء فيهـا أن الإمبراطور قال : " أرني فقط مـا هـو الجديـد الـذي جـاء بـه محمد، إنك لن تجد سوى أشياء شريرة وغـير إنسـانية، مثـل أمـره أن ينشـر بالسـيف الدين الذي يدعو إليه ".

لقد طلب قادة العالم الإسلامي من البابا تقديم اعتذار وهددوا بسـحب سـفرائهم من الفاتيكان معلنين أن كلمات البابا تؤيد تأييـدًا خطـيرًا دعـوى زائفـة ومتحاملـة ضـد الإسلام، فبالنسبة لكثير من المسلمين، فـإن الحـرب المقدسـة ــ الجهـاد ــ إنمـا هي كفاح روحي وليست دعوة للعنف وأنهم ينبذون المنحرفين والمتطرفين الذين يـبررون استخدامه في القتل والإرهاب.

وأصدر الفاتيكان بيانًا يقول إن البابا لم يقصد المساس بمشاعر المسـلمين، وأنـه في الواقـع يريـد الحـوار، ولكن هـذه ليسـت هي المـرة الأولى الـتي يبـدي فيهـا البابـا الاختلاف ما بين المسيحيين والمسلمين.

ففي سـنة 2004م عنـدما كـان رئيسًـا للاهـوت في الفاتيكـان رفض ضـم تركيـا للاتحاد الأوروبي ؛ لأن تركيا دولة إسـلامية، وبالتـالي فإنهـا " في تعـارض مسـتقيم مـع أوروبا ".

إن العالم يستمع باهتمـام إلى كلمـات أي بابـا، وأنـه لمن المؤسـف، ومن الضـار أيضًا أن يغرس شخص ما الألم، قاصدًا أو غافلاً، وعليه أن يقدم اعتذارًا عميقًا مقنعًا.

* * *

ما الذي كان يجب على البابا أن يقوله للعالم الإسلامي ؟

بقلم روز ماري رادفورد روثر

عن الأجونست في 16 سبتمبر 2006

في 12 سبتمبر أثار البابا بنديكت السادس عشر غضب العالم الإسلامي بمحاضرته في جامعة رجنسبورج التي هاجم فيها الفكرة الإسلامية عن "الحرب المقدسة" باعتبارها مناهضة لإرادة الرب، ولطبيعته، واستشهد البابا بأقوال أحد أباطرة القرن الرابع عشر الإمبراطور مانويل الثاني بيلاجوس الذي سخر من الإسلام، ومن مؤسسه محمد لأنه "لم يقدم سوى أشياء غير إنسانية، وشريرة مثل نشر الدين بالسيف"، ورأى البابا أن المسيحية الكاثوليكية نقيض ذلك، وأنها نموذج يدعم اللقاء العميق ما بين الإيمان والعقل.

وكانت هناك ردود فعل غاضبة في أرجاء كثيرة من العالم الإسلامي، مذكرة البابا بشرور الحملات الصليبية، وإذا كان المسيحيون في الغرب يرون أن الصليبية تاريخ قديم، فإن هذه الحروب التي استأصل الصليبيون فيها المسلمين، وأقاموا إمارة صليبية في فلسطين لا تزال حية في الذاكرة الإسلامية، وقد بدت الهيمنة الحديثة على دول إسلامية مثل العراق، كما لو كانت مواصلة الحروب الصليبية، ويشار إلى الولايات المتحدة وبعض الدول الغربية التي تدعم هذه الحروب في الصحافة الإسلامية باعتبارها "صليبية".

وقد أدى اتهام البابا الإسلام ومؤسسه بالحرب المقدسة، وادعائه أن المسيحية لا ترتبط بمثل هذه الاتجاهات الحربية، غضب وثورة المسلمين، وألحقت ضررًا جسيمًا بالعلاقات الكاثوليكية الإسلامية، فإن البابا عندما استشهد بأقوال إمبراطور بيزنطي كان يجب أن يتذكر أن الحملة الصليبية الرابعة (1401 ـ 1204) التي دعا إليها البابا أنوسنت الثالث قد تحولت إلى هجوم على العاصمة البيزنطية ونهبها الصليبيون واحتلوا المدينة، الأمر الذي أدى إلى إضعاف بيزنطة وهيأتها إلى سقوطها المترقب في أيدي المسلمين.

مع أن البابا لم يدعوني لأكون كاتبة لخطبته، فأني أود أن أعرض ماذا كان على البابا أن يقوله بشأن الحرب المقدسة، مما كان يكسب للبابا النوايا الطيبة للمسلمين، ويفتح حوارًا جديدًا في هذا العالم المتحارب، فقد كان على البابا أن يشير إلى بعض المظاهر المؤسفة لوجود الحرب والعنف في العالم، وعندئذ يبدى ملاحظته أن هذه الاتجاهات العسكرية تستشري، وأن الدين، واسم الله قد استخدما في هذه الاتجاهات الحربية مما جعلها تتفاقم، في حين أن الله يريد الحب وليس الحرب.

وبعد ذلك كان يمكن للبابا أن يعود إلى تاريخ الحروب الصليبية، ويأسى لما أحدثته من استخدام للدين لنشر العداء والبغضاء والعنف مع الآخرين، وقد يكون عليه أن يستشهد بتصريحات بعض الباباوات الذين دعوا إلى هذه الحروب ضد الإسلام ويكون عليه عندئذ أن يعلن أن المسيحيين سيتوبون من مثل هذه الحروب التي تستخدم الدين، ويطلب من إخواننا وأخواتنا المسلمين الصفح والغفران لما أصابهم

من ضـرر في الماضـي من جـراء هـذه الحملات، وينهي هـذه الفقـرة بـأن يـدعو كـل الشعوب لتقاوم الحرب والعنف وأن تنبذ استخدام الدين لدعم العنف.

مثل هذه الخطبة ـ كما أعتقـد ـــ كـانت ستكسـب للبابـا قلـوب المسـلمين في العالم أجمع، وستجعلهم يرحبون بزيارته لتركيا المحدد لها نوفمبر من هذا العـام، بـدلاً من تعريض مثل هذه الرحلة للمخاطر، وسيضع هذا الحوار ما بين الإسـلام والمسـيحية على طريق جديد من المساواة، وسيدفع القيادات الكنسـية في العـالم الغـربي لإعلان التوبة من أخطاء الصليبية، كما سينبه مسـيحي الولايـات المتحـدة أن اسـتخدام اللغـة التي تدعم حروب "مقاومة الإرهاب" ضد العالم الإسلامي باسم الصليبية، وهو التعبــير الذي اقترحه جورج بوش لحربه ضد أفغانستان والعراق، هو أمر غير مقبول.

إن بعض المستشارين لإدارة بوش الأكـثر إحساسًـا بالتـاريخ قـد تـبينوا الطبيعـة المثيرة لهذا التعبير وحذروه من استخدامه، ولكن المسيحيين يحتاجون إلى ما هو أكثر من عـــدم اسـتخدام تعبـير "الصـليبية"، بينمـا الحقيقـة أنهم يـرون مصـداقية هـذه الحروب، إن علينا أن نجابه مثل هذه الحروب المشبوهة ضـد العـالم واسـتخدام اسـم المسيحية لدعمها.

هل فات الأوان ؟ مع أن تـأثيري على دوائـر الفاتيكـان محـدود، فليس هنـاك مـا يمنع الهيئات المسيحية الأخرى كاثوليكية وبروتستنتانية ليتحدا معًا لنشر اعتذار للعــالم الإسلامي عن الحروب الصليبية، وأن تدعو لنبذ السياسات العنيفة لاسـتخدام الحـروب بدعوى مقاومة الإرهاب واستخدام اللغة الدينية لتبرير هذه الحروب.

الدكتورة روزمـاري رادفـورد روثـر أسـتاذة شـهيرة للـدين تحاضر في عدد كبير من الكليـات والجامعـات، كمـا أنهـا أسـتاذة شرفية في اللاهوت النسائي Feminist Theology ، وقد نشـرت عددًا كبيرًا من الكتب، وتعـد من الثقـات في الكنيسـة الرومانيـة الكاثوليكية، واشتركت في وضع أنسكليويديا عن المـرأة والـدين في أمريكا.

الردود في الصحافة الأوروبية

استعلاءة الانتصار المسيحي

جايلز فرازر ـ الجارديان 16/9/2006م

عرف البابا جون بول الثاني بعلاقته في الصراع العالمي ما بين الشرق والغرب، وفي مساء الثلاثاء الماضي، وخلال محاضرة سيئة أمام جمع من الأكاديميين البافاريين، وضع الباب بندكت السادس عشر معالم حقبته كبابا، عندما أقحم في محاضرته مناظرة عن الإسلام أثارت غضب العالم الإسلامي بأسره

(أرني ما الجديد الذي جاء به محمد، ولن تجد سوى أشياء شريرة ولا إنسانية مثل أمره بنشر العقيدة التي يدعو لها بالسيف).

كانت هذه هي كلمات إمبراطور بيزنطي مغمور هو "مانويل الثاني بالولوجوس" في القرن الرابع عشر لمناظره الفارسي المسلم، ومع أن البابا أوضح أنه يقدم استشهادًا خلال خطبته، فإن هذه الكلمات عندما تصدر من شفتا الزعيم الديني لقرابة بليون فرد دون تقديم تعقيب عليها، ودون أن يورد ولو جملة واحدة يبعد نفسه عن ادعاء "مانويل الثاني" التي تقرن مسئولية محمد عن الشر فمن المفهوم أن يثير ذلك موجة من الغضب والمطالبة بتقديم اعتذار.

لقد لاحظ كريستوفر تايرمان في آخر كتبه عن الحرب الصليبية ـ حرب الرب ـ أن المقارنات ما بين الحرب الصليبية والصراعات الدولية المعاصرة تمضي أكثر من اللازم وأن مصداقيتها التاريخية مشكوك فيها، قد يكون الأمر كما رأى، ولكن هذه الحجة لم تكن كافية لتهدئة ملايين المسلمين، وبعد كل شيء فقد كان أحد أسلاف البابا بندكت وهو البابا أربان الثاني هو الذي دعا إلى جهاد مسيحي ضد الإسلام، وكذلك فإن كثيرًا من مسيحي اليوم هم في صدارة الداعين لغزو العراق واحتلال إسرائيل للأراضي الفلسطينية، وكل ما يقال عن "إعادة تنظيم" الشرق الأوسط، وهذه كلها كوارث أفقدت الألوف من المسلمين حياتهم.

إن أي تعليقات ينطق بها زعيم مسيحي تمس هذا الجرح يمكن أن تأول من كل الزوايا المتصورة وكان يجب على البابا أن يعرف ذلك، وإذا كانت الرسوم الكاركاتورية لرسامين مغمورين في الدنمارك قد أثارت الملايين من المسلمين، فلنا أن نتخيل الضرر البالغ عندما ينطق بابا الفاتيكان بكلمات وتعليقات تسيء إلى الإسلام.

وكان البابا قد اتخـذ هـذا الموقـف مسـبقًا، فقبـل شـهور قليلـة من انتخابـه كبابـا اعترض على قبول تركيا في الاتحـاد الأوروبي قـائلاً : " إن علينـا أن نـدافع عن أوروبـا المسيحية "، ولم تتقبل الدوائر الإسلامية وقتئذ هذا، ولكن مـا يجعـل الاستشـهاد الـذي أورده الباب في محاضرته الأخيرة حساسًا بصفة خاصة أنه حـدث في بافاريـا وبالـذات ميونيخ وضـواحيها حيث يسـكن عشـرات الألـوف من الأتـراك الـذين يعـاملون معاملـة عنصـرية سـيئة من السـلطات، ومـا كـان يغيب عن أذهـانهم أن "مانويـل" كـان يـدير إمبراطوريته من المدينة التي أصبحت عاصمة تركيـا وحملت اسـم "اسـتامبول"، وفي هـذه الظـروف الـتي يخضـع فيهـا الأتـراك لحكم المسـيحيين فـإن اسـتعلاءة الانتصـار الأوروبي لا يمكن أن تخفي.

لقد كانت معظم مقاطع محاضرة البابا محاولة أكاديمية أريد بها مجابهة فكـرة أن العقلانية هي أصلاً، وبالطبيعة، علمانية، وقـد أصـر على "علينـا أن نتغلب على الفكـرة الذاتية عن قصور العقل عن إثبات مصداقية التجربة العمليـة والوضـعية"، وقـد يصـدق هذا كثير من المسيحيين، ولكنه تضمن نقدًا للإسـلام تبطنتـه الرطانـة الأكاديميـة، قـال البابا "إن التعاليم الإسلامية تجعل الله متعال بصفة مطلقـة، وليس ملزمًـا بـأي شـيء من مقولاتنا العقلية، وبعبارة أخرى فليس هنـاك عقلانيـة في الإسـلام أو مـع الإسـلام، وهي طريقة أخرى يعبر بها البابا عن خطورة الإسلام.

وهذا مـا ينفي أن ملاحظـات البابـا كـانت زلـة لسـان، أو خطـأً عـابرًا، وهي تختم بالإشارة إلى كلمة الإمبراطور البيزنطي ردًا على مساجله الفارسي التي أملاهـا عليـه فهمه المسيحي لله، أن لا نعمل عقــلانيًا وأن لا نعمل طبقًـا لــ اللـوجس Logus، هـو مما يخالف طبيعة الله، ونحن ندعو شركاءنا في حوار الثقافات إلى اللــوجس العظيم، وإلى ســعة أفق العقل ".

لقد ظن البعض أن البابا كان في ذهنه مرشد الدولـة الإيرانيـة عنـدما تحـدث عن مانويل ومساجله الإيراني، ولكننا لسنا في حاجة لهذا الإسقاط المعاصـر للتعـرف على مخاطر منطق البابا ؛ لأنه عند الادعاء أن الإسلام يجاوز العقل، والادعاء أن العمل دون عقل يناقض إرادة الله، فإن هذا قريب جدًا من القول أن الإسلام "كفر" وليس هذا هو ما يمكن للعقائد المختلفة أن تتحـدث بـه بعضـها مـع بعض خاصـة عنـدما تكـون أيـدينا جميعًا ملوثة بدماء الآخر.

وكما هو مكتـوب " كيـف تنظـر إلى القـذى في عين أخيـك ولا تهتم بالخشـبة في عينيك ؟ كيف يمكن أن تقول لأخيك دعني أزيل هذا القذى عندما تكـون طـول الـوقت خشبة في عينيك ؟ ".

د. جيلز هو قس "بوتني" ومحاضر في الفلسفة في كلية وادهام ــ أوكسفورد.

* * *

أشجع الردود
"سيف محمد"
الكاتب اليهودي "يوري افنيري"
الإنترنت 29/9/2006

لم تأت أشجع الردود وأكثرها إقناعًا وأقواها حجة وبرهانًا من مسلم، لقد جاء من إسرائيلي هو "يوري افنيري" رئيس كتلة السلام الإسرائيلية Guch Shalom، ونشرت على الإنترنت تحت عنوان "سيف محمد" وتصدرتها هذه الكلمات[1] :

(إن كل يهودي أمين يعرف تاريخ شعبه لابد أن يشعر بامتنان عميق نحو الإسلام الذي حمى اليهود طوال خمسين جيلاً بينما كان العالم المسيحي يضطهد اليهود ويحاول مرات عديدة أن يحملهم بالسيف لنبذ معتقدهم).

منذ أن بدأ الأباطرة الرومان يلقون بالمسيحيين طعامًا للأسود، طرأت تغيرات كثيرة على العلاقات بين الأباطرة ورؤوس الكنيسة.

وبدأ قسطنطين الكبير الذي اصبح إمبراطورًا في سنة 306 ـــ أي قبل 1700 سنة تمامًا ـــ يشجع على اعتناق المسيحية في إمبراطوريته التي كانت تشمل فلسطين كذلك، وبعد عدة قرون انشقت الكنيسة إلى قسمين لتصبح كنيسة شرقية (أرثوذكسية) وكنيسة غربية (كاثوليكية)، وفي الغرب طلب أسقف روما الذي حاز على لقب البابا أن يعترف الإمبراطور بسيادته وهيمنته.

وقد لعب الصراع بين الأباطرة والباباوات دورًا محوريًا في التاريخ الأوروبي وأدى إلى تقسيم الشعوب والأمم، وشهد هذا الصراع تقلبات كثيرة، فقد أقدم بعض الأباطرة على عزل أو طرد أحد الباباوات، وقام بعض الباباوات بعزل أو طرد أحد الأباطرة، وسار الإمبراطور هنري الرابع إلى كانوسا سيرًا على الأقدام، ووقف أمام القلعة التي يقيم فيها البابا مدة ثلاثة أيام حافي القدمين في الثلج إلى أن تنازل البابا وألغى حرمانه وطرده من الكنيسة.

إلا أنه مرت فترات في التاريخ عاش الأباطرة والباباوات في وئام وسلام، ونحن نشهد مثل هذه الفترة في أيامنا هذه، إذ توجد بين البابا الحالي "بنيديكت السادس عشر"، والإمبراطور الحالي "جورج بوش الثاني"، مرحلة رائعة من الانسجام والاتفاق إذ تتوافق الكلمة التي ألقاها البابا في الأسبوع الماضي والتي أثارت عاصفة عالمية مع الحملة الصليبية التي يشنها بوش ضد "الفاشيين الإسلاميين" في سياق "صراع الحضارات".

ففي المحاضرة التي ألقاها في إحدى الجامعات الألمانية وصف البابا الـ 265 ما يراه اختلافًا شاسعًا بين المسيحية والإسلام، ففي حين تقوم المسيحية على العقل فإن الإسلام ينكره، وفي حين يرى المسيحيون معقولية أعمال الله، فإن المسلمين

---

[1] **ترجم المقال مثبتًا على الإنترنت الأستاذ خالد الجبيلي، وقد أجرينا فيه بعض التعديلات ليكون أكثر اتفاقًا مع الأصل الإنجليزي.**

ينكرون وجود مثل هذه المعقولية في أعمال الله، وبصفتي يهوديًا ملحـدًا فـإني لا أريـد أن ادخـل سـاحة هـذه المسـاجلة، إذ إن فهم منطـق البابـا يفـوق قـدراتي العقليـة المتواضعة، غير أني لا أستطيع أن أغفـــل فقـرة وردت في كلمتـه، وهي تخصـني أنـا أيضًا كإسرائيلي يعيش بالقرب من خط الاحتكاك هذا بين " حرب الحضارات".

ولكي يثبت البابا انعدام العقل في الإسلام، فهو يؤكد أن النبي محمـد أمـر أتباعـه بنشر العقيدة الإسلامية بحد السيف، وحسب ما جاء على لسان البابا، فإن هـذا شـيء غـير منطقي لأن الإيمـان يولـد من الـروح لا من الجسـد، فكيـف يـؤثر السـيف على الروح ؟

ولإثبات مقولته لم يجد البابا أحدًا أفضل من أحد الأباطرة البيزنطـيين الـذي كـان ينتمي بطبيعة الحال إلى الكنيسـة الشـرقية المنافسـة ليستشـهد بكلامـه، ففي أواخـر القرن الرابـع عشـر دار حـديث بين الإمـبراطور "مانويـل الثـاني" بـالايولوجس أو كمـا قال : "إذ يشك في أن يكون هـذا قـد حـدث فعلاً" مـع عـالم فارسـي مسـلم لم يـذكر اسمه، وفي غمرة النقاش المحتدم ألقى الإمبراطور (كمـا قـال هـو نفسـه) الكلمـات التالية في وجه خصمه : " فقط أرني أشـياء جديـدة جـاء بهـا محمـد، ولن تجـد سـوى أشياء شريرة وغير إنسانية مثل وصيته التي يأمر فيها بنشر الدين بحد السيف".

تفضي هذه الكلمات إلى طرح ثلاثة أسئلة :

(أ) لماذا قال الإمبراطور هذه الكلمات ؟

(ب) وما مدى صحتها ؟

(حـ) ولماذا استشهد البابا الحالي بكلامه ؟

عندما كتب مانويل الثاني أطروحته كان على رأس إمبراطورية تحتضر، فقـد تبـوأ السـلطة في سـنة 1391 الـتي لم يكن قـد بقى منهـا سـوى بضـعة أقـاليم من الإمبراطوريـة الـتي كـانت ذائعـة الصـيت ذات يـوم والـتي أضـحت كـذلك تحت رحمـة التهديد التركي.

في ذلك الوقت كان العثمانيون الأتراك قـد وصـلوا إلى ضـفاف الـدانوب واحتلـوا بلغاريا وشمال اليونان وهزموا الجيوش التي كانت قـد بعثت بهـا أوروبـا مـرتين لإنقـاذ الإمبراطورية الشرقية، وفي 29 مايو سنة 1453، وبعد مـوت مانويـل بسـنوات قليلـة سقطت القسطنطينية (استنبول حالياً) بيد الأتـراك، وهكـذا انتهت الإمبراطوريـة الـتي دامت لأكثر من ألف سنة.

وجاب مانويل خلال فترة حكمه عواصم أوروبا للحصول على دعم منها، وكان قـد وعد بتوحيد الكنيسـة مجـددًا، وممـا لاشـك فيـه أنـه كتب أطروحتـه الدينيـة هـذه لكي يحرض الدول المسيحية ضد الأتراك وليقنعها بشن حملة صليبية جديدة كان الهـدف ذا طابع عملي، وكان الدين يعمل لخدمة السياسة، لذلك فإن هذا الاستشهاد يخدم تمامًـا مـآرب الإمـبراطور الحـالي "جـورج بـوش الثـاني" فهـو أيضًـا يريـد أن يوحـد العـالم المسيحي ضد "محور الشر" المسلم، كما أن الأتراك يقرعون أبواب أوروبا ثانيـة، لكن بسلام هذه المرة، ومن المعروف أن البابا يؤيد الدول التي تعارض انضـمام تركيـا إلى الاتحاد الأوروبي.

هل توجد أي حقيقة في الحجة التي أوردها مانويل ؟

كان البابا نفسه قد ألقى كلمة يحتاط لنفسه فكونه عالمًا دينيًا جادًا فإنه لا يستطيع أن ينقض النصوص المكتوبة ويكذبها لذلك اعترف بأن القرآن قد حرم بوضوح نشر العقيدة باستخدام القوة واقتبس من سورة البقرة الآية (من الغريب أنه معصوم عن الخطأ بصفته البابا ؛ ولكنه أخطأ وقال الآية (257) التي تنص " لا إكراه في الدين".

كيف يمكن للمرء أن يتجاهل مثل هذا التصريح الواضح الجلي ؟ لكن البابا يجادل بأن النبي محمد كان قد جاء بهذه الآية عندما كان لا يزال في بداية رسالته، وكان ضعيفًا لا حول له ولا قوة، لكنه عندما اشتد عوده أمر أتباعه باستخدام السيف لنشر العقيدة، إلا أن هذا الأمر لم يرد في القرآن، صحيح أن محمد دعا إلى استخدام السيف لمحاربة القبائل التي حاربته وعارضته (مسيحيون ويهود وآخرون) في الجزيرة العربية عندما كان في طور إنشاء دولته، بيد أن هذا كان عملاً سياسيًا وليس دينيًا، كان في جوهره صراعًا على الأرض لا من أجل نشر الدين.

قال المسيح : " من ثمارهم تعرفونهم" إذ يجب الحكم على الطريقة التي عامل بها الإسلام الديانات الأخرى وذلك بإجراء اختبار بسيط، فكيف تصرف الحكام المسلمون منذ أكثر من ألف سنة عندما كانوا يملكون القوة ويستطيعون "نشر الدين بالسيف" ؟

حسنًا.. إنهم لم يفعلوا ذلك.

لقد دام حكم المسلمين على اليونان قرونًا عديدة، هل أصبح اليونانيون مسلمين ؟ هل حاول أحد أن يرغمهم على اعتناق الإسلام ؟ على العكس فقد تبوأ المسيحيون اليونانيون أعلى المناصب في الإدارة العثمانية، وعاش البلغاريون والصرب والرومانيون والهنغاريون وشعوب دول أوروبية أخرى لفترات متفاوتة تحت حكم الدولة العثمانية وتمسكوا بدينهم المسيحي، إذ لم يرغمهم أحد على اعتناق الإسلام، وظلوا جميعهم مسيحيين أتقياء.

صحيح أن الألبانيين اعتنقوا الإسلام، وكذلك البوسنيون، لكن لا يستطيع أحد أن يدعي بأنهم اعتنقوا الإسلام بالإكراه، بل اعتنقوه لتكون لديهم حظوة لدى الحكومة وليتمتعوا بخيراتها.

في عام 1099 غزا الصليبيون القدس وأعملوا في سكانها المسلمين واليهود قتلاً وذبحًا بدون تمييز، وذلك باسم السيد المسيح المتسامح الرقيق الجانب.

في ذلك الحين كان قد مضى على استيطان المسلمين لفلسطين 400 سنة، وكان المسيحيون لا يزالون يشكلون غالبية السكان في البلاد، وخلال هذه الفترة الطويلة لم يبذل المسلمون أي جهد لفرض دينهم (الدين الإسلامي) وهم أسلاف معظم فلسطيني اليوم.

لا يوجد أي دليل على الإطلاق على وجود محاولة لفرض الإسلام على اليهود، وكما هو معروف تمامًا فقد نعم يهود أسبانيا تحت حكم المسلمين بازدهار لم يتمتع به اليهود في أي مكان من العالم حتى وقتنا هذا تقريبًا، فقد نظم شعراء مثل يهودا هاليفي (الشاعر الأندلسي المعروف باسم أبو حسن اللاوي) باللغة العربية، كما كان يفعل الفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون العظيم، وفي أسبانيا الإسلامية شغل

اليهود مناصب وزراء وكانوا شعراء وعلماء معروفين، وفي طليطلة الإسلامية، كان العلماء المسلمون واليهود والمسيحيون يعملون معًا، وقاموا بترجمة النصوص اليونانية الفلسفية والعلمية القديمة، كان ذلك حقًا عصرًا ذهبيًا، فهل من الممكن أن يكون النبي قد أمر " بنشر الدين بالسيف" ؟

ما حدث بعد ذلك أكثر دلالة، فعندما احتل الكاثوليك أسبانيا ثانية واستردوها من المسلمين فرضوا عهد الإرهاب الديني، إذ كان أمام اليهود والمسلمين خياران قاسيان لا ثالث لهما : فإما أن يعتنقوا المسيحية، أو أن يقتلوا أو يغادروا البلاد، وإلى أين هرب مئات الآلاف من اليهود الذين رفضوا أن يتخلوا عن دينهم؟، لقد استقبلوا جميعهم تقريبًا بحفاوة في البلدان الإسلامية، لقد استقر اليهود السيفارديم (الأسبان) في جميع أرجاء العالم الإسلامي من المغرب غربًا وحتى العراق شرقًا، ومن بلغاريا (التي كانت جزءًا من الإمبراطورية العثمانية آنذاك) شمالاً وحتى السودان جنوبًا ولم يتعرضوا للاضطهاد في أي بقعة انتقلوا إليها، ولم يعرفوا شيئًا مثل التعذيب الذي كانت تمارسه محاكم التفتيش علنًا في الساحات العامة، واللهيب المتعالي لمواكب الإحراق auto da fe، وعمليات القتل والذبح والطرد الجماعي الفظيع الذي حدث في جميع البلدان المسيحية تقريبًا حتى وقوع الهولوكست.

لماذا ؟ لأن الإسلام حرم صراحة ممارسة أي اضطهاد على " أهل الكتاب" فقد كان اليهود والمسيحيون يتمتعون بمكانة خاصة في المجتمع الإسلامي، صحيح أنه لم تكن لهم حقوق متساوية تمامًا مع السكان المسلمين، إلا أنهم كانوا يتمتعون بجميع الحقوق تقريبًا، فقد كانوا يدفعون الجزية، لكنهم كانوا معفيين من الخدمة العسكرية، وهذه مقايضة لاقت ترحيبًا كبيرًا لدي الكثيرين من اليهود وذكر أن الحكام المسلمين كانوا يرفضون أي محاولة لجعل اليهود يعتنقون الإسلام حتى بالحسنى، لأن ذلك سيؤدي إلى خسارة الضرائب التي يدفعونها.

إن كل يهودي أمين يعرف تاريخ شعبه جيدًا لابد أن يشعر بالامتنان العميق للإسلام والمسلمين الذين قدموا الحماية لليهود طوال خمسين جيلاً في الوقت الذي كان فيه العالم المسيحي يضطهد اليهود وحاول في أحيان كثيرة "بالسيف" أن يجعلهم يتخلون عن دينهم.

إن قصة "نشر الدين بحد السيف" دعوى شريرة وآثمة ؛ إنها إحدى الأساطير التي ظهرت في أوروبا لطرد الأتراك الذين أصبحوا على أبواب فيينا، إني لأظن أن البابا الألماني أيضًا يؤمن بهذه الخرافات حقًا، وهذا يعني أن زعيم العالم الكاثوليكي الذي يعد عالمًا في الدين المسيحي عن جدارة لم يبذل أي جهد في دراسة تاريخ الديانات الأخرى.

لماذا قال هذه الكلمات على الملأ ؟ ولماذا الآن ؟

لأنه لا مفر من رؤيتها من زاوية الحملة الصليبية الجديدة التي يشنها بوش وأتباعه الإنجيليون بشعاراته (الفاشية الإسلامية) و (الحرب العالمية على الإرهاب) عندما أصبح (الإرهاب) مرادفًا لكلمة المسلمين، فبالنسبة لأعوان بوش، فإن هذه مجرد محاولة سافرة لتبرير هيمنتهم على منابع النفط في العالم، فليست هذه هي المرة الأولى في التاريخ التي تنشر فيها عباءة دينية

لتغطية عري المصالح الاقتصادية ؛ ليست هذه هي المرة الأولى التي تتحول فيها الحملات اللصوصية إلى حملة صليبية.

إن الكلمة التي ألقاها البابا تندرج في هذا المسعى، لكن من يستطيع أن يتنبأ بالعواقب المريعة ؟

* * *

لقاء بين المندوب البابوي وكبير الأساقفة

ميشيل فيتز جيرالد والدكتور كورنيليس هولسمان

8/10/2006م

في 8 أكتوبر التقى الدكتور كورنيليس هولسمان مع كبير الأساقفة والمندوب البابوي لمصر ميشيل فيتزجيرالد، ودار بينهما حوار طويل وهام.

(س) : سأل الدكتور كورنيليس هولسمان عن وزن وقيمة محاضرة البابا بين وثائق البابوية، وهل يمكن التفريق بينه كشخص وبابا ؟

(ج) : إن أهم الوثائق هي ما يأتي عن المجمع Council لأنها ظفرت بموافقة كل الأساقفة الذين يجتمعون فيه، وبعدها يأتي ما يقدمه البابا في مجال التوجيه الديني الذي يصدر عن مثل رسالته عن "الله محبة" التي يمكن أن تعد تصريحًا رسميًا، وهناك تصريحات عارضة تعد أقل أهمية، وأظن أن محاضرة البابا تقع بين التصريح الشخصي لأنها صدرت عنه باعتباره أستاذًا زائرًا لجامعته القديمة أكثر مما كانت صادرة عن رئيس الكنيسة الكاثوليكية، كما أنه ذكر أن هذا النص ليس هو النص النهائي، وأنه يحتاج إلى تكملة وإضافة بعض الملاحظات، وهذا ما قد يؤدي إلى تعديل النص.

(س) : هل سيعدل هذا النص ؟

(ج) : لا أدري.. كل ما أعلمه أن البابا أعلن أنه يرغب في مراجعة النص، فهناك إمكانية المراجعة، ولكن ما الصورة التي سيأخذه هذا التعديل.. فهذا ما لا أعمله.

وناقش د. كورنيليس معه انطباعاته عندما قابل الدكتور زقزوق، والشيخ طنطاوي، فأشار إلى أن بعضها كان حارًا وصعبًا، والآخر كان وديًّا.

(س) : هل قال الشيخ طنطاوي إن الحبر الأعظم لن يكون محل ترحيب في الأزهر ما لم يقدم اعتذارًا.

(ج) : كان هذا في اللقاء الأول عندما اقترح ذلك شخص ما دون أي سلطة أو صفة، كما لم يكن اقتراحًا وجيهًا، وفيما يبدو لم يكن المناخ مهيئًا لمثل هذا الاقتراح.

(س) : هل كان فصلكم لدرجتكم من رئاسة لجنة الحوار بين الحضارات وتعيينكم ممثلاً البابا في مصر، وتنزيلاً لدرجتكم كما هو شائع في مصر ؟

(ج) : هـذا شـائع في أجـزاء أخـرى من العـالم، كمـا قيـل إنـه ترقيـة لأن مصـر دولـة "حاكمة".

(س) : مـا هـو موقـف الكنيسـة إزاء الحملات الصـليبية، ومحـاكم التفـتيش ومـزاعم الرئيس بوش.

(ج) : هذه قصة تاريخية لأننا نعلم أن الإسلام انطلق من الجزيرة العربيـة بجيش وفتح سوريا ومصر والعراق، وفي بعض الحالات فإن هذه الجيوش قوبلت بترحـاب من الشعوب، التي كانت خاضعة للسـيطرة البيزنطيـة والفارسـية، فـاعتبرت محـررة لهـا، ولكن الجيـوش اسـتمرت بعـد ذلـك، وأنـا أعتقـد إن "الفتوحـات" والحـروب الصليبية يجب أن تكون محل دراسة جـادة أمـا مـا يثـار حاليًـا فهـو عن الإرهـاب، والإرهاب موجود في كورسيكا وفي الباسك وفي إيرلندا.

(س) : هل تستنكرون الإرهاب الذي ترتكبه الحكومـات ضـد العـرب مثـل مـا تمارسـه إسرائيل ضد فلسطين وضد لبنان ماذا عن "القنابل البشرية" ؟

(ج) : نعم، إن البابا استنكر، ودعا باستمرار للتفاوض مـا بين إسـرائيل والفلسـطينيين لدرجة أن الحكومـة الإسـرائيلية أدانت ذلـك ولامت البابـا ؛ لأنهـا رأت أنـه متحـيز للعرب.

(س) : أثـير في بعض الاجتماعـات مـع البابـا سـنة 1997 عن الإسـلام والديمقراطيـة نقاشات، وقيل فيها أن الإسلام لا يتفق مع الديمقراطية.

(ج) : هذه كانت لقاءات خاصة.

(س) : أجل، ولكن الناس تناقلوا ذلـك وقـال الأب فاسـيو إن الأب المقـدس ارتـأى أن الإسلام لا يمكن أن يتفق مع الديمقراطية، وعقب الأب سـمير خليـل أن البابـا لم يقل هذا، ولكن قال إن من الصعب أن يتفق الإسلام مع الديمقراطية.

(ج) : يجب أن تكون هناك لأنك تخـتزل شـيئًا في جملـة واحـدة وتنزعهـا من سـياقها، وهذا يخلق صورة مشوهة.

(س) : هذا صحيح، ولكن ماذا نفعل ؟

(ج) : لا شيء.

(س) : إن متابعة محاضرة البابا جعلت هذه التصريحات هامة، وهي محل انتقال.

(ج) : ليس هناك مثل هذا الانتباه، وعلى كل حال فهذا أمر حسن.

(س) : أحقًا ؟

(ج) : إن شيئًا طيبًا يمكن أن يتمخض عن ذلك.

(س) : ما هو هذا الشيء الحسن.

(ج) : أن تستطيع أن تتناقش في بعض المواضيع مثل "الإيمان والعقل" كما اقـترحت أنت في مجالسنا مـا بين المسـيحيين والمسـلمين حـول التـاريخ المشـترك ن أن نقرأ التاريخ معًا بدلاً من أن يكون الواحد ضد الآخر.

(س) : إن موضوع الديمقراطية لا يزال قائمًا لأن بعض وسائل الاتصال العربية، وبعض الكتـاب ربـط مـا بين موقـف الأب المقـدس وسياسـة الولايـات المتحـدة، وأنهـا استخدمته لتطبيق سياستها في المنطقة، أو أنه ترك نفسها يستخدم ـ دون قصد ـ من الولايات المتحدة.

(ج) : لا أظن أنه كان مستخدمًا من الولايات المتحدة، ولا أنه ترك نفسه ليستخدموه، ولكني أرى إن بعض الصحفيين في الولايات المتحدة نظروا فيما قال البابا وقالوا : " أوه، هذا هو ما نقوله نحن إنهم فسروا أقوالـه بطـريقتهم، وأظهـروا أن البابـا يؤيد سياسة الولايات المتحدة، ولكني أعتقد أن هناك وجهة نظر أخرى.

(س) : إن البابا لم يقدم تصريحًا عامًا عن الديمقراطية أو عن الطريقـة الـتي يجب أن تنظم بها الدولة.

(ج) : لا أعلم شـيئًا عن هــذا، ولكن البابــا كشــف عن المحبــة، وهــذا هــو البيــان encyclicals الوحيد الذي أصدره،وهو عن أمر حيوي للكنيسة.

(س) : هل تظن أن تصريحات البابا شنودة عن المحاضرة قد أسـاءت إلى العلاقـة مـا بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذكسية.

(ج) : أظن، إنه كثيرًا ومن الكاثوليك قد صدموا بهذه التصريحات.

(س) : لقد استخدمت محاضرة رجنسبرج كأداة للتخاطب، ولم تكن تقصد ذلـك، ولكن هذا حدث، وهذا سيئ جدًا.

(ج) : بالطبع إن بعض الناس استخدموها لخدمة أغراضهم.

(س) : ماذا تظن أن علينا أن نفعل في CIDT ؟

(ج) : واصلوا الحديث مع الأساتذة، وقد يكون علينـا أن نتحـدث، حـاولوا الحـديث مـع أشخاص مثل سليم العوا، أننا نريد أن نتكلم وأن نستمع إلى دعاويهم.

(س) هل ترحب بمقابلته ؟

(ج) لا أعلم هل يكون عليَّ ذلك، ولكن بكل تأكيد يجب على الناس في مصر.

* * *

ردود أخرى

لا ندعي أننا تقصينا كل الردود على خطبة البابا، لأن هذا الكتاب ليس ملفًا توثيقيًا بالدرجة الأولى، وقد أدرجنا كل ما جاء في الصحف التي نقرأها عادة، أو ما تيسر لنا.

وقد قام مركز التقارب بين الثقافات والترجمة CIDT، ومركز التفاهم بين العرب والغرب الذي يرأسه الدكتور كورنيليس هولسمان باستقصاء ما جاء في الصحافة المصرية من تعليقات على الخطبة، ندرج هنا بعضها.

- **ففي استقصاء بتاريخ 14/10/2006، جاء تعليقًا على لقاء البابا مع سفراء الدول الإسلامية، أن البابا قال إن الاحترام ما بين الأديان يجب أن يكون متبادلاً خاصة بالنسبة لحرية العبادة، على أن البابا لم يشر إلى التصريحات التي قدمها عن الإسلام والرسول محمد، وحتى تجاهل طلبات الدول الإسلامية اعتذارًا صريحًا (الأحرار في 26/9/2006م).**

- **وفي قلعة جاندفو جنوب روما والمقر الصيفي للبابا، عبر البابا عن تقديره واحترامه للمسلمين، ودعا المسلمين والمسيحيين للعمل معًا لتجنب أي صورة من صور عدم التسامح ونبذ العنف (الحياة في 26/9/2006م).**

- **دافع رئيس وزراء أسبانيا السابق جوس ماريا ازنار عن تصريحات البابا التي هاجم فيها الإسلام، وتساءل مندهشًا لماذا يطالب الغرب دائمًا بالاعتذار ؟، بينما لا يعتذر أبدًا مسلمو العالم ويعتبر ازنار أن تحالف الحضارات alliance civilizations قد أصبح محل دفاع أسبانيا، ورأى رئيس الوزراء جوس لوس ازنار أن مد الجسور ما بين الغرب والعالم الإسلامي أمرًا مضحكًا (الوفد في 25/9/2006م).**

- **رفع محام يدعي نبيه طه قضية على سفارة الفاتيكان في القاهرة مطالبًا بتعويض بليون يورو عن الكلمات العدائية ضد الإسلام والرسول محمد ﷺ. (روز اليوسف في 25/9/2006م)**

- **كما رفع عدد من المحامين قضية أخرى أمام المحكمة الإدارية ضد الشيخ طنطاوي ووزير الخارجية أحمد أبو الغار للمطالبة بقطع العلاقات ما بين الفاتيكان ومصر، كرد على تصريحات البابا. (روز اليوسف في 26/9/2006م).**

- **جاء في مجلة الدستور أن البابا قد بلغ من العمر عتيًا بحيث أنه لم يعد قادرًا على اختيار كلماته، وأن يلحظ الاحترام عندما يتحدث عن شعب ببلايين المسلمين.**

- **كان من الأفضل للبابا وللمسلمين أيضًا لو أنه درس بعمق المسيحية وفلسفتها التي تدعم رسالة الإنسانية وتعزز السلام العالمي، وعندئذ فحسب يمكن للبابا أن يكون "بابا الفاتيكان" وليس بابا البيت الأبيض. (الأسبوع في 25/9/2006م).**

- **وقال الأستاذ جمال بدوي إن خطبة البابا بنديكت الـ 16 في إحدى الجامعات الألمانية تذكرنا بخطبة البابا أربان الثاني في كليرمونت (جنوب فرنسا) التي أعلن بها الحرب الصليبية الأولى (الوفد في 18/9/2006م). إلى هنا انتهينا من استقصاءات مركز التقارب بين الثقافات والترجمة CIDT.**

- **وجاء في الأهرام (21/9/2006م) تحت عنوان "الإسلام خطوة سيئة للبابا بنديكت السادس عشر"، إن البابا اتبع في خطبته مبادئ نختلف عن مبادئ سلفه البابا يوحنا بولس الثاني.** وكشف كاتب المقال الصحفي الفرنسي الشهير والخبير في شئون الأديان "هنري تانك" عن أن بديكت عزل غداة تنصيبه كرسي البابوية القس المسئول عن الحوار مع الإسلام بزعم أنه كان متساهلاً أكثر من اللازم، وعقب اندلاع أزمة الرسوم الكاريكاتيرية المسيئة للرسول ﷺ، قرر البابا دمج وزارتي الحوار مع الأديان والثقافة في وزارة واحدة، لأنه رأى أن الحوار مع الأديان، ينبغي ألا يكون لاهوتيًا، بل ثقافيًا محضًا. وكشف "تانك" عن أن البابا كان دائمًا ما يبتعد عن لقاءات حوار الأديان في مدينة "أسيز" الإيطالية لأنه كان يعتبرها خطرًا يهدد "الشخصية الكاثوليكية" بالذوبان، وأضاف أن البابا ليس لديه خبرة سياسية، حيث قضي حياته مفكرًا ومحاورًا ومدافعًا متشددًا عن العقيدة المسيحية. لكن "تانك" استطرد قائلاً : إنه لم يكن أحد يتصور أن تنكشف عدم الخبرة السياسية لدي البابا في وضح النهار بهذا الشكل غداة توليه الكرسي البابوي، مشيرًا إلى أن البابا ارتكب عدة أخطاء أيضًا تجاه اليهود. وكشف "تانك" عن أن البابا نفسه اعترف لبعض المقربين منه بعدم حنكة أغلب معاونيه وعدم وجود تقارير يعتمد عليها، واعتماده في معظم الأحيان على نفسه، وهو ما أفضى إلى إساءة للإسلام.

- **وقد تواصلت ردود الفعل على تصريحات البابا المسيئة للإسلام، فمن أثينا كتب "عبد الستار بركات" أولت وسائل الإعلام اليونانية اهتمامًا شديدًا بتصريحات البطريك ثيوظوروس الثاني بطريرك الإسكندرية وسائر أفريقيا لطائفة الروم الأرثوذكس، التي جاءت**

بمثابة رسـالة قوية تـدين تصـريحات البابـا المسـيئة لـدين الإسـلام والرسول الكـريم، كمـا أبـرز الإعلام اليونـاني تأكيـد البطريـرك دور مصر الإيجـابي شـعبًا وحكومـة في الـترحيب بالبطريركيـة واحتضـان مصر واحترامها ورعايتها لجميع الديانات المختلفة.

☒ **وفي بيـان للبطريريـك اليونـاني أدان فيـه تصـريحات البابـا قـال : "نرفض التعصب الديني ولابد من احـترام الـديانات الأخـرى للبشـر"، وأعرب عن أسفه للأزمة، مـذكرًا أن على رجـال الـدين التحلي ببنـاء روح التضامن ونشـر السـلام بين شـعوب الإنسـانية بغض النظـر عن الجنس أو المـال أو الديانـة، كمـا أشـار إلى أن الـدور الأسـاس للبطريركية في الإسكندرية هو تأكيد التحلي بروح التعايش السـلمي بين الشعوب.**

☒ **وأشاد البطريرك ثيوظوروس الثاني بشعب مصر وحكومتهـا موضـحًا أنه بالرغم من اختلاف الديانات في مصـر، فهنـاك تـرحيب كبـير من قبـل الدولـة بـدور البطريركيـة، وأن الشـعب الأرثوذكسـي يتعـايش بـإخلاص مـع شـعب مصـر المسـلم، وذكـر أن البطريركيـة تـرفض التعصب خاصة التعصب الـديني ويجب تفعيـل التعـاون بين الـديانات المختلفة بحيث يقود هذا التعـاون إلى الاحـترام والسـلام، ولابـد من تجنب أي شيء قد يثير التوترات بين الشـعوب أو الأديـان،** وهـذا نفس موقف رئيس أساقفة سبسطية الروم الأرثوذكس في القدس الشريف المطـران عطا الله حنا الذي اعتبر تصريحات البابا المسـيئة لم تكن بريئـة وأنهـا تنـدرج في إطار المؤامرة على الإسلام والمسلمين، وعلى كل ما هو نقي وشـريف في هـذه الأمة، وأضاف المطران عطا الله أن الكلمات الـتي صـدرت عن البابـا لم تقتصـر على استفزاز مشاعر المسلمين فقـط، بـل والمسـيحيين الشـرقيين أيضًـا، وهي كلمات مرفوضة جملـة وتفصـيلاً ولا تمثـل المسـيحيين، وفي القـاهرة أعلن بيـان للكنائس الإنجيليـة ضـرورة احـترام عقائـد الآخـرين ورفض الإسـاءة إلى مشـاعر المسلمين ودعوة الجميع إلى تجنب جميع أساليب الإثارة والتحـريض حرصًـا على الوحدة الوطنية.

☒ **وجـاء في المصـري اليـوم (15/10/2006م) تحت عنـوان "الفاتيكـان يبدي استعداده للمساعدة في نزاع فتيل معاداة الإسلام" أعلن وزير خارجيـة الفاتيكـان الكردينـال تارسيسـيو بـيرتوني أن دولتـه على استعداد لأن تقوم بدور من أجل المساعدة في نـزع فتيـل المشـاعر المعادية للإسـلام الكامنة ــ حسب قوله ــ في قلوب كثـيرة، وقـال بيرتوني ــ في مقال لمجلة "30 يومًا" الإيطالية الكاثوليكية الشهرية**

ـ يتعين علينا أن ننزع الضغينة ضد الإسلام الكامنة في قلوب كثـيرة وإن كـانت حيـاة كثـير من المسـيحيين عرضـة للخطـر، ولم يخض بـيرتوني في تفاصـيل، لكن الفاتيكـان أبـدى قلقـه بشـأن الأقليـات المسـيحية على سـكانها في دول يغلب المسـلمون على سـكانها، وأضاف بيرتوني : إن العلاقة بين الكنيسة والإسـلام يتعين أن يكـون محورها "تعزيز كرامة كل شـخص وزيـادة الـوعي بشـأن الـدفاع عن حقـوق الإنسـان"، لكنـه قـال "إن الـدفاع عن الحـق في التبشـير بالإنجيل حتى للسلمين، مادام ذلك يتم بأسلوب يحترم حرية الأديان" انتهى. ونحن نرى أن هذا لا يـنزع فـتيلاً، بـل هـو يعـبر عن سـوء فهم الفاتيكـان لوضع الأقليـات المسـيحية في الـدول الإسـلامية، وهـو يحمـل نزعـة من التعـالي ويعترف بحقها في التبشير بين المسلمين، فهـل يعـترف وزيـر الخارجيـة البـابوي بحق المسلمين في التبشير بالإسلام بين المسيحيين، وإذا طبق هذا تحقيقًا لمبـدأ المسواة، أفلا يشعل ذلك نارا ومنافسة دينية في كل دول العالم وبين المسـلمين والمسيحيين ؟؟!!

- **وجاء في جريدة الأخبار 18/9/2006 : أن بابا الفاتيكان يعلم جيدًا أن الإسرائيليين استخدموا نصوص التوراة ليبرروا المجـازر ضـد النسـاء والأطفال، وأن يقترفوا كل أنواع الجرائم ضد الإنسانية بما في ذلك إبعاد السكان عن أراضيهم، وهو يعلم أيضًا أن هـاري ترومـان رئيس الولايـات المتحـدة أمـر بإسـقاط قنبلـتين نوويـتين على هيروشـيما ونجـازاكي خلال الأيـام الأخـيرة للحـرب العالميـة الثانيـة وقتلت وشوهت مئات الألوف من السكان الأبرياء دون أي مبرر عسكري.**

- **وجاء في الأهـرام في (21/9/2006م) تحت عنـوان "اسـألوا التـاريخ عما قاله البابا"،**استعرضـت الـدكتورة ناديـة حسـني أسـتاذ التـاريخ والحضـارة الإسـلامية، تـاريخ العلاقـات مـا بين الكنيسـة الكاثوليكيـة (رومـا) والكنيسـة الأرثوذكسية (القسطنطينية)، فقالت : لم يكن القسـمان الشـرقي والغـربي من الإمبراطورية الرومانية بعد دقلديانوس منفصلين فحسب، بل كانتا متنافسـين في أغلب الأحيـان، كانت الحكومتان على عداء متبادل، لقد اتضـح الانشـقاق الـديني حين اتخذت الإمبراطورية الشرقية من المسـيحية دينًـا للدولـة، وصـار إمـبراطور القسطنطينية على رأس الكنيسة الشـرقية الـتي كـانت أقـوى من كنيسـة رومـا، حيث كـان البـابوات يناضـلون لتقريـر سـلطتهم، وقـد اكتسـبت الكنيسـة الغربيـة السـيادة في العـالم المسـيحي بانضـمام القـوط الغربـيين إلى الصـورة اللاتينيـة بولائهم للبابا، وهكذا صار للبابوية في روما مركز الصـدارة في العـالم المسـيحي وتعددت المحاولات والعروض على الكنيسة الشرقية لخضوعها لكنيسة روما دون جدوى وباءت كل المحاولات بالرفض والفشل، وليس أدل على ذلـك من الحملـة

الصليبية الرابعة التي عاث جنودها في الأراضي البيزنطية سلبًا ونهبًا وتخريبًا، ولم تسلم منهم الكنائس التي سلبوا كل ما فيها من نفائس وتحف وممتلكـات، وكـان هدفهم إجبار الكنيسة الشرقية على الخضوع، لـذلك فقـد ظفـروا بمباركـة البابـا، ورغم كل ذلك فلم يستطيعوا تحقيـــق هدفهم، وظلت كنيسـة القسـطنطينية في نفور وعزلة بعيدة عن كنيسة روما التي ظل الحلم يراودها أملاً ترنوا إلى تحقيقه، كان الإمبراطور البيزنطي حنا الخامس باليولوجوس تحت ضغوط مختلفة لم يجـد وسيلة لحماية ما تبقى من دولته سوى الاسـتنجاد بـالغرب اللاتيـني، لـذلك سـافر إلى رومـــا 1369، والتقى بالبابـــا أوربـــان الخـــامس وأعلن اعتناقـــه للمـــذهب الكاثوليكي، وكتب له اعترافًا بقبول وجهة نظـر الكنيسـة الغربيـة الكاثوليكيـة في جميع نواحي الخلاف بين الكاثوليكية الشرقية والغربية، ثم توفى الإمـبراطور حنـا وخلفه ابنه الإمبراطور مانويل باليولوجوس الـذي اضـطر تحت ضـغط العثمـانيين المسلمين، وضغط ممالك اللاتين الكاثوليـك في الغـرب ومن خلفهم البابـا الـذي كـان يعمـل على إخضـاع الكنيسـة الشـرقية للكنيسـة الغربيـة اضـطر للاعـتراف بالتبعية مثل والده، زار الإمـبراطور مانويـل بـاليولوجوس إيطاليـا وفرنسـا طالبًـا المعونة ضد العثمانيين المسـلمين وكـان الثمن طبعًـا هـو موقـف والـده بإخضـاع الكنيسة الشرقية للكنيسة الغربية الكاثوليكية. ومن الجديـر بالـذكر أن الشـــعب البيزنطي ظل يقــاوم ولم يعترف بما فرض عليه واعترف به مانويل بــاليولوجس ووالده، حـتى جعـل تلـك الاتفاقـات حـبرًا على ورق. ولـو عرفنـا أن سـجل البابـا بنديكت حافل في مواجهة الإسلام والأرثوذكس وأنه رفض انضمام تركيا المسلمة ـ سـليلة العثمانيين ـ للاتحـاد الأوروبي المسـيحي، وأنـه ألغى فريـق العمـل في حوار الأديان، بل يجب أن يكون هنـاك حـوار مسيحي مسـيحي لتوحيـد الكنـائس وضم الكنيسـة الشـرقية للكنيسـة الغربيـة تحت لوائـه، اتضـح أن محـور الحـديث واقتباس جزء من نص الإمبراطور البيزنطي كان حول هـذه القضـية، وأن انتشـار الإسلام بالقتل والسيف الذي لا يخضع لعقل، وإنمـا يصـور للكنيسـة الأرثوذكسـية الشرقية مدى الخطر الـذي يتهـددها وتتعـرض لـه وأن ملاذهـا الآمن هـو أحضـان الكنيســة الغربيــة لتحتمي بهــا، ولا حــرج عليهــا في ذلــك، فقــد فعلهــا مانويــل باليولوجوس من قبل وتخلى عن مذهبه وتحول إلى الكاثوليك، القضـية هي خلـق شبح مخيف يرهبون به الكنيسة الشـــرقية، خطر يصورونه يوهمون أنـه يتهـددها، علهم يحققــون أهــدافهم السياســية !! ونســوا أنــه رغم خضــوع الأبــاطرة إلى باليولوجوس واعترافهم وتـوقيعهم للكنيسـة الكاثوليكيـة فـإن الشـعب رفض ولم يتجـاوب وظلت الكنيسـة الشـرقية صـامدة تعـتز بآرائهـا ومعتقـداتها.. انتهى. إن الدكتورة نادية تكشف عن بُعد جديد أو فكـرة لم يتنبـه إليهـا معظم الـذين علقـوا على المحاضرة أو ذهبوا مذهبًا آخر كالدكتور حامـد أبـو زيـد الـذي رأى أن الطعن في الإسلام إنما كان ستارة للطعن في الكنائس المسيحية الأخرى.

☒ **ونشـــر في الأهـــرام في (24/9/2006م) تحت عنـــوان "حضـــارات الحوار"** للأستاذ نبيل السجيني جاء فيها : عن حوار الأديان بـأن البابـا وبـوش لم يكونا هما أول من أثار المخاوف من الإسلام، فقد سبقها ريتشارد نيكسـون الـذي قال : إننا لا نخشى الضربة النووية من الاتحاد السوفيتي، ولكننـا نخشـى الإسـلام الذي يعتبر من أكبر التحديات لسياسة الولايات المتحـدة الأمريكيـة الخارجيـة في القرن الـ 21.

ويرى البعض أن هجمات 11 سبتمبر عام 2001 هي السبب الرئيسي في إيقـاظ الحرب الغربية على الإسلام، لكنها كانت خطة يجري الإعداد لهـا بدقـة منـذ زمن، ومـا يؤكد ذلك أنه قبل أحداث سبتمبر بثماني سـنوات، أكـد صـمويل هنتجتـون في نظريتـه حتمية صدام الحضارات أن الغرب بعد سقوط الاتحاد السوفيتي بحاجة ماسة إلى عدو جديـد يوحـد دول وشـعوب الغـرب، وأن الحـرب لن تتوقـف حـتى لـو سـكت السـلاح وأبرمت المعاهدات، ذلك أن حربًا حضارية قادمة ستستمر بين المعسكر الغربي الـذي تتزعمه أمريكا، وبين طرف آخر قد يكون العالم الإسلامي أو الصـين. ويحـاول الغـرب منذ قرون طويلة تدمير الجسور المقاومة بينه وبين الإسلام وبلورة صورة نمطية ثابتـة عن الإسلام كصورة الشريعة الإسلامية الأصولية، وربطه بالقسوة والإرهـاب، ممـا أدى إلى أثـاره كـل هـذا الحقـد في الغـرب علي الديانـة الإسـلامية واعتبارهـا في مقدمـة الأخطار التي تواجههم، ومع بدايـة التسـعينيات من القـرن الماضـي ابتـدعت الولايـات المتحدة أساليب جديدة للاسـتعمار، فبـدأت بمسـاعدة الغـرب في التسـويق لمفـاهيم العولمة ونشر الديمقراطية والنظام العالمي الجديد وصراع الحضـارات، نهايـة التـاريخ وفكرة الإرهاب الإسلامي، وغيرها من المفاهيم لفرض سـيطرة النمـوذج الغـربي دون احترام لعقيدة وخصوصيات الغـير وطمس أديـان وثقافـات الشـعوب الأخـرى بـدعوى الديمقراطية والأمن والحرية وحقوق الإنسان، هذه المفاهيم روج لها جـورج واشـنطن أول رئيس لأمريكا سنة 1789 حين قال : الشعب الأمريكي موكل بمهمة عهد الله بها إليه.

ودوايت إيزنهـاور الـرئيس الأمـريكي 1953 الـذي أعلن أن القـدر حمَّل بلـدنا مسئولية قيادة العالم الحر.

وبيل كلينتون الذي شدد التزام بلاده بتحويل العـالم إلى صـورة طبـق الأصـل من الولايات المتحدة.

☒ **ونشر في الأهرام في (24/9/2006م) تحت عنوان "تصريحات البابـا تعوق الحوار مـع الكنيسـة الكاثوليكيـة وأغلبيـة الأطـراف المسـيحية الأخرى بعيدة عن هذا الخلاف"** للدكتور علي السـمان : أن تصـريحات البابـا تعوق الحوار مع الكنيسة الكاثوليكية وأغلبيـة الأطـراف المسـيحية الأخـرى بعيـدة عن هذا الخلاف.

على الرغم من تصريحات البابا، فإن ذلك لا يعني وقف الحوار كأسلوب في العلاقات الإنسانية، فالحوار هو البديل عن الصدام، وهو يعني التعايش، ولكن حين قال البابا هذا التصريح، نحن نعلم أن ذلك سيكون معوقًا للحوار، ولكن مع الكنيسة الكاثوليكية على وجه الخصوص، لأنه يوجد في الحوار جوانب وأطراف متعددة مثل الكنائس المسيحية الشرقية الأرثوذوكس وجزء من الكاثوليك العرب والكنيسة الإنجيلية الإنجليكانية وهي بعيدة كل البعد عن هذا الخلاف، نظرا لأن موقفهم له بعد تاريخي، فقد كانوا أثناء الحروب الصليبية ضد هذه الحرب، وأيضًا لا نستطيع أن نعمم الأحكام فتقول المسيحيين جميعًا، ولنكن محددين، فنحن لدينا مشكلة مع بابا الفاتيكان ومع الكنيسة الكاثوليكية إذا أبدت تمسكها بهذا الموقف.

وأضاف د. علي السمان : لا يكفي للحوار أن يكون فيه رجال دين فقط، لأنه لابد أن يكون لديهم وعي عام بالمجتمع، فالفاتيكان دولة ومن يتعرض لهذه المشكلة، لابد أن يكون لديه وعي ديني واجتماعي وبسؤاله عما إذا كانت هناك أزمة حقيقية في الحوار، أجاب إن من حق الناس أن يتساءلوا : ماذا أفاد الحوار؟ فالبابا الراحل يوحنا بولس الثاني كان نموذجا حيًا ومشرقًا، لأنه نجح في أن يجمع ممثلي كل الأديان وكنت شاهدا علي ذلك حين ذهبت إلي مدينة أسيسي بإيطاليا، ويهمني أن أوضح أن اختيار البابا لهذه المدينة في ذلك الوقت جاء لأنها المدينة التي ولد فيها القديس فرانسوا أسيسي مؤسس الفرنسيسكان، وهذه الجماعة كانت هي الوحيدة التي اعترضت على اعتدائهم علي الأرض العربية، ولذا فهو اختار هذا المكان لأنه رمز لمن قال لا للحروب الصليبية وحول فرص نجاح الحوار مستقبلا، بعد هذه الأزمة، قال د. السمان : إنه تم تحقيق نتائج من قبل، ولكن في الفترة المقبلة يجب للحوار أن ينتقل إلى القاعدة العريضة من الشعوب.

- **ونشر "الأسبوع" في (16/10/2006م) كلمة تحت عنوان"حرب جديدة يعلنها البابا أوربان الثاني"** للأستاذ عبد الباسط عبد الصمد استعرض فيها تاريخ الحملات الصليبية منذ أن أعلن البابا أوربان الثاني أوهلا سنة 1096 التي استهدفت القدس، بينما استهدفت الحملات الصليبية من الرابعة وادي النيل، واستعرض من ذلك محاولات الإساءة إلى الإسلام منذ أن جعل بوش من حوادث 1 سبتمبر 2001 أساسًا لشن الحرب على الإسلام، ولاحظ أن الرسوم الكاريكاتورية الدنمراكية ظهرت قبل 11 سبتمبر سنة 2005 بأيام.

واستطرد "لم يكن بابا الفاتيكان غافلاً عن عبارات قرأها دون أن يقصد معناها، بل كان قاصدًا كل حرف قاله ؛ لأنه بنفسه اختار العبارات القديمة التي استعارها والتي تصف الرسول بأنه رسول الشر، وأن ما جاء به من القرآن هو الشر ذاته، والبابا حينما خرج ليبدي أسفه كان يظن أنه يمكن أن يضحك على عقول المسلمين، بل لقد ازداد شططًا في إهانة المسلمين جميعًا حينما قال : "إن المسلمين اساءوا فهم ما

قلت"، وهذه ألعن من أختها ! وهي إهانة تضاف إلى ما قاله في محاضرته بألمانيا، لأنه يتهم المسلمين بأنهم لا يفهمون ما يسمعون ! ثم كيف يفكر هذا البابا حينما يزعم أنــه لم يقصد الإساءة وقد شاهده العالم وهو يقرأ ما قاله وما كتبه جهارًا ونهارًا وعيانًا، إنـه لم يتوقف عند أية عبارة ليصحح كلمة أو جملة فيها جاءت خطأ، بل هو قرأ كل ما كتب عن الإسلام، وعن النبي محمد، دون أن يتوقف لحظة !! ثم كيـف يكتب محاضـرة دون أن يفكر فيما كتب ؟! "إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قـدر ثم فكـر وقـدر فقتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبروا فقال إن هذا إلا سحر يؤثر أن هذا إلا قول البشر سأصليه سقر".

إن البابـا يقصـد تمامًـا مـا كتب ومـا فكـر قبـل أن يكتبـ مـا قـرأه في محاضـرته السفيهة، أنه يريد أن يقدم فروض الطاعة لأمريكا وعلى رأسها بوش الثاني على مثـل (أوربان الثاني) داعية الحرب ضد الإسلام والمسلمين بابا الفاتيكان يريـد أن يلعب دور أوربان الثاني ليتزعم طوائف المسيحية لا أن يظل زعيم طائفة الكاثوليك فحسب.

بابا الفاتيكان الجديد يعني كل كلمة قالها لأنه لم يكن سـكيرًا ولا غائبًـا عن عقــله ولا فاقدًا لأهليته، وهو لم يتكلم أمام مجمع من الموتورين، فإن قال البابا إنه لم يقصـد ما قال لأنه لم يشعر بأنه أسـاء للإسـلام وللرسـول فإنـه يحكم على نفسـه بأنـه رجـل موتور، أو مأفون والاثنـان سـيان وصـنوان، وأن يختـار لنفسـه مـا شـاء من النعـتين أو الصفتين.

إننا أمام حرب صليبية حقيقية لا هزليـة ولا ينقصـها سـوى ريتشـارد قلب الأسـد وبرباروسا وفيليبـ الثاني، بل إن بـوش الثـاني يمثـل هـؤلاء الملـوك والأبـاطرة الـذين قـادوا الحملـة الصـليبية الرابعـة جميعًـا ضـد الإسـلام والمسـلمين، في حين أن بابـا الفاتيكان يمثل أوربان الثاني، هي حملة جديدة ومنظمة ومدبرة بنهار وليس بليل، ولم تتوقف على مدى التاريخ، ففي كل عقـد من الزمـان نسـمع ونـرى القـوات الأمريكيـة تجوب البحار وهي تهدد بلاد العرب والمسلمين فقط لا غير.

ملاحظات حول الردود

جاء أشجع الردود من شخصيات غير مسلمة، كان أبرز هذه الردود الشجاعة رد مصري كاثوليكي هو الأستاذ البير عازر بارح الأمين العام لجمعية الإخاء الوطني لنسيج الأمة بالإسكندرية الذي طالب البابا باعتذار صريح رسمي مقنع أو الاستقالة، وعبر عن مشاعر المحبة والتقدير للإسلام التي تـُـكنها القلوب الكبيرة والأفاق المتسعة والحرص على الحقيقة، وجاء أشجع رد بلغة غير عربية من الكاتب الإسرائيلي "يوري افنيري" تحت عنوان "سيف محمد" الذي قال فيه : "إن كل يهودي يعرف تاريخه جيدًا يشعر بالامتنان العميق للإسلام الذي حمى اليهود طوال خمسين جيلاً وعاملهم بكرم ومساواة في حين كانت المسيحية تضطهدهم وتحاول أن تخرجهم عن دينهم بالسيف".

وعنيت بعض الردود بمناقشة محاضرة البابا مناقشة متأنية مثل كلمة الدكتور حامد أبو زيد، وكلمة الأستاذ أحمد النفر، ودكتور رفيق حبيب وغيرهم، وقد عنينا بإبراز هذه الكلمات لأنها تعالج المحاضرة، وتكشف عوارها بصفة موضوعية وعلمية.

وأشارت كل الردود تقريبًا إلى علاقة ما بين سياسة ومواقف البابا وسياسة ومواقف الرئيس بوس وإن محاضرته لها مدلول سياسي.

وجاء رد البابا شنودة مما لا يتفق مع وضعه كبابا لطائفة مسيحية مسيحية تعيش في سماحة الإسلام ومســاواته وتتمتع بكل الحقوق، فضلاً عن النقطة الهامة، ألا وهي أن الكنيسة البيزنطية قديمًا اضطهدت الأقباط اضطهادًا وحشيًا وقتل أحد أباطرتها أكثر من مائة ألف قبطي، وحرمت ممارسة العبــادة القبطية وشردت رجال الدين حتى فر البطريرك بنيامين إلى مجاهل الصحراء، وكان الذي أنقذهم من هذا هو الفتح الإسلامي بقيادة عمرو بن العاص الذي أعاد لهم كل حقوقهم، واستقدم البابا الهارب وأعاد إليه كل اختصاصاته، بحيث أن الولادة الحديثة للكنيسة القبطية بدأت مع الفتح الإسلامي وعلى يدي عمرو بن العاص.

كان البابا يستطيع أن يقول ذلك فلا يخالف الحقيقة وينصف الإسلام ويكتسب محبة من المسلمين هو في أشد الحاجة إليها، وكان يمكن أن يكتب مثل الكاتب الإسرائيلي، وبعاطفته ولغته، وكان هو أولى بهذا كله.

ولكن الرد كان فاترًا، بل ولـه مسحة براجماتيزية لأنه قال أن على البابا أن يحسب حساب وقع كلماته على المســـــلمين، وأنه قد جانبه الصواب، حتى لو كان على ســـبيل الاستشهاد التاريخي (القاهرة 3/10/2006م).

وهناك ردود كشفت جوانب عديدة من الملابسات التي أحاطت بشخصية البابا أو الملابسات التي أثرت على خطبته.

ولم تكن ردود الصحافة الأوروبية بأقل حدة من معظم الردود العربية، وقد ذكرت جريدة نيويورك نيوزالبابا بكلمة المسيح "كيف يعاير الآخر لأن في عينه قذى وفي عينك أنت خشبة"، كما اعتبرت ردود أخرى آثار الخطبة بأنها "كارثية".

ولم يقف مع البابا إلا مستر بوش بالطبع وصقور المحافظين من دعاة الحرب.

ولم تعثر على ردود إسرائيلية، ويفترض أن تأتي هذه الردود موافقة ومؤيدة لأن البابا أعلن صراحة وقوفه مع إسرائيل وحض على الحوار الكاثوليكي ـ اليهودي.

وجمعت معظم الردود بين سياسة البابا وسياسة بوش واعتبرت أنه قدم مظلة روحية لسياسته في حرب الإرهاب المزعوم وغزوه للعراق والأفغان.

وأفسحت جريدة الأهرام صفحات كاملة على مدى أيام عديدة لفضيلة الشيخ سيد طنطاوي جاءت تحت عنوان حوار هادئ مع البابا ولكنها كانت سردًا لحقيقة الإسلام ومزاياه مما يتنافى مع ما قاله البابا.

خاتمـــــة
ما العمـــــل ؟؟!

القراءة المتأنية لما جاء بهذا الكتاب، أعني محاضرة البابا واستعراض الردود التي قدمها كتاب ثقات من الشرق والغرب كشفوا فيها عن جوانب متعـددة لمـا أحـاط بهـا من ملابسات، ولما اتصف به البابا من صفات واتجاهات، هذه القـراءة، تجعـل القـارئ يؤمن إن هذه المحاضرة تؤذن بعهد جديد، وأن البابا قد عـاد بنـا إلى العهـود الصـليبية، وأنـه مثـل البابـا أوربـان يـدعو لصـليبية جديـدة لهـا وسـائلها وطرقهـا أو إلى الحقبـة الاستعمارية التي كان قوامها الجندي، والتاجر، والكـاهن، وقـد رأينـا الجنـدي ممثلاً في حاملات الطائرات، ورأينا التاجر في الشركات عابرة القـارات، وهـا نحن نـرى الكـاهن في البابا بنديكت، والبابا صارم وطموح ولديه فكـرة ثابتـة عن أوروبـا والمسـيحية، ولا يعنيه شيء آخر في الدنيا إلا إذا كن حوارًا مسيحيًا ــ مسيحيًا يستهدف به إخضاع بقيـة الكنائس، وهو رجل دنيا وسياسة وليس رجل ديـن، وهو يرى أن أوروبا هي المسـيحية، وأن المسيحية هي أوروبا، وكما كان بنديكت الأول راعيًا لأوروبا، فإن بنديكت السادس عشر يصف نفسه حاميًا لها، وكما قام البابا جـون بـول الثـاني بـدور بـارز في مقاومـة الشيوعية، فيبدو أن البابا بنديكت السادس عشر يعـتزم ـــ ولـو على المـدى الطويـل، وبمختلف الوسائل ــ أن يقوم بدور في مقاومة "الفاشية الإسلامية".

من هنا، فإن فكـرة اعتـذار البابـا تبـدو سـذاجة أولاً لأنـه لن يعتـذر، فهـذا يخـالف طبيعته وسياسته، وثانيًا أنه لو رأى من بابا الانحناء للعاصفة أن يعتذر للمسـلمين، فلن يغير ذلك من نواياه، على أنه لن يعتذر.

القضية الآن.. ماذا نفعل إزاء هذا البابا العنيد ؟!

أعتقد أن على الحكومات الإسلامية والمؤتمر الإسلامي، وكذلك الهيئات الإسلامية أن تواجه البابا وتطالبه بتحديـد موقفـه نحـو الإسـلام والـدول الإسـلامية، وموقفـه إزاء السياسة الأمريكية ودعاوى "الفاشية الإسلامية"، وأن يميز في إشـاراته المتعـددة عن الإرهاب إلى أنها لا تصدر عن دين مسيحيًا أو إسلاميًا، فإذا رد ردًا إيجابيًـا، فـإن الـدول الإسلامية يمكن أن تبقي علاقاتها به على ماهية عليه، أما إذا رفض، أو تنصل، أو أجاب إجابة مجافية، فيفترض أن تسحب الدول الإسلامية سـفراءها من الفاتيكـان ؛ لأنـه من غير المعقول أن يبقي السفراء ليكونوا شـهداء على إهانـة الإسـلام أو المسـاس بـه أو السير في سياسة تناهض الدول الإسلامية.

بهذا وحده يمكن أن نضع البابا في مأزق، وقـد يكـون لديـه الشـجاعة أن يـرفض، وأن يضحي بالدول الإسلامية وسفرائها، وعندئذ نقول : برح الخفاء، ولكن يغلب عنـدما

يرى هذا الموقف الصلب أن يتراجع، وأن يعيـد أفكـاره في ضـوء المتغـيرات الجديـدة، بحيث يمكن التوصل إلى تسوية، ويمكن عندئذ أن يستأنف الحوار على أسس سـليمة، تثمر النتيجة المطلوبة.